وحدة المذهب بين المغرب وصحرائه

عبد العزيز بنعبد الله(*)

منذ عشرين سنة انطلقت (المسيرة الخضراء) بوحي من صاحب الجلالة الحسن الثاني حفظه الله وكان قد هيأ لهاجلالته في تؤدة وسرية كاملة ممهدا لهذا العمل البطولي بإثارة الجانب القانوني لقضية الصحراء أمام (محكمة لاهاي) الدولية، وبعد أشهر قضتها المحكمة في دراسة الملفات المقدمة من طرف كل من المغرب، وموريطانيا، والجزائر، تقدم القاضي الانجليزي بسؤال ذكي حول مذهب الإمام مالك الذي هو المذهب الوحيد بالمغرب الأقصى، في حين تنتشر مذاهب أخرى بالجزائر بالإضافة إلى مذهب الخوارج، فكان السؤال يهدف إلى معرفة المذهب المنتشر في الصحراء هل هو مذهب الإمام مالك أو غيره، فتأكد من الحجج التي قدمها المغرب مدى تعلق الصحراويين بكل المجالي والمجالات التي يتسم بها الكيان المغربي وفي ضمنها المذهب المالكي، واستجابة لسؤال القاضي الانجليزي صدر الأمر السامي من صاحب الجلالة نصره الله بإعداد دراسة في الموضوع فكلفت آنذاك بوضع تقرير باللغة الفرنسية ندرج فيما يلي خلاصة عنه باللغة العربية وكنت قد أصدرت آنذاك (معلمة الصحراء المغربية) وأعددت بالفرنسية مصنفا آخر بعنوان (الحقيقة حول الصحراء) صدر بفرنسا (Vérité sur le Sahara) (طبعة هورفات Horvath عام 1977).

(*) عضو أكاديمية المملكة المغربية.

إن من تتبع بدقة شبكة تطور الفكر المذهبي في إفريقيا يلاحظ باندهاش أن خطوط هذه الشبكة وحدودها تعانق أطراف خريطة واسعة ترسم أجزاء المغرب بسهوله وجباله وصحرائه، فلننظر إلى خريطة إفريقيا ولنتابع كيف دخل المذهب المالكي وكيف تطور ولماذا اختار بعض المناطق أو اختارته دون غيره، ولماذا عانق هذا الاختيار بدقة علمية متناهية يقف أمامها العالم الجغرافي مشدوها.

ويمكن رسم معالم هذا الخط على المراحل الآتية:

إن منبع الإلهام الفقهي والأصولي انبثق من مصدر الإسلام الأول وهو مدينة الرسول عليه السلام، وقد كان هذا العامل أول باعث على حصر اختيارات المغاربة في مذهب الإمام مالك لسببين هما: إن المدينة المنورة هي إطار هذا المذهب ولأن عمل أهل المدينة هو منبعه ومثاره وإذا اعتبرنا أن المغرب عاش فترة مخاض في تاريخه سماها كوتيي بالعصور الغامضة تأرجح خلالها بين مذاهب أبي حنيفة والشافعي والأوزاعي وبعض الاتجاهات الخارجية والرافضية، فإن نهاية القرن الرابع كانت بداية استقرار في الاعتبار والاختيار بالمغرب وحتى في هذه الفترة وبالنسبة أيضا لمذهب الخوارج فإننا نلاحظ أن المدينة المنورة كانت مصدر الإلهام حيث توجه العالم سمكو بن واسول والد أمير سجلماسة المدراري إلى المدينة المنورة لأخذ أصول العقيدة الخارجية عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس، ومع ذلك فقد شعرت الدولة المدرارية التي تأسست عام 140 هـ/757 م أنها على غير صواب، فاختار أميرها الشاكر لدين الله في منتصف القرن الرابع مذهب مالك

مستعيضا باتجاهه الوحدوي عن الخبط الفكري الذي عاشت فيه الصحراء آنذاك نحوا من قرنين، ولم يكد ينتصف القرن الخامس حتى هب الملثمون من الصحراء في حركة تآزرت تلقائيا مع الاتجاه العام الذي كان سائدا آنذاك في المغرب والأندلس، فاستأصلوا الشيعة الموسويين في أغمات، والروافض بالأطلس الكبير (حسب البكرى وابن حوقل) والبجليين (بماسة وتارودانت) كما قضوا على النحلة البرغواطية التي انحدرت من فكرة خارجية شرقية دخيلة تمكنت إلى الآن في الجزائر وتونس بالإضافة إلى مذهب الإمامين الشافعي وأبي حنيفة.

وفي نفس الوقت كانت فاس ملتقى لمذاهب السنة وخاصة مذهب الامام مالك الذي أقام أصوله المولى إدريس الأكبر بإسناد منصب القضاء لأول شخصية عربية هي محمد بن سعيد القيسي تلميذ الإمام مالك وسفيان الثوري. (الجذوة ص 13).

وإذا كانت هنالك في المغرب مظاهر خارجة عن مذهب مالك، فإنما هي اختيارات حرة استمرت إلى القرن الرابع حيث أصبحت جامعة القرويين منبع المعرفة المقارنة في إفريقيا قبل جامعة الأزهر بمائة عام، وقد نقل أبو جيدة الفاسي من الشرق وثائق شافعية، وقد توفي عام 360 هـ/970 م (السلوة ج 3، ص 13).

والواقع أن مدينة فاس بفضل مؤسسها المولى إدريس الذي يعتبر أول وآخر مثال في تاريخ الإنسانية لرجل دخل وحيدا فريدا عدا مولاه راشد فالتفت حوله (عام 177 هـ/793 م) قبائل البربر عن بكرة أبيها كما قال ابن خلدون وهي المستعصية التي لم ترضخ قبل ذلك لأحد، وتعزز ذلك منذ تأسيس القرويين بالتفاف قرطبة

والقيروان حول فاس حيث هاجرت أربعمائة أسرة قيروانية مثل آل الفهري الذين أسسوا جامعة القرويين وثمانية آلاف عائلة (أو ثمانمائة في رواية أخرى) من قرطبة بعد ثورة الربضيين، وكان ذلك بزعامة رجل بربري من طنجة من قبيلة نفزة، وهو يحيى بن يحيى الليثي المتوفى عام 234 هـ/848 م. وقد سمع الموطأ من مالك وسفيان بن عيينة (التهذيب ج II ص 300/النفح ج I، ص 332/ابن خلكان ج 2، ص 216/جذوة المقتبس، ص 359/المغرب جI، ص 163/ ابن الفرضي ص 44 الديباج ص 350). ومن الغريب أن كلا من الأندلس والمغرب اتجها نفس الاتجاه حيث ألزم هشام بن عبد الرحمن الأموي كافة أهل العدوة الشمالية بمذهب مالك، وذلك بدعوة من يحيى الليثي النفزاوي (ونفزة التي يرجع إليها نسب ابن أبي زيد القيرواني وآل بناني) وأول من نزل منهم بالصحراء في القرن الخامس هو محمد الصديق بناني حيث توغل داخل الصحراء إلى السودان. وتتشخص قبيلة نفزة الصحراوية في زينب بنت اسحاق النفزاوي الهوارية التي كانت زوجة أبي بكر بن عمر الكدالي ثم يوسف بن تاشفين بعده.

فمذهب مالك تعزز إذن في الأندلس بحركة نابعة من المغرب في شخص يحيى الليثي الذي كان قاضي القضاة عند الأمويين كما تعزز في إفريقية بفضل مرونة سحنون (الجذوة ص 360) بالاضافة إلى الاعتراف بالجميل للامام مالك الذي ساند العلويين ضد خصومهم العباسيين ببغداد، ولم يكد المرابطون يدخلون مدينة فاس خلال القرن الخامس حتى اتجهوا في تعزيز جامعة القرويين فوسعوا بلاطاتها وأوصلوها إلى ما هي عليه الآن، مندهشين مما لاحظوه من تقاطر رواد المعرفة والفكر عليها من الأندلس وإفريقيا

الشمالية حيث تجلت وحدة الفكر المذهبي في مظاهر مختلفة كان أقلها الاستناد في قراءة القرآن منذ القرن الرابع إلى قراءة نافع من حدود ليبيا إلى حدود السودان، وكذلك على عملية الوقف الهبطي تبسيطا لتلقين القرآن في الكتاتيب التي كانت مجرد جناح في المسجد امتد إلى الصحراء بنفس الاسم حتى سميت قرية في شنقيط بالامسيد في حين أن الكلمة المستعملة في الشرق هي الكتاب وفي السودان الشرقي الخلوة.

ولا يخفى ان العالم ميمون الصحراوي المتوفى 506 هـ (وقيل 530 هـ حسب ابن الآبار) هو شيخ القاضي عياض (الاعلام للمراكشي ج 7، ص 239) إمام المذهب المالكي في المغرب وصاحب المدارك التي هي سجل رجالات المذهب حيث نوه بانتشاره آنذاك (ص 65) في المغرب الأقصى والصحراء إلى بلاد من أسلم من السودان باستثناء المغرب الأوسط الذي كانت فرق الخوارج الصفرية والاباضية قد تغلغلت فيه وخاصة في بلاد الزاب وحول تلمسان وتاهرت.

وقد كان تمسك الصحراء بمذهب الامام مالك أوثق وأبلغ إذ عن طريق هذا المذهب تاسست الدولة المرابطية منبثقة من الصحراء بدافع من واجاج بن زلو الذي اختار عبد الله بن ياسين بإيعاز من أبي عمران الفاسي إمام المذهب في تونس، ولذلك كان أهل الصحراء يهتمون بحفظ شيئين اثنين في مقدمة ما يحفظون، وهما كتاب الله بقراءة نافع ووقف أبي جمعة الهبطي ومدونة سحنون حتى ذكر اليوسي من رجال القرن الحادي عشر في حديثه عن الرجراجيين ان أهل دغوغ الذين انتشروا في المغرب وصحرائه

كان يحفظ المدونة منهم عن ظهر قلب 6760 من الرجال وخمسمائة من النساء (المعسول ج 4، ص 9) ورغم ما قد يكون في ذلك من ايغال فهو يعطينا صورة عن قوة مذهب مالك في الصحراء، وقد ذكر المؤرخون أيضا أن أهل رجراجة في الساقية الحمراء وما والاها حفظ منهم القرآن والمدونة ثلاثمائة امرأة. وقد شاهدت في أرباض تافراوت قبور عشرين امرأة ممن كن يحفظن المدونة، ومعلوم ان العتبية التي انتشرت في المغرب وصحرائه صنفها محمد ابن أحمد بن عبد العزيز العتبي تلميذ يحيى بن يحيى الليثي وان كان أيضا تتلمذ لسحنون.

واذا حاولنا أن نستعرض الحجج الشاهدة بمدى تغلغل مذهب مالك في الصحراء انطلاقا من جامعة القرويين، فلن تكفينا مئات الصفحات ولدي من ذلك قوائم مدرجة في كتابي «معلمة الفقه المالكي بالمغرب». ولنضرب لذلك أمثلة بسيطة في خصوص مصنفات أصبحت تشكل المصادر الكلاسيكية للفقه المالكي بالمغرب وهي مختصر الشيخ خليل وتحفة ابن عاصم ولامية الزقاق (خع 1360 د)

فقد شرح مختصر خليل أحمد بن بابا السوداني التنبكتي ومحمد بن عبد الكريم التواتي كما ألف الأول في مبهمات خليل (مخطوط في خم 4975) وشرح صغرى السنوسي في عقيدة المذهب، وقد نظم محمد يحيى الولاتي منهج الزقاق وشرح محمد بن محمد الدليمي لا ميته (خم 8921) (خع 2140 د) وشرح بايا بن أحمد بيبا الشنكيطي، التحفة العاصمية، وألف محمد بابا الصحراوي كتابا في الأصول لدعم مذهب مالك، وكان محمد بن يوسف الركائبي مرجع الصحراء في فقه مالك حيث كان لا يجارى في الفتاوى في

فقه المذهب وهو خريج القرويين ومن إخوته الخليل الفقيه المشهور في القضاء والفتوى، وممن تخرج من القرويين أيضا الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الشنجيطي المتوفى عام 1224 هـ/1809 م، وقد برز في المذهب على أهل عصره، وكان شيخ الجماعة بفاس مدة إقامته بها، ومعلوم انه عن طريق الشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن القندوسي المتوفى عام 1244 هـ انطلق الاسناد لكثير من العلوم الشرعية وخاصة في مذهب مالك في الصحراء وحدها، بل حتى في شمال المغرب عن طريق المسند الفقيه السيد التهامي ابن رحمون.

وحتى بين النساء نجد العديدات مثل الغالية بنت ابراهيم السباعية التي تخرجت في الحوض بالصحراء والتي كانت تحفظ مختصر خليل، وكان لها باع طويل في فقه المذهب وخاصة الفرائض، وقد تمسك ولدها الحاج عبد الله الجراري بمذهب مالك رغم دراسته في الأزهر حيث عاد إلى طرفاية عام 1311 هـ/1893 م بعد ان أقام في رواق المغاربة وجال في الافغان والهند والاستانة، وكانت شيخات العلم تدرسن مختصر خليل لجموع النساء كالعالمة الكنتية زوجة الشيخ المختار التي ختمت المختصر في درس خاص بالنساء في نفس الوقت الذي ختم زوجها درسه للرجال، وقد ألف فيهما ولدهما العلامة محمد بن الشيخ المختار كتابه «الطريفة والتالدة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة» ويوجد بخزانة جامعة القرويين (خق ل 40/779) دفتر في مجلدين لوثائق فقهية في شأن أصول املاك المرابيح قرب وادي كير والساورة على مذهب مالك. وذلك من قبل زوجة المولى اسماعيل أم مولاي زيدان عام 1111 هـ/1699 م.

وإذا راجعنا لائحة الكتب الدراسية التي كانت مرجع فقهاء الصحراء نجدها لا تختلف عنها في جامعة القرويين، وقد أعطانا احمد بابا السوداني في ترجمته عن نفسه صورة لذلك (كفاية المحتاج والاعلام للمراكشي ج 2، ص 100) كما تتجلى وحدة المنهجية وطرق التدريس بين السهول والصحراء في المغرب الواحد، فيما كتب من دراسات في الموضوع (المعسول ج 13، ص 10)، ومن ذلك ان الطلبة كانوا يكتبون في مجموع المغرب أسفل ألواح القرآن متون المرشد المعين والمختصر والتحفة في مذهب مالك.

وكان ملوك المغرب وخاصة العلويين الاماجد يستعينون برجال الفتوى من علماء المذهب في الصحراء، مثال ذلك محمد البوهالي الركائبي الذي استقدمه جلالة الحسن الأول عام 1291 هـ 1874 م، وعاش في بلاطه عشر سنوات ثم عاد إلى باعمرانة وباقي الصحراء مزودا بتكوين أقوى في مدرسة القصر العامر التي كانت منبرا يتبارى فيه كبار العلماء وخاصة في الدروس الملوكية وكان التبادل موصولا يدل عليه وجود قضاة صحراويين متعددين في الحواضر مثل عثمان التواتي قاضي سلا المتوفى عام 1158 هـ ومعلوم أن العمل السجلماسي في تدوين ماجريات فقه المذهب يعزز العمل الفاسي وكلاهما مستعمل في السهول والجبال والصحراء إلى حدود النيجر، لان قاضي تارودانت عاصمة سوس، كان هو قاضي القضاة ينسحب نظره على كل قبائل الصحراء التي كانت تشكل كما يقول سيدي العربي بن السائح في بغيته (ص 74) بلدا هو أقصى المغرب. ومن هؤلاء محمد بن أبي بكر الاقاوى الذي تولى القضاء بظهير شريف مؤرخ ب 1124 هـ كقاضي للقضاة ومفتي أكبر في تخوم الصحراء، وقد تحدث صاحب كتاب «أربعة

قرون من تاريخ الصحراء» الأستاذ مارتان عن ظهائر تعيين القضاة في الصحراء الشرقية طوال أربعة قرون (راجع خاصة القضاء في توات ص 314) ومنهم أيضا أحمد دوكنا بن محمد المختار مفتي تيندوف الذي كان مرجع الصحراء كلها في الفتيا، ومن مظاهر اعتزاز فقهاء الصحراء بالمذهب المالكي انهم كونوا ما سموه بطريق الفقهاء، وهي سبيل الحجيج من مصر إلى المغرب تمر عن طريق فسزان وتوات لا عن الجزائر (راجع رحلة ابن مليح التي أشار إليها صاحب الاعلام ج 4، ص 276).

وهنالك مئات أعلام الفقه المالكي من المغاربة عينوا قضاة في حواضر الشرق العربي كقضاة مالكية نظرا لما عرف به علماء المغرب سهولا وصحراء من ضلاعة وعمق في هذا المذهب بين اخوانهم المالكية في العالم الاسلامي، وقد تولى يونس بن طربية القصرى (من قصر كتامة) قضاء طرابلس الغرب كما تولى التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة عام 641 هـ/1243 م. (تكملة الصلة لابن الآبار ج 3، ص 741) ولدينا قائمة لهؤلاء العلماء الذين تولوا القضاء أو تدريس الفقه المالكي في الشرق.

*****

وثائق لم تنشر عن الصحراء المغربية

عبد الهادي التازي(*)

كم هي كثيرة وكثيرة جدا الوثائق الدولية التي تتعلق بالصحراء المغربية، ولقد أتاح لي حضوري كعضو خاص لهذا الغرض (AD Hoc) في محكمة العدل الدولية بلاهاي يوليوز 1975، أي قبل عشرين سنة، أتاح لي ذلك الحضور ضمن الوفد المغربي، الذي كان يرأسه السيد الأستاذ ادريس السلاوي، أن أتعرف على المزيد من المعلومات التي تتصل ببلادنا.

فلقد كانت المحكمة - لكي تحسم في أمر الذين يقولون انهم «معنيون» أيضا بأمر الصحراء - ألقت سؤالا على مختلف الجهات حول المذاهب الفقهية المعمول بها في الصحراء، وكان السؤال على هذا النحو:

نظرا للأهمية التي أعطيت أثناء المناقشات للترابط الديني فان الرئيس يضع السؤال التالي على الهيأة المغربية والموريطانية والجزائرية: لقد فسر لنا بأن السكان المغاربة وسكان الصحراء الغربية مسلمون سنيون ينتسبون إلى المذهب المالكي، فهل إن هذا الانتماء للمذهب المالكي هو خاصية تميز سكان المغرب عن باقي الجهات الأخرى، مثلا عن سكان الجزائر الجارة».

(*) أستاذ جامعي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ولقد كان جواب المغرب - فيما أذكر - على هذا السؤال أن بلادنا تتميز عن الجيران:

أولا بأن تشبثنا بالمذهب المالكي بلغ حدا بحيث لم يوجد له ولا يوجد له إلى اليوم منافس أو مزاحم يستطيع أن ينال منه سيما إذا عرفنا أن بلد المغرب الأقصى ظل الدولة الوحيدة التي حافظت على كيانها عبر التاريخ ولم تستطع أية جهة أخرى أن تقحمها بما في ذلك العثمانيون الذين استولوا على بقية أقطار الشمال الافريقي وكانوا يحملون معهم المذهب الحنفي.

ثانيا: أن الرحالة المغاربة الذين كانوا يقصدون بلاد المشرق سواء أكانوا من شمال المغرب أو من جنوبه، كانوا يشعرون بالمفاجأة عند تخطيهم الحدود المغربية، بما يرونه من مذاهب أخرى منتشرة بتلك البلاد وكانوا كلهم يعبرون عن ارتياحهم من واقع الأمر في بلادهم، ذلك الواقع الذي يتمثل في توحيد المغرب على مذهب واحد، هو المذهب السني المالكي، ومن جملة هؤلاء الرحالة ابن بطوطة الذي تجول في المشرق خلال القرن الثامن الهجري، وكذا الوزير الاسحاقي الذي زار تلك البلاد المشرقية عام 1143-1731.

ثالثا: أن المخزن يعني الحكومة المغربية، كان يشترط في الشخصيات السامية، التي تتولى مناصب القضاء بالمغرب، أن تكون ملمة بالمذهب المالكي بل وملتزمة بتدريس أمهات هذا الفقه في المناطق التي يحكمون فيها، مثل رسالة أبي زيد القيرواني ومختصر الشيخ خليل، وهما المادتان اللتان كانتا تدرسان في سائر بلاد المغرب، وهذا يخالف الحال في البلاد المجاورة، فإن هناك

مذاهب أخرى كانت وما تزال منتشرة ولكل منها قضاؤها ومحاكمها.

رابعا: ان هذا المذهب السني المالكي كان يسود بالنسبة للمغرب في كل الثغور والمدن التابعة للدولة المغربية التي وردت مفصلة مدينة مدينة ابتداء من وادي الذهب جنوبا إلى ما وراء مليلية شمالا وذلك في وثيقة (الشفرة) المستعملة في بداية القرن الذي نعيشه اليوم.

خامسا: ان المغاربة – بالرغم من تقديرهم للمذهب الحنفي كمذهب – كانوا يعتزون أيما اعتزاز بمذهبهم المالكي، وكانوا ينعتون الشخص الذي يعتمد على الحلول السهلة بأنه «مسلم حنفي».

سادسا: ان من عداد الأسباب التي جعلت المغاربة يقاومون المد التركي العثماني نحو بلادهم، علمهم بأن هؤلاء الأتراك يعتنقون مذهبا غير المذهب المالكي الذي ورثوه عن أجدادهم وأسلافهم.

سابعا: ان جل المخطوطات – ان لم نقل كل المخطوطات – المحبسة على الخزائن العلمية الكبرى، سواء في شمال المغرب أو جنوبه أو شرقه أوغربه، كلها كتب فقه للمذهب المالكي، ويكفي أن نعرف أن مدينة فاس وحدها كانت تحتوي على مائة وأربعين كرسيا لتدريس الفقه المالكي.

ثامنا: وهنا يصح القول بأن المذهب المالكي ليس فقط شعارا للدولة المغربية، ولكن الدولة المغربية أصبحت مدرسة متخصصة به بحيث إذا قيل، إن فلانا من المغرب فإن معناه أنه سني مالكي.

ذكرت كل هذا اثباتا لهذه الوثائق التاريخية أولا ثم لاخلص إلى وثيقة دبلوماسية ثانية كانت من جملة الوثائق التي لم تنشر مما كان يتعلق بموضوع الصحراء ويتعلق الأمر بالرسالة الهادفة التي وردت الاشارة إليها في موسوعتي «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، المجلد التاسع، ص 60-61 عند الحديث عن الحدود الجنوبية والشرقية للمغرب فلقد ورد في هذا المجلد مايلي:

« ...وإذا ما واكبنا العاهل المغربي سيدي محمد بن عبد الله –وهو سيد البلاد – سنجده أولا يقوم – في بعض رسائله – لحاكم جبل طارق بتاريخ 6 شوال 1178 هـ (29 مارس 1765) بتبليغ انذار إلى ملك انجلترا بعدم تجاوز الخط 23 گراد[1] جنوب المغرب حيث كان يتجر الفرنسيس، ويطلب إليه نشر هذا الخبر عند الميرانطيين وجميع الرياس من جنسهم ليتجنبوا مثل هذا الأمر... وقد قدمنا إليكم هذا على وجه الانذار والاعلام... »

ورغبة في اشاعة الفائدة وخاصة بالنسبة لزملائنا وطلبتنا، أسوق النص العربي الكامل للرسالة الملكية وناتي كذلك بترجمتها إلى الانجليزية عن هوبكنز HOPKINS وكذلك بالترجمة الفرنسية عن الأستاذ سعيد النجار، تقول الرسالة :

(1) يلاحظ أن مدلول گراد غير مدلول دوگري.. ومعنى هذا أن الحدود المغربية الجنوبية كانت على ذلك العهد تتجاوز الرأس الإيبيري على ما تذكره مصلحة الخريطة..

«الدكتور عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، 9، ص 60، تعليق 55».

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الطابع السلطاني الكبير

بداخله: محمد بن عبد الله بن اسماعيل

الله وليه ومولاه

وبدائرته بيت الامام البوصيري:

(ومن تكن برسول الله نصرته ■ إن تلقه الأسد في أجامها تجم)

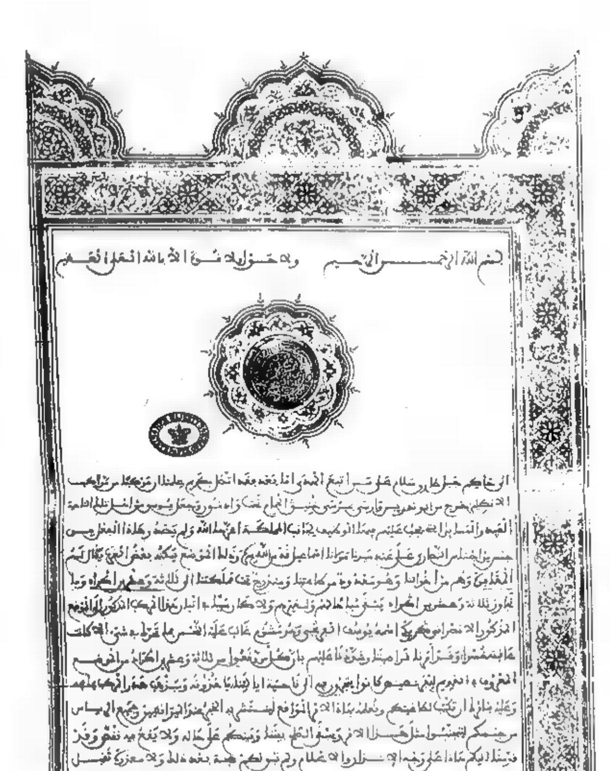
إلى حاكم جبل طارق،

سلام على من اتبع الهدى

أما بعد، فقد اتصل بكريم علمنا أن مركبا من مراكب الانكليز خرج من الوندريس وأرسى بمرسى خنيق الحمام تحت وادي تون، وجعل يوسق من أهل تلك الناحية العبيد والمسائل التي يجب عليهم فيها الوظيف لجانب المملكة أعزها الله، ولم يصدر هذا الفعل من جنس من أجناس النصارى على عهد سيدنا مولانا اسماعيل قدس الله سره، وذلك الموضع يسكنه بعض العرب يقال لهم المغافرة وهم من أخوالنا، وهو معدود من طاعتنا، ومندرج تحت مملكتنا إلى ثلاثة وعشرين اكراد، وما تجاوز ثلاثة وعشرين أكراد، يبقى مباحا لهم ولغيرهم، ولا كان سببا في إتيان هذا المركب المذكور إلى الموضع المذكور إلا نصراني كريكي اسمه يوسف الفرنجي، وهو مشؤوم غالب عليه النحس فما تحرك في شيء إلا كانت عاقبة خسرا، وقد أمرنا قراصيننا وشددنا عليهم بأن كل من وقعوا من ثلاثة وعشرين اكراد من الموضع المعروف في القديم للفرنصيص كانوا يتجرون فيه إلى ناحية إيالتنا، يأخذونه وينهب هدرا المركب بما فيه، وعليه فنامرك أن تكتب لطاغيتكم وتعلمه بهذا الأمر الواقع لينتشر به الخبر عند الميرانطيين وجميع الرياس من جنسكم، ليتجنبوا مثل هذا الأمر ويبقى الصلح بيننا وبينكم على حاله ولا يقع فيه نقص، وقد قدمنا إليكم هذا على وجه الإنذار والإعلام ولم تبق لكم حجة بعد ذلك ولا معذرة تقبل.

صدر الأمر بكتبه سادس شوال عام ثمانية وسبعين ومائة ألف.

إنذار من المغرب لانجلترا
6 شوال 29/1178 مارس 1765.



بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

الى حاكم جبل طارق سلام على من اتبع الهدى اما بعد ...

... من شوال عام ثمانية وسبعين ومائة والف

In the name of God the merciful, the compassionate.
There is no strength nor power except in God the lofty, the mighty.
[Seal of Muhammad I]

To the governor of Jabal Târiq. Peace be upon him who follows the right way.

It has come to our noble Knowledge that one of the ships of the English departed from London (al-Lûndrîs i.e. Londres) and anchored ■ the port of Khunig al-Hamam below Wâd Nûn ■■ proceeded to load, from the people of that district, slaves and merchandise ■ which they should pay duty to the Kingdom (may God strengthen it). No act of this kind was committed by any Christian nation during the era of our master and Lord Ismâîl (may God sanctify his spirit). That place is inhabited by certain Arabs called the Maghafira, who are our maternal relatives (akhwâl), and it is counted in what owes us obedience and is incorporated under our Kingdom as far as 23° (agrâd). What is beyond 23° remains open to them and others. The cause of the coming of this aforementioned ship to the aforementioned place was nothing but ■ Greek (Grîgî) Christian names Yûsuf al-Firanji. He ■ ill-starred, dominated by misfortune, and makes ■ move but its sequel is a loss. We have ordered our men-of-war and insisted to them that all those who are found from 23° (from the place known of old to the French, where they used to trade) to our territory, they may take them, and the ship and what is it and on it shall be forfeit. We therefore order you to write to your sovereign and inform him of this current order so that the news of it may spread to the admirals and all captains of your nation, ■ that they may avoid affairs of this kind and so that the treaty between us and you may continue and there shall be no falling short in it. We forward this to you by way of warning and information, and after this you will have no acceptable argument or excuse.

Ordered to be written 6 Shawwâl in the year 1178.

Au nom de Dieu Clément et Miséricordieux

Il n'ya de force et de puissance si ce n'est en Dieu, Grand et Incommensurable.

Le grand [illegible] Sultanien

Dans le champ central : Muhammad B. ^{c}Abd Allâh B. Ismâ^{c}îl, Dieu est son Protecteur et son Maître
Le pourtour porte le vers suivant de l'Imâm al-Bûsîrî :
Celui qui attend son secours de l'Envoyé de Dieu
Les lions eux-mêmes, lorsqu'ils le rencontrent dans leurs fourrés [illegible] taisent.

Au Gouverneur de Jabal Târiq,

Il a été porté à votre connaissance qu'un bâteau anglais est parti d'al-Lûndrîs (Londres), [illegible] jeté l'ancre [illegible] port de Khunîq al-Hamâm [illegible] Wâdî Nûn, et [illegible] procédé au chargement d'esclaves et de marchandises provenant de la population de cette région et sur lesquels ils devraient payer un droit au Royaume (que Dieu lui assure la puisance). Aucun acte de cette nature n'a été commis par [illegible] quelconque nation chrétienne durant le règne de notre Maître et Seigneur Ismâ^{c}îl (que Dieu sanctifie son esprit). Cet endroit est habité par certains Arabes appelés al-Maghâfira qui sont nos parents maternels (akhwâl) ; il est placé sous notre obédience et fait partie de notre Royaume jusqu'à 23 agrâd. Ce qui est au delà de 23 agrâd leur est permis à eux [illegible] à d'autres. Celui qui a été la cause de la venue du bâteau précité à l'endroit mentionné ci-dessus n'est autre qu'un Grec (Grîguî) chrétien appelé Yûsuf al-Firanjî, être de mauvais augure, dominé par l'infortune et dont toutes les entreprises ont une conséquence néfaste. Nous avons alors ordonné instamment à nos corsaires de se saisir de tous ceux qui seront trouvés depuis 23 agrâd (depuis l'endroit connu dans les temps anciens par les Français qui y commerçaient) vers notre Royaume. Aussi nous t'ordonnons d'écrire à votre Souverain et de l'informer de cette affaire, afin que les animaux et les capitaines de votre nation en soient avertis et afin qu'ils puissent éviter de telles situations et que la paix totale continue de régner entre nous et vous. Nous vous avons adressé ceci pour vous avertir et vous informer. Dorénavant, vous n'aurez plus d'argument ou d'excuse acceptables.

Ordonné pour être rédigé, le
6 shawwâl 1178 (29 Mars 1765)

ولقد وقفت على الصورة الأصلية لهذه الرسالة زوال يوم 1991/12/4 في (Public Record Office) تحت رقم 1، porl Ref. S.P. /102/2.

كان الخاتم الذي نراه فوق نص الرسالة محاطا بزخرف ملون أصفر وأحمر وأزرق، والعمودان اللذان يحفان النص مع ما فوق الرسالة كذلك بالألوان الثلاثة: الأصفر والأحمر والأزرق وتعتبر الرسالة في الواقع لوحة فنية رائعة من روائع المنمنمات ومن المعلوم أن هذا الختم بما يحتوي عليه من شعر الامام البوصيري.

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في أجامها تجم

أثار جدلا كبيرا في الأوساط الدبلوماسية الأروبية وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية عندما وقف عليه لأول مرة في حياته الرئيس جورج واشنطن.

فلنرجع بعد هذا لقراءة الوثيقة المغربية قراءة جيدة سواء فيما تتضمنه من أعلام جغرافية من أمثال خنيق الحمام الذي يقع جنوب وادي نون.. هذا إلى بعض الاعلام الشخصية أمثال المغافرة..

ولابد لنا أن نشير إلى الصدى الذي خلفته هذه الرسالة التي تحتوي على إنذار موجه من المغرب إلى دولة كبرى.

وهنا سأربط بين هذه الوثيقة المؤرخة عام 1765 وبين الوفد الذي وجهه الملك محمد الثالث إلى العاهل الاسباني كارلوص الثالث بعد سنة من هذا التاريخ أي في عام 1766.. ففي هذه الرسالة الموجهة إلى ملك اسبانيا لم ينس العاهل المغربي أن يتحدث عما وقع من احتكاك بين المغرب وبين انجلترا في المنطقة. ولاشك أن قصد السلطان سيدي محمد بن عبد الله من التذكير بالحادث إنما هو

تنبيه ملك اسبانيا إلى أن لا يطمع اطلاقا في شبر من أراضي المغرب: «وإن كان لعظيمكم غرض في شيء وهو جائز في ديننا فإننا نقضيه».

ولاشك أن التسليم في الأرض من أبرز ما يحرمه الاسلام.. ومعنى كل هذا أن التفريط في التراب تفريط في الدين.

وأخيرا فإن من نافلة القول أن نذكر هنا بما يبدو في هذه الرسالة التي كانت تعكس الموقف الذي اتخذه الفرنسيون حيث كانوا يعترفون بامتداد سيادة المغرب جنوبا إلى درجة 23 گراد، وربما سجل هذا الاعتراف كتابة ومما يؤكد هذا استعمال الكلمة الغربية گراد بدلا من مرادفها المعروف درجة.

وملخص القول أن حكم المغرب ظل يضم الصحراء الغربية وهو أمر لم ينازعه فيه أحد إلى أن ظهرت حركة التوسع الأوروبي خلال القرن التاسع عشر.

وبعد. فهذه صفحات من تاريخ صحرائنا يظل دينا علينا تفقدها والتنقيب عنها من أجل تبصير ناشئتنا حتى تؤمن إيمانا بأنه ماضاع حق وراءه طالبه.

*****

البيعة وارتباط الصحراء بالمغرب

الحسين بوزينب(*)

لما ارتأينا معالجة موضوع البيعة والصحراء، كان هدفنا محاولة قراءة الحاضر على ضوء ماحدث في الماضي، معتمدين أولا على ماتركه الاسبانيون أنفسهم، ثم على مالدينا من تراث يخصنا، قد يجهل هؤلاء أبعاده. فتداخل المصالح واختلاف الهويات جعل من المنطقة الأطلسية التي يتقاسمها المغرب مع الاسبان الكناريين، مسرحا تقابلت فيه عبر التاريخ تلك المصالح وتواجه فيها الجيران لصد بعضهم البعض. لهذا سنرى أن فهم المشاكل الحالية في المنطقة تحتم علينا استرجاع الماضي لنجد ان التاريخ يعيد نفسه بطريقة أو بأخرى.

الصحراء وجزر الكناريياس

العلاقة بين الأرخبيل الكناري والشواطئ الصحراوية لاتحتاج الى دليل لإثباتها. فالوثائق الاسبانية للقرن السادس عشر مثلا، تتكلم على نشاط كناري مكثف في هذا الشواطئ، يخص سبي العبيد أو عتقهم. كما عرفت المنطقة ملاحة من أجل أغراض أخرى. ففي إحدى رسائل Jeronimo de Vigil حاكم Gran Canaria المؤرخة في سنة 1553 يخبر فيها عن أشياء تهم المغرب، يقول : "من قديم الزمان وإلى يومنا هذا اعتاد أصحاب هذه الجزر أن يقوموا

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

بالهجمات البحرية المذكورة، وبأسر كثير من المغاربة. وكانوا يذهبون كذلك لعتق أسراهم فيحملون معهم أنسجة الكتان وأقمشة وسجاجيد وقلانيس وأحذية وأشياء أخرى تافهة، ويأتون من هناك بعبيدهم وبالعنبر"[1].

إذا فمن الطبيعي أن تكون هناك علاقة بين هذه الجزر الاسبانية وبين الشواطئ المقابلة لها. ولكن مايهمنا أن نعرفه في هذه المناسبة هو كيف كان يعتبر الاسبان هذه الاراضي التي كانت تجاورهم. فهل كانوا يعتبرونها أرضا خلاء لامالك لها ولا وليا، أم الأمر كان على عكس ذلك؟

تجدر الاشارة في بداية الامر، الى أن قضية حدود البلدان كانت مطروحة لدى الإسبان عند تخطيطهم للإستيلاء على بلد ما، خصوصا لتفادي المواجهة مع جيرانهم ومنافسيهم البرتغاليين. لهذا سنجدهم يبرمون اتفاقية في سنة 1509 سميت ب "اتفاقية بين قشتالة والبرتغال لسنة 1509 حول امكانية الملاحة في افريقيا"، فهذه الاتفاقية التي اتت لتوضيح المجال المخصص لكل من الطرفين والتي تذكر بعدة اتفاقيات سابقة بينهما، تمد المغرب (Berberîa) عند رأس بوجدور ونون (كذا) حيث تبدأ أراضي غينيا[2].

وفي قرار ملكي، مؤرخ في سنة 1576، يرخص الكونت Lanzarote القيام بغارات في "أراضي العرب"، نجد الحدود المذكورة هي نفسها، مع إضافة تخص سكان جنوب بوجدور. فتقول أن لايذهب أحد... (من) تلك الجزيرة للقيام بغارات في المغرب (Berberia) أراضي الشريف، ويمكن القيام بذلك بمخاطرة أقل خارج ... (تلك) الأراضي والمراسي بعد تجاوز رأس بوجدور حيث يوجد عدد كبير

من المسلمين العرب (Moros alàrabes) من غير رعايا الشريف المذكور [3].

فبالنسبة للإسبانيين نجد أن الاراضي الممتدة الى رأس بوجدور هي مغربية بدون جدال وفيما يخص جنوب بوجدور فهناك سكان كثيرون من غير رعايا الشريف أي الملك السعدي.

ومعنى هذا أن الوثيقة لاتسقط انتساب الأراضي الواقعة جنوب بوجدور الى الإشراف السعديين بل تشير فقط إلى الخروج على الطاعة لبعض هؤلاء المسلمين أو المغاربة، خصوصا وأن الوثيقة تستعمل لفظة Sùbdito (= رعية) التي تحمل معنى الوجود تحت طاعة مطاع وضمنيا معنى المبايعة، إذا نظرنا إلى الأمر من الزاوية المغربية الإسلامية. وبعبارة أخرى، قبول الدخول تحت حكم حاكم ما. إذن يمكن أن نستنتج من هذا أن وجود طائفة خارجة عن طاعة السعديين يعني من ناحية أخرى وجود طائفة أخرى قد قبلت هذه الطاعة.

إن الاراضي المغربية المجاورة والمقابلة للجزر الإسبانية، كانت تشكل منذ عهد بعيد مجالا حيويا لاغنى للكاناريين عنه. فرغم كل الأوامر الملكية الاسبانية لإحترام حرمة الأراضي المغربية، وذلك من أجل صيانة العلاقات بين الدولتين، فإن الكاناريين كانو لايجدون بدا من خرق القوانين والأوامر للحفاظ على حياتهم. فلنتأمل ماجاء في الوثيقة الإسبانية المؤرخة في 29 ماي من سنة 1553، التي قدمنا بعض المقتطفات منها : "لقد وجدت أن سكان هذه الجزيرة يذهبون للقيام بالحرب ومهاجمة الشواطئ المغربية، وذلك بمقتضى قرار قديم من جلالته رخص لهم ذلك مقابل تمتعه بخمس

(الغنائم؟). وقد أخبرت أن في السنة الماضية طلب ملك البرتغال من السيد Rodrigo بواسطة قرار من صاحب الجلالة أن يكفوا عن الإبحار من هذه الجزر إلى المغرب وكذا عن الذهاب لتحرير الأسرى. إنني لم أتمكن من الحصول على هذا القرار. فمن قديم الزمان وإلى يومنا هذا اعتاد أصحاب هذه الجزر أن يقوموا بالهجمات البحرية المذكورة، وبأسر كثير من المغاربة. وكانوا يذهبون كذلك لعتق أسراهم، فيحملون معهم أنسجة الكتان وأقمشة وسجاجيد وقلانيس وأحذية وأشياء أخرى تافهة، ويأتون من هناك بعبيدهم وبالعنبر. فالولاة الذين تعاقبوا على الحكم هنا، تغاضوا على الامر، رغم علمهم ببعض الاموال التي كانوا يصطحبونها معهم، وعدم اكتراثهم بالسفن، الا إذا تعلق الامر بالسلاح والحديد. وماعدا هذا فقد غض الطرف بسبب الحاجة الماسة التي تعيشها هذه الجزر، فسكانها هم كذلك من رعايا صاحب الجلالة، ومن الإنصاف أن نغيثهم ولا نتركهم يموتون جوعا، قبل الاكتراث بالسفن وتطبيق القوانين التي تتكلم على الأشياء الممنوعة تطبيقا صارما، فالأرباح لايجنيها سوى الولاة (...)"[4]

هكذا إذن، سنرى مع مرور الزمن أن إسبانيا ستبحث عن قواعد متقدمة على الشاطئ المغربي لضمان مختلف مصالحها الأمنية والغذائية : Santa Cruz de Mar Pequeàa المقابلة لجزيرة Lanzarote (1476)، الامتيازات التي حصل عليها الاسبانيون بفضل معاهدة السلام والتجارة المغربية الاسبانية المبرمة في 28 ماي من سنة 1767 التي تخول لإسبانيا حرية إقامة أية مؤسسة شاءت جنوب واد نون[5]، احتلال Villa Cisneros (الداخلة) سنة 1884الخ[6]

وإذا كانت المصالح السالفة الذكر هي السبب في وجود اسبانيا على شواطئ الصحراء المغربية ، فبقاؤها هناك كان رهينا بإيجاد حل توافقي لوضعية تتناقض مع المرامي التي كان قد أتى من أجلها الاسبان. وفي هذا الصدد يجدر بنا أن لاننسى عاملا كثيرا ماقد يغفل عند دراسة هذا الموضوع : أي العنصر الديني، لأن المسألة قد طرحت بدون شك منذ البداية بالنسبة لأهالي المنطقة كاحتلال مسيحي لأراضي المسلمين، وهذا أمر لايختلف عما حدث بالنسبة لباقي المناطق المغربية التي عرفت الاحتلال الاسباني والبرتغالي. لهذا سنرى أن الاسبان يتخذون مجموعة من التدابير منذ اللحظة التي عزموا فيها على إخضاع مجمل المنطقة الصحراوية[7].

لهذا فإن الخطاب الذي اعتمده الاسبان لاستمالة عواطف الصحراويين نحوهم، بالتظاهر أحيانا بالأخوة تجاههم، لم يكن بطبيعة الحال صائبا. وهذا لايبين سوى جهل الاسبانيين العميق للحقيقة الثقافية والسسيو لوجية التي كانت تميز المجتمعات الاسلامية أنذاك. لنتأمل ماقاله الجنرال فرانكو عند زيارته للصحراء سنة 1950 : "إن إخوانكم الإسبانيين لم يأتوا هنا للتشويش على سلامكم وحريتكم وسيادتكم، بل جاءوا لمساعدتكم وليوفروا لكم ما أنجزته الحضارة من تقدم، وليوجدوا لكم المستشفيات والاطباء وكل الوسائل التي توصل اليها العلم من أجل العناية بما تشتكون منه وتعالج آلامكم..."[8]

إنني لاأظن أن الصحراويين سيقلبون فكرة أخوة الاسبانيين. فرغم كل الجهود التي بذلوها في سبيل الحفاظ الشكلي على

خصوصية هذا المجتمع، اتقاء لعنف رد الفعل، فإنهم سيظلون بعيدين كل البعد عن تحقيق ماوعدوا به مستعمرهم : فسينشئون المحاكم العرفية (1955)، ولكن التمثيلية المحلية ستقتصر على عضوين مسلمين فقط، مقابل أغلبية إسبانية، وسيعترفون أخيرا بالمحاكم الشرعية الإسلامية سنة 1956، وسيعيدون موسسة "الجماعة" الى الوجود سنة 1967. ولكن بعدما أفرغوها من محتواها الأصلي، بتعيين الشيوخ الذين ينالون رضاهم، وكذا باقي العناصر المهمة داخلها، وبإسناد مراقبة أشغالها للكاتب العام للحكومة الاسبانية الذي له الحق في حضور الاجتماعات، رغم ماتعهد به الاسبانيون من "احترام الارث الروحي والديني والتقليدي للصحراء"[9].

ولما مل الاسبان كل هذه الحلول وتبين لهم عدم نجاعتها، فكروا في الالحاق التام للصحراء بإسبانيا واعتبارها إقليما آخرا من الاقاليم الاسبانية، فأطلقوا على نوع الاقليم اسم cabildo كما هو الحال في الجزر الكانارية المقابلة للصحراء. وبهذا سيظهر التناقض الذي سقطت فيه السياسة الاستعمارية الاسبانية، التي أرادت أن تؤبد وجودها على أرض كانت تعرف مسبقا أن سكانها من طينة غير التي هي منها، وربما قد يكون هذا من الأسباب التي كانت تجعل من الصعب عليهم تفهم الطرح المغربي بالاعتماد على مبدإ البيعة كعنصر أساسي لمطالبتها بإفراغ المكان وإرجاعه الى المغرب فلقد رأينا كيف كان رد فعل بعض الاسبانيين كالكاتب العام السابق للصحراء Antonio RodrÌguez Viguri الذي اعتبر أن رباط البيعة، ماهو الا حق مجازف او محتمل (aleatorio) اعترفت به محكمة العدل الدولية للمغرب[10].

ونحن الآن اذا حاولنا ان نقدم مفهوم البيعة في الإسلام وخصوصيته في المغرب، فإننا نتوخى بالدرجة الاولى تقريب هذا المفهوم الى الناس وخصوصا الى من هو بعيد عن ثقافتنا.

البيعة

إن لفظة "بيعة" المشتقة من الأصل الثلاثي "باع" تتضمن معنيين متضادين : (بيع) و (شراء). ويقول ابن منظور[11] : "والبيعة : الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة" أي تعاقد يلزم أصحابه بالبيع والشراء، وكذا بالتعهد بالطاعة. والفعل "بايع" يتضمن كذلك معنى "عاهد". وهذا المعنى هو الذي نجده في الحديث الشريف : "ألا تبايعوني على الإسلام؟".

ونجد في القرآن الكريم عدة آيات تشير الى مفهوم البيعة في مختلف مستوياته :

﴿"إن الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (التوبة - 111)

﴿"ياأيها النبيء إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾(الممتحنة - 12).

﴿"إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما﴾ (الفتح - 10)

﴿"لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾ (الفتح ـ 18)

وقد يتبين لنا عمق واتساع المعنى الذي يتوفر عليه هذا اللفظ، وكذا خصوصية المفهوم العربي عندما يقدم على ترجمته الى اللغات الأجنبية. فنجد مثلا أن الاسباني J. Vernet وهو صاحب إحدى أشهر الترجمات القرآنية الحديثة [12] يستعمل كمقابلات لـ "بايع" في ترجمته للقرآن مايلي من الكلمات والعبارات الاسبانية " Concluir Contrato (إبرام عقدة)، reconocer (اعتراف)، roconocer jurando (القسم بالإعتراف)، jurar fidelidad (القسم على الإخلاص والوفاء).

ونجد F. Corriente العضو في أكاديمية اللغة العربية بالقاهرة وهو من أكبر العلماء المتقنين للغة العربية في إسبانيا وصاحب المعاجم الاسبانية العربية والعربية الاسبانية، الاكثر استعمالا بين الدارسين للغة الاسبانية في الوقت الحاضر، يعطي كمقابلات لـ "بايع ـ مبايعة" الكلمات والعبارات الآتية : vender (باع)، estipular (اشترط ـ عين شرطا ـ اتفق على ...)، contratar (أبرم عقـــدا)، reconocer por jefe (اعترف برئاسة شخص معين)، aclamar (نادى به ملكا أو رئيسا...)، acatar (وقر ـ احترم ـ أذعن لـ ـ امتثل لـ ـ خضع ـ خضوع لـ)، jurar (أقسم)، rendir homenaje a (كرم...).

وكمقابلات لـ "بيعة" : ajuste (إتفاقية ـ تفاهم...)، convenio (اتفاقية ـ معاهدة)، pacto (معاهدة)، estipulacion (اشتراط ـ إتفاق شفوي)، concesion (امتياز ـ التزام ـ رخصة)، jura homenaje (أقسم إجلال...)، aclamacion (هتاف الاستحسان).

أما الموسوعة الإسلامية (Encyclopedie de l'Islam)[13] فتذهب الى اعتبار الأصل الاشتقاقي في "بايع" هو اللفظ "باع" (بمعنى اليد او الساعد او الذراع)، وذلك بسبب الاشارة باليد عند القيام بعملية المبايعة. ونجد أن السيوطي والمحلي قد سبقا الموسوعة المذكورة في الأخذ بهذا المعنى، عندما فسرا العبارة "يد الله فوق أيديهم" في الآية القرآنية إن الذي يبايعونك..." (الفتح - 10) بـ "التي بايعوا بها النبي"[14].

وتقول المسوسوعة الإسلامية في شرح البيعة : "تشير لفظة "بيعة" بصفة عامة جدا الى الحفل الذي يعترف فيه مجموعة من الأشخاص، يتكلمون بإسمهم أو بإسم غيرهم، بسلطة شخص آخر غيرهم. لهذا فإن بيعة الخليفة هو حفل يعلن فيه إسم شخص ما، ويعترف به كرئيس الدولة الاسلامية.

وتضيف الموسوعة قائلة : كانت البيعة مناسبة للاعتراف فقط بسلطة قائمة لشخص معين ولمعاهدته بالطاعة. وهذه هي حالة البيعة المقامة لخليفة جديد، كان منتظرا أن يرث الحكم بموجب عهد من سالفه".

والتعاليم الفقهية تشرح " البيعة" على أنها "اتفاق تعاقدي". نجد فيه من جهة رغبة المنتخبين الذين يعينون المرشح. وهذا يكون العرض المقدم. ومن جهة أخرى نجد رغبة الشخص الذي يقع عليه الاختيار. وهذا الطرف يكون القبول. ويجب أن لايقع الخلط بين البيعة وبين التعاقد العادي. فـ «البيعة هو فعل اختياري من نوع خاص يكتسي قوة ظاهرية(...) ومع تطور الطابع الديني للسلطة، أصبح يعتبر الالتزام المتخذ تجاه الرئيس، كالتزام في الواقع مع

الله. وبهذه الطريقة يكون الإعدام مبدئيا هو العقاب الدنيوي الوحيد عند خرق البيعة".

أما عبد الله العروي[15] الذي يحلل مفهوم البيعة في سياق تتويج الملوك المغاربة في القرن التاسع عشر فيبرز عدة جوانب سنلخصها فيما يلي :

1) حسب الفقهاء، يكون على أصحاب الحل والعقد (autorité) تعيين الإمام، وعلى غيرهم الاعتراف به. وليس مسلما من لايعترف بسلطة إمام شرعي"(ص 92). ويجد هذا الخضوع تبريره في ضمان استمرارية عبادة الله.

2) فبمجرد إيجاد مرشح مقبول لدى أصحاب الحل والعقد، يكون من الواجب على الأمة أن تقبله حينا. لهذا تكتسي البيعة في هذه الحالة طابعا تأكيديا فقط. وفي الواقع يجب أن لايقلل من قيمتها هنا نظرا للتأكيد على بعث البيعات إلى الملك من شتى الأقاليم والجماعات والمدن، لأن في ذلك دليل لقطع الطريق أمام أي منافس أو عنيد في المستقبل.

3) إن تعيين الإمام يكون مقابل السلام الداخلي والخارجي.

إذا كان ماسبق ذكره يبين مفهوم البيعة المغربية، في الحالات التي تكون فيها الخلافة عادية، ولاتطرح مشكل نزاع بين ورثة العرش. غير أنه في بعض الأحيان يكون التنافس شديداً بين عدة أطراف ممن يتطلعون إلى الجلوس على العرش المغربي. وقد عرف التاريخ في بلادنا عدة حالات من هذه. وحالة النزاع حول أحقية البيعة الذي حدث بين الأخوين المولى سليمان والمولى سلامة، وهما ابنان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله المتوفى سنة 1790،

تقربنا من هذا الموضوع. وقد احتفظ لنا الضعيف الرباطي بالنازلة وبالفتوى التي اعتمدت في حلها، بعدما وقع خلاف بين مناصري كل من المتنافسين[16]. وكانت العلل التي ارتكز عليها كل من الجانبين تتلخص فيما يلي :

"كان سيدي علي... يقول بخلافة مولانا سلامة لأن بيعته سبقت على بيعة مولانا سليمان، ولأن الناس جيمعا كانوا متشوقين إليه، ولأنه مقدام وشجاع على غيره فرأى أنه أحق بالبيعة من غيره، فخالفه أهل فاس مع محمد وعزيز والودايا وقالوا مولانا سليمان أحق بها، فتبعتهم علماء أهل فاس مع السيد التاودي بن الطالب ابن سودة وقالوا إن مولانا سليمان أحق لكونه أعلم وأفقه من مولانا سلامة والعالم يقدم في الإمامة على غير العالم، فاستظهر سيدي علي بنسخة فيها سؤال وجواب وقعت في أيام مولانا عبد الله مع أخيه المستضيئ بنور الله".

وأما الفتوى المعتمدة في فض النزاع، فتقول :

"الحمد لله. الجواب والله الملهم بمنه ويمنه لإصابة الصواب، إنه لايجوز أن يكون إمامان في وقت واحد وإن شذ قوم فجوزوه، واختلف الفقهاء في الإمام منهما، فقالت طائفة : هو الذي عقدت له الإمامة في البلد الذي مات فيه من تقدمه، لأنهم بعقدها أخص وبالقيام بحقها أحق، وعلى كافة الأمة في الأمصار كلها أن يفوضوا عقدها إليهم ويسلموها لمن بايعوه. وقال آخرون بل على كل واحد منهما أن يدفع الإمامة عن نفسه ويسلمها لصاحبه طلبا للسلامة وحسما للفتنة ليختار أهل العقد غيرهما. وقال آخرون : يقع بينهما دفعا للتنازع، والصحيح في ذلك ماعليه الفقهاء أن الإمامه

لأسبقهما مبايعة وعقدا كذات الوليين في النكاح، وعلى المسبوق تسليم الأمر إليه والدخول في البيعة وإن عقدت البيعة لهما في آن واحد لم يسبق بها أحدهما، فسد العقد لأحدهما أو لغيرهما، وإن تقدمت بيعة أحدهما وأشكل المتقدم منهما وقف أمرهما على الكشف فإن تنازعاها وادعى كل واحد منهما أنه أسبق، لم يسمع دعواه ولم يحلف عليها لأنه لايختص بالحق فيها وإنما هو حق للمسلمين جميعا و هكذا لو سلم أحدهما للآخر ولم تستقر إمامته إلا ببينة تشهد بتقدمه ولو أقر له بالتقدم خرج المقر منها ولم تستقر للآخر لأنه مقر في حق المسلمين، فإن شهد له المقر في تقدمه فيها مع شاهد آخر سمعت شهادته إن ذكر اشتباه الأمر عليه عند التنازع ولم تسمع منه إن لم يذكر الإشتباه لما في القولين من التكاذب، وإذا لم تقم بينة لأحدهما بالتقدم لم يقرع بينهما لأن الإمامة عقد، والقرعة لادخل لها في العقود". (ص 251)

"والإمامة تنعقد من وجهين : أحدهما اختيار أهل الحل والعقد، والثاني بعهد الإمام من قبل. فأما اختيارها بأهل الحل والعقد فقد اختلف العلماء في عدد من تنعقد به والعقد من كل بلد ليكون الرضى بها عاما والتسليم لإمامته إجماعا، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي بكر رضي الله عنه على الخلافة باختيار من حضرها ولم ينتظر بها قدوم غائب عنها وكذلك بويع في الشورى على من ينتظر بيعته قدوم غائب، وقالت طائفة أخرى : أقل ماتنعقد به الإمامة خمسة مجتمعون عليها بل على عقدها أو يعقدها أحدهم برضى الأربعة استدلال بأمرين، أحدهما أن بيعة أبي بكر انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها، وهم عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وأسيد بن خضير وبشر بن سعد وسالم

مولى أبي حذيفة. والثاني أن عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستة لتنعقد لأحدهم برضى الخمسة وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة، وقال الآخرون من علماء الكوفة، تنعقد بثلاثة ويتولى أحدهم برضى اثنين ليكونوا حاكما وشاهدين كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين، وقالت طائفة أخرى تنعقد بواحد لأن العباس قال لعلي بن أبي طالب : أمدد يدك أبايعك، فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن أخيه فلايختلف عليك اثنان ولأنها حكم وحكم الواحد نافذ".

"وأهل الجهاد في الرباط والثغور لهم أفضلية وعلو درجة على سواهم بدليل قوله جل من قائل في كتابه المنزل على لسان نبيه المرسل : (وفضل الله المجاهدين على القاعدين) الآية. وإن روعي في الإختيار مايوجب حكم الوقت في التقدم للإمامة كان الشجاع أحق بها..." (ص. 252).

ومادام الكلام يدور هنا أساسا على البيعة وقضية الصحراء المغربية، ويصادف الحديث على المولى سليمان، نود أن نشير الى أن الضعيف الرباطي[17] يضمن كتابه خبر "حركة السلطان (مولاي سليمان) نحو سوس الأقصى والساقية الحمراء والصحراء الجنوبية". والغرض من الإشارة الى هذه الحركة هو فقط للتنبيه إلى أن السلطان المذكور قد قام بهذه الحركة داخل مملكته كما لو قام بها إلى منطقة أخرى من المناطق الخاضعة لنفوذه، ولم تكن غزوة أو شيئا من هذا القبيل. وفيما يلي نص الضعيف :

"وفي عام 1222 أراد السلطان النهوض لناحية مراكش ثم لناحية سوس الأقصى. فخرج نصره الله من مكناسة الزيتون وذلك يوم

السبت 11 محرم من العام المذكور(...) ورايس أهل كلميم يومئذ عبد الله وسالم، له خمس عشر مائة كانوا من عبيده، ويزطط في تلك النواحي مسيرة 19 يوما في الصحراء، وهو فوق ماسة بخمسة أيام، ومن أكلميم لزاوية آسة 11 يوما، ومن زاوية آسة للساقية الحمراء 8 أيام، وتبقى زاوية سيدي أحمد وموسى نفع الله به وهي تزروالت في الصحراء قبلة على يوم ونصف والله أعلم. وبلغ السلطان لتزروالت وزار سيدي أحمد وموسى ووصل السلطان لدار سيدي محمد نسكات فوجده قد مات لأنه في حياته كان يقول لأهل سوس : إن مولاي سليمان سلطان وباقي حتى يأتي لداري هذه ويجلس على هذه الدكانة. فكان الأمر كذلك لما وصل مولانا سليمان لداره جلس على تلك الدكانة(...)

لقد استطعنا من خلال ماسبق أن نكون فكرة متكاملة عن مفهوم البيعة في الإسلام وكذا عما تميزها من خصوصيات في المغرب. ونظرا لما يحتوي عليه من معطيات تشرح الأبعاد التي تحكم المبايعة عند المغاربة، ارتأينا أن ندرج هنا تحليلا للبيعة في المغرب، قدمه جلالة الملك الحسن الثاني في خطب ألقاها في الأيام القريبة لإسترجاع الصحراء. ،وبعد ذلك سنتطرق الى تحليل وجيز لبيعتين مجددتين قدمتا بمناسبة جلاء الاستعمار عن الصحراء، الاولى جاءت من السيد خطري ولد سيدي سعيد الجماني رئيس الجماعة الصحراوية، والثانية من رؤساء قبائل وادي الذهب.

ففي الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك يوم 16 أكتوبر 1975 إثر صدور حكم محكمة العدل الدولية بلاهاي الذي قال في حقه : "... بأن المغرب يكتفي وهو مسرور جدا بفتوى محكمة العدل الدولية

لأنها أولا تستجيب لرغباتنا وتجيب على أسئلتنا، وثانيا لايمكنها أن تعارض قانونا عاما دوليا من أقدم وأقدس القوانين وهو الدستور الإسلامي"[18].

نرى جلالته يضع مسألة كتابة البيعة في مقدمة المميزات التي تطبع هذه الاخيرة في المغرب. فبخلاف البيعة التقليدية في الاسلام حيث كان رؤساء القبائل يأتون للسلام على الأمراء والملوك ويضعون أيديهم على أيديهم أو على المصحف ويقولون إننا نبايعك على الكتاب والسنة، ونبايعك بيعة الرضوان... الخ" نجد أن ... المغرب هو الدولة الوحيدة التي لم تكتف بالبيعة الشفوية بل ماثبت في تاريخ المغرب وفي أي دولة مغربية أنه وقعت بيعة شفوية بل كانت دائما بيعة مكتوبة"[19]. ويضيف جلالته قائلا : "وحتى أولئك الذين لم يستطيعوا كتابة هذه البيعة كانوا يبعثونها عن طريق العدول".

ونجد الخطاب الموجه الى سكان الصحراء بعيد الاعلان عن تنظيم المسيرة يلخص أبعاد وفلسفة البيعة في الاسلام، كما يعلل الهدف من المسيرة التي أعلن عن تنظيمها من زاوية تواصل روابط البيعة بين الملك وبين أهالي الصحراء[20] :

1) فالخطاب يستهل بالآية العاشرة من سورة الفتح : "ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله... (الآية)". وبطبيعة الحال فإن اختيار الاستهلال بهذه الآية لم يأت اعتباطا وإنما جاء لكل ماتتضمنه الآية من رموز دينية واعتبارات تاريخية. ومن بين ماترمز اليه هذه الآية مسألة خلافة الله في الأرض التي يضطلع بها أمير المؤمنين.[21]

واستواء طاعة الله وطاعة من يخلفه في الارض، زيادة على العظمة التي أحاط بها الإله التشبث بالبيعة.

2) وبعد هذا يرد التراضي والاشارة به الى بيعة الرضوان. يقول جلالته : "فالبيعة (...) ليس الشيء الذي يأتي قهرا أو نأخذه من الناس قوة وتجبيرا، بل البيعة تقتضي التراضي..."[22].

3) ونجد كنقطة ثالثة استمرارية البيعة وعدم انقطاعها. "فمهما فرق بيننا الزمن - يقول العاهل المغربي - ومهما حاول أن يشتت شملنا المستعمر لازالت الروابط بيننا قائمة (...) ولا أريد من حجة، ولا أكتفي من دليل إلا بما سمعت ورأيته. فمنذ أن دخل أبونا رحمه الله محمد الخامس طيب الله ثراه من المنفى فسمعت ورأيت الزغاريد في العيون وفي الصحراء وفي الساقية الحمراء وفي واد الذهب ورأيت الأعلام المغربية ترفرف...

أما عن البيعات التي صدرت بعد استرجاع الصحراء فإنها تحترم كافة العناصر المغربية الاسلامية المميزة للبيعة في بلدنا.

فالبيعة التي بعث بها رئيس الجماعة الصحراوية السيد خطري ولد سيدي سعيد الجماني إلى ملك المغرب يوم 2 نونبر 1955 من Las Palmas تقدم كافة العناصر التقليدية من التقاء الأيدي والآية العاشرة من سورة النصر... الخ. ولكن، نظرا الى أن الأمر يتعلق هنا بتجديد للبيعة، فسنجد التاكيد على التشبث بالعهود التي قامت بين الأسلاف. يقول الحاج خطري الجماني : "لقد شرفتني يامولاي بخطابكم السامي وأذنتم لشخصي الضعيف للمثول بين يدي جلالتكم بمراكش عاصمة الجنوب بتجديد البيعة وتأكيد العهود التي كانت تربط بين أجدادكم المنعمين وبين خدامهم من آبائنا وأجدادنا (...) مولاي، إنني أبايعك وأعاهدك كما بايع وعاهد أجدادي أجدادك المنعمين... الخ[23]

ومن جهة أخرى نجد أن البيعة التي بعثها سكان الداخلة ووادي الذهب، المؤرخة في الداخلة يوم 13 غشت 1979 والمحررة من قبل قاضي المنطقة السيد حبيب الله بن أبوه والتي وقعها ممثلون عن مختلف القبائل الصحراوية، تركز اهتمامها على ملك المغرب كضامن للسلام. فمنذ السطور الاولى لنص هذه البيعة، سنلاحظ هذا الانشغال : فالوثيقة تبتدئ بحمد الله "الذي نظم بالخلافة شمل الدين وصان بها الدماء والأموال والأعراض وغل بها أيدي الجبابرة عن مفاسد الأعراض...[24] ثم تتابع في هذا السياق لتأكد على ضرورة إيجاد من يحكم البلاد عندما تقول "وقال الرسول (ص) إذا مررتم بأرض ليس فيها سلطان فلاتدخلوها، إنما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض.. ثم تزيد فتأكد على لزوم تقديم البيعة.. قال الرسول (ص) من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية... ثم إن اختيار أهل هذه المنطقة وقع بإجماع كل الاطراف على شخص الملك الحسن الثاني : "... إجتمع شرفاؤنا وعلماؤنا وأعياننا ووجهاؤنا رجالا ونساؤنا، كبارنا وصغارنا فاتفق رأينا الذي لايتطرق إليه اختلال واجتمعت كلمتنا التي لاتجتمع على ضلال على أن نجدد لأمير المؤمنين وحامي حمى الوطن والدين سيدنا الحسن الثاني حفظه الله بالسبع المثاني، البيعة التي بايع بها آباؤنا وأجدادنا آباءه وأجداده الكرام..."[25]

هكذا نجد إذاً، أن لهذه البيعة المجددة مبرراتها التي تندرج في إطار التعاقد الأولي الذي يقدم الحاكم حمايته للمحكوم، على أساس مبايعة هذا الأخير له. والملاحظ هنا، أن البيعة تجدد لنفس العائلة المالكة، في شخص الملك الذي ورث العرش، ولايطرح مشكل

نزاع مع شخص آخر. والتجديد هنا يقع بعد أن فرق الاستعمار بين المتعاقدين على البيعة.

*****

الهوامش :

1) Manuel Lobo Cabrera, La esclavitud en las canarias Orientales en el siglo XVI Santa Cruz de Tenerife, Ediciones del Excmo. Cabildo Insular de Grand Canaria, 1982, P. 329.

2) Enrique Arques, Las Adelantadas de Espana, Madrid, Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, 1966, pp. 287-292.

3) الترجمة الحرفية للجملة « ... que no solamente son subditos del Xarif... » هي : « ليسوا فقط من رعايا الشريف. ونظن أن الترجمة التي يقتضيها السياق والسليمة لغويا هي التي قدمناها أعلاه.

4) M. Lobo Cabrera, La Esclavitud..., P. 329.

5) Robert Rezette, La Sahara Occidental et les frontieres Marocaines, Paris, Nouvelles Editions Latines, 1965. P. 54.

Attilio Gaudio, Le dossier du Sahara Occidental, Paris, Nouvelles Editions 60 Latines, 1978, p. 60.

6) Attillio Gaudio, Le dossier du Sahara Occidental, Paris, Nouvelles Editions 60 Latines, 1978, P. 60.

7) في الواقع وإلى حدود سنة 1934 لايمكن أن نعتبر الإحتلال فعليا إلا في الداخلة Villa Cisneros، أنظر R.Rezette المرجع السابق، ص. 69-70.

8) Javier Ruiz, "La tierra de los Hombres azules", Historia 16, Madrid, ano IV, extra IX abril 1979, p. 67.

9) أنظر ديباجة قانون إنشاء « الجماعة »، الفصل 166 من مرسوم رئاسة الحكومة الإسبانية المؤرخ في 11 ماي 1967.

10) Luis Rodriguez de viguri, " Despididas vergonzosas" ,Historia 16, Op. cit. p.75

11) جمال الدين إبن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، (ب.ت.). أنظر « باع ».

12) Juan Vernet, El Coran, Barcelona, Ed. Planeta, 1983

13) أنظر المقال "bayaa"
14) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تفسير القرآن العظيم. (ب.ت.و ب. ب.)
15) Abdellah Laoui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Paris, François Maspero, 1977. pp. 71 et ss.
16) محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، الرباط، دار المأثورات، 1986. ص. 251.
17) الضعيف، ص. 44.
18) المسيرة الخضراء، ملحملة شعب يوحد بلاده بقيادة ملكه (ب. م.)، الرباط، وزارة الشؤون الثقافية، 1984. ص. 44.
19) المسيرة، ص. 44.
20) المسيرة. ص. 57.
21) جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، أنظر «خلف» : «قال الزجاج : جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله في أرضه بقوله عز وجل : ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض».
22) المسيرة، ص. 57.
23) المسيرة، ص 70-71.
24) المسرية، ص. 192.
25) المسيرة، ص. 193-194.

*****

قوافل في خدمة المنتجين، الحراطين منقذو الأماكن المحروقة

مصطفى ناعمي(*)

يرى الكثيرون أن الحراطين هم مجرد فئة من العبيد المعتقين متخصصة في ممارسة أشغال الواحات بالمناطق المجاورة للصحراء. فهل يتعلق الأمر فعلا بعبيد معتقين؟ لاشك أن الجواب التأكيدي يفضي مباشرة إلى تقسيم منظم للعمل. لا يعدو هذا التقسيم في حد ذاته أن يكون هو التعبير المتداول لتسلسل تراتبي اجتماعي ينبثق عن حالتين متميزتين. في الحالة الأولى، تحد نوعية العمل وملابساته من حق الحراطين في تملك الأراضي المسقية.في الحالة الثانية يترتب عن التخصص المعلن غياب الحراطين عن الميدانين التجاري والسياسي. لذلك فقد آثرنا فيما سيأتي الابتعاد عن هذا الطرح الذي يخلط بين الحراطين والعبيد، اعتبارا من أن اهتمامنا لا ينحصر هنا في الوقوف عند الماضي البعيد للأحباش (الحراطين)[1]، ويكون علينا أن نعالج الملامح المستقاة من تشكلهم الإجتماعي مقيمين مهامهم المتنوعة خلال القرن التاسع عشر بالضفة الشمالية الغربية للصحراء.

نقترح هنا الوقوف عند عدد من الملامح الخاصة التي كانت تجسد وظيفة الحراطين في تنظيم الأسواق والمواسم الفصلية في ضواحي

(*) أستاذ جامعي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس،الرباط.

وعرون. ينتمي هذا المركز العتيق الواقع وسط حوض وادي نون الأسفل بالمنطقة الحضرية من بلاد تكنة[2]، إلى حركية المحور الرابط بين الأطلس الصغير والساقية الحمراء وأدرار التمر. ويستند القسم الأكبر من الوظائف التي يكشف عنها مفهوم تنظيم الأسواق والمواسم إلى بنية الإنتاج من أجل البقاء. ويتميز موقع وعرون بتوسطه مثلث عواصم وادي نون التاريخية نول لمطه – تاكاوست – كلميم. هذه الميزة ربطت وعرون منذ غابر الأزمنة بوظائف الإنتاج والتخزين والتوزيع الفلاحي المناسب. فنجدها تتخصص، على سبيل المثال، منذ القرن العاشر/السادس عشر، في إنتاج وتوزيع التبغ المشهور بمجمل الصحراء تحت اسم «الوعرونية». وهو ما جعلها تجسد، خلال القرن التاسع عشر، مركز تماس بين لفي تكنة أيت عثمان شرقا وأيت الجمل غربا[3]. هذا الموقع المتميز زاد من أهمية الاعتبارات السياسية التي تخص ممارسات الحراطين تجاه مختلف التجزئات القبلية على اختلاف حجم فصائلها، وسمح بتحليل مدى قدرتهم على تملك الأراضي المسقية. وللكشف عن أبعاد هذه السياسة الحرطانية، لابد من دراسة المجموعات الوثائقية من حيث هي نسيج يوضح ما يكمن وراء الظواهر من علاقات اقتصادية وسياسية. ذلك لأنه ليس بإمكان كنانيش الأسر التجارية أن تكشف عن قوانين تملك الأراضي المسقية، ولا عن النظام الخفي الذي يكمن وراء ظاهر العمليات المسجلة.

مجموعة وثائقية بوعرون

من بين الحقائق التي يجب أن نوضحها حالا، دور الأسر الحرطانية المتوارث في هذه الضفة الصحراوية والقاضي بحفظ

وثائق ورسوم الأسر والفصائل التي تمارس نمط العيش شبه الترحالي، هذه الوظيفة التي ظلت مستمرة إلى منتصف القرن العشرين، يمكن أن نعاينها لدى أسرة أهل الدراوي المستقرة بوعرون منذ حوالي 250 سنة. فما زالت هذه الأسرة تحتفظ بكم هائل من الوثائق، لم يعد قابلا للقراءة منها سوى 156 وثيقة. ونسجل أنه على الرغم من الخصوصيات التي تميز كل وثيقة عما عداها، فإن المجموع يشكل منظورا شموليا. فأكثر الوثائق هي رسوم شراء الممتلكات العقارية من منازل وأراضي مسقية ومياه الساقية التي تسمح الشريعة الإسلامية بتداولها بهذه الجهة. ثم إن الوثيقة غالبا ما تجسد رسما على هيئة عقد يتنازل بموجبه المالك الشرعي عن ملكه مقابل ثمن نقدي يسلمه له المشتري. ويقود كل رسم، رغم ما يكتنفه من التواءات، إلى وحدة عضوية. ذلك أن تحليل موضوع الصفقة يعد جزءا أساسيا يسمح بتسجيل الوقائع وملاحظتها دون التصدي إلى معانيها. يأتي بعد ذلك تحديد موقع الملك ليشكل حقيقة متميزة تسمح، علاوة على التعريف بحدود الملك، بتدوين ثم تحديد الأملاك المجاورة ومدى انتماء أصحابها إلى نفس الهوية. لنصل بعد ذلك مباشرة إلى تسمية القطع المسقية من حيث هي ملكيات تعكس وظيفتها حينا ومميزاتها الخاصة حينا آخر.

معايير التمييز بين العصب المحلية

يجب أن ننتبه لكون هذه الوثائق ليست الوحيدة من نوعها لكي لا نقع في أحكام نهائية على نتائج التحليل، فتعدد مجموعات الوثائق العائلية يفرض المقارنة الميدانية بين محتوى الوثائق المدروسة هنا والتوزيع المحلي للقطع المسقية.

إنّ أقدم رسم عقاري بهذه المجموعة يعود إلى نهاية شعبان 1801-1-16/1215[4]. ويكشف توقيع ثلاثة عدول بالرسم عن التقليد العريق لممارسات تجسد أهمية ودقة استغلال الأراضي المسقية. ويزيد انتماء أحد العدول الثلاثة إلى أولاد بلحويلات[5] من صلاحية تمييزهم من خلال الرسم بين هؤلاء من جهة وأيت احماد أواعلي[6] من جهة ثانية وأهل وعرون من جهة ثالثة. يتبين بذلك النص الفصل بين ثلاث مكونات ليس بإمكانها أن تمثل عصبا قبليا ولا تملك على ضوء المعطيات الميدانية، إلا أن تعكس نسيجا متداخلا للملكيات المسقية. فلاشك إذن ان امتزاج الملكيات يفضي إلى دور الرسوم في تحليل الموروث العقاري بوصفه تجسيدا للقيم التراتبية. هذه الرؤيا تغطي في أغلب الحالات واقعا كفيلا بتحديد مراحل الانتقال التدريجي من نمط البداوة إلى نمط الاستقرار.

ولو ألقينا نظرة متأنية على طبيعة العلاقات بين أيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات من جهة، وأهل وعرون من جهة ثانية، لعرفنا أن أهل وعرون يستمدون وجودهم الفعلي من مراقبة وتملك الأراضي المسقية. في هذه الحالة يجب الاعتراف بأنه مهما كان التركيز على معطيات الرسوم جوهريا، فإن الحق في تملك الساقية لا يمكنه أن يعود إلا لأهل وعرون. كما يجب أيضا أن نسجل بأن التسرب التدريجي لأيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات إلى عملية التملك العقاري، قد برهن على تدخلهم المتأخر في الميدان الفلاحي الصرف. وإذا كانت هذه التدخلات المتأخرة أشبه ما تكون بتصاعد محلي لنفوذ أيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات الفلاحي على حساب أهل وعرون، فإن ما تثبته الرسوم هو عدم السطو على الملكيات المسقية. إذن لا يجوز لنا أن نتحدث خلال القرن التاسع

عشر عن أية حيازة إجبارية. فقد راح أيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات، يستغلون قطعا أرضية مسقية لم ينتزعوها، ولكن اشتراها بعضهم في معرض المساومات والتسويات بينهم وبين القارين من أهل وعرون. فلا ضير إذن أن نتتبع هذه التحولات من خلال تعريفنا بكل واحدة من هذه المكونات الثلاثة.

اولاد بلحويلات :

إذا انطلقنا من التعديلات في المشجرات العائلية التي استحدثها أولاد بلحويلات على صيغة المعقليين أولاد امبارك وأولاد دليم الذين استقروا طويلا بين وادي درعة والساقية الحمراء، فإننا نجدهم ينسبون أنفسهم إلى الجد الأعلى بلة بن عثمان بن مندى. هذا الجد لأيت بلة يكشف ترتيبات نسبية تكنية واضحة تربط أولاد بلحويلات بالأصليين من تكنة[7]. هذا الترتيب النسبي يقوم على منطق الارتباط بين محميي تكنة والمضافين إليهم. فالأحرار الأصليين من تكنة يخضعون للتقسيم الشائع الذي يجعل منهم محميين أصلا، وهي إيديولوجية للتراتب الاجتماعي تحدد الوضع الخاص بأولاد بلحويلات كأحرار أصليين. يبرز بذلك فارق تراتبي يعطي لأيت احماد أواعلي وضعا متميزا ضمن تكنة الحماة. ولاشك ان هذا التراتب يأتي في طليعة المسائل التي تلقي مزيدا من الضوء على طبيعة العلاقة بين آيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات، فمن الواضح أن العديد من الأسئلة حول الطابع التنافسي بينهما حول مراقبة المجال، لم يحل دونهما وتقوية التحالف في إطار آيت بلة. هذا الإطار يبدو أكثر ملاءمة لتقوية النظام العصبي، ذلك أن المنافسة حول مراقبة المراعي الموسمية لا تحول دون استنفار

التحالفات الجزئية في وجه قبيلة آيت لحسن من لف آيت الجمل المجاور غربا[8]. وبديار أولاد بلحويلات بوعرون لاشيء يدل على أية وظيفة تجارية، بينما تكشف مجمل التحريات الميدانية عن ارتباط هذه الديار بمهمة التخزين. نرى آيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات يتمتعان بصلاحيات واسعة النطاق تقوم حول وعرون على امتداد الحدود مع آيت الحسن[8].

لقد مثل إصرار الطرفين آيت احماد اواعلي وأولاد بلحويلات على توسيع صلاحيات تحالفهما في إطار آيت بلة، رغبة مشتركة في تمتين حضورهما بأحواز وعرون. وإذا كان أولاد بلحويلات لن يشذوا عن هذه القاعدة إلا ابتداءا من سنة 1921، فذلك لأن تشدد آيت احماد أواعلي يعد بمثابة استنزال لغضب آيت لحسن عليهم.

آيت احماد أواعلي

ضمن التحالفات الراسخة نسبيا، يجسد تشكل تجزئات وفصائل قبيلة أزفاط (فيما بعد ازوافيط) تراتبا سياسيا واجتماعيا معينا. لقد استمد آيت احماد أواعلي مكانتهم المتميزة من قوة السلاح. فقد استطاعوا المحافظة على عصبية وسمعة حالت دونهم واستيعاب الدخلاء، وصهرتهم في بوتقة قبيلة ازوافيط. فمن المعروف أن وضعهم السياسي المرموق جاء عن طريق انتزاع أراضي بورية خصبة وجنائن آيت لحسن القديمة باسرير، متسببين في نزوح هؤلاء وغيرهم في مراحل مختلفة من القرون الأربعة الماضية نحو تركمايت وتغجيجت وإيفرم ايگزولن والقصابي وحتى الساقية الحمراء. وقد أصر آيت احماد أواعلي على اعتماد طريقتهم الخاصة غير عابئين بمتطلبات التحالف

واعتبارات الأمن بالمنطقة. إن اندماجهم داخل قبيلة أزوافيط جاء بسبب سعيهم للحيلولة دون تحول باقي فصائل القبيلة عنهم. لقد مارسوا إذن علاقات تحالفية انطلاقا من استراتيجيات سياسية وعسكرية مستقلة، خالقين بذلك انتماءات مناسبة، ومكرسين تحالفات نسبية. وانصبت جهودهم على المشاركة في نظام خاص للتحالفات يرصد الاحتلالات السابقة التي مارسوها، وممارسة الأنشطة الرعوية ثم الفلاحية وفقا لأيديلوجية النسب التي تحدد في الواقع الحيازات المتلاحقة. هكذا يستمد أزوافيط قوتهم الفعلية من التفاف آيت بلة حول أيت احماد أواعلي الذين انصرفوا إلى محاربة آيت لحسن المجاورين.

هذا المنظور الذي يلخص لنا تاريخ قبيلة أزوافيط في تحالف مجموعة من الفصائل والتجزئات حول أيت احماد او اعلي، يوفر في الحقيقة نبذة عن حدود ومدى صلاحية التحالفات المعلنة. فقد استطاع أزوافيط المحافظة على الأراضي البورية الخصبة المحيطة بتيفمرت وأسرير ووعرون وأزريويلة وسركس. ومن المؤكد ان الفور السكاني الأقدم، لم يتمكن من مقاومة عمليات الامتصاص التي صهرتهم تدريجيا في بوتقة القبيلة رغم احتفاظهم بهوة أمازيغية معلنة، غير عابئين بمتطلبات التماسك الزفاطي. هذا التماسك سوف يتجسد في تحول أيت احماد أواعلي وغيرهم من الفصائل الأخرى من أشباه رحل إلى مستقرين منذ قرن فقط.

نسجل، على ضوء هذا التطور، ظهور تعارض حاد بين التجزء والالتحام. فما يميز الفور الأمازيغي الأقدم هو النزوع إلى ممارسة تجارة القوافل خلافا لأشباه الرحل. ويستمد هؤلاء عادة مداخيلهم

من تربيـة المواشي والذهب (F.C. de la Chappelle: les Tekna : 47). فـيبدو بذلك التـعارض القائم بين الفـور السكاني الأقدم وآيت احماد أواعلي الذين استمروا في تنظيم حملات هجومية ضد سوق كلميم. ويبقى السؤال متمركزا حول ممارسات آيت احماد أواعلي السلمية حيال ساقية وعرون المجاورة لتراب آيت لحسن من اللف الآخر. هل في هذه الممارسات اعـتراف ضـمني بحق أهل وعـرون المطلق في التـحكم الفـعلي في مياه وبساتين وعـرون؟ وبعبارة أخرى، كيف نفسر أنه حيثما جمع أهل وعرون حقوقهم، تنكشف للعيان ملكيات شرعية معترف بها، تساهم إلى أبعد حد في رضوخ العام والخاص لمشيئتهم؟

أهل وعرون؟

إذا رجعنا إلى نوعية العلاقات بين «أهل وعرون» اتضح بما لا يدع مجالا للشك من خلال الوثائق أن الصيغة لا تدل على أي تضامن جماعي أساسه الانتماء القرابي. بل هي مجموعة من الوحدات القرابية منفصلة بعضها عن بعض، لم تتفرع عن مشجر تناسلي مشترك ولا تتحدد هويتها الجماعية إلا بالرجوع إلى وعرون كمقر إقامة أو إلى علاقات متعددة المشارب. فبالاضافة إلى ألقاب أفقير أو مقدم اللذين يعكسان الممارسات الدينية والصوفية للفور الأمازيغي اللامعقلي، نجد ألقاب التواتي والافراني والدراوي وغيرها تكشف عن فئة الحراطين. معنى هذا أن صيغة «أهل وعرون» انما تنبثق عن كيانين متنافسين، يشتمل أولهما على عدد كبير من أسر الفور السكاني الأمازيغي الأقدم والثاني على أغلبية من الحراطين يحدد انتماءها السلالي تنوع مواطنها الأقدم.

*تحليل رسوم البيع والشراء المدقق يكشف الاستغلال الهائل لدورة الري ويعكس الأنشطة اليومية المنزلية منها والفلاحية [M. Naïmi, "Cinétique des Takna, fléxibilité et mobilité sociale"] بل إن من شأن هذا التحليل أن يحمل بعض الأجوبة الجزئية المتعلقة ببعض الاستغلالات. نسجل في البداية بأن رسوم بيع البهائم ووسائل الإنتاج الفلاحي من القلة بحيث لا يمكن وضع لائحة تصنيفية لها. كما نسجل تعدد ميادين تخصص المراطين من فلاحة الواحات، وحدادة ونجارة، وموسيقى، وغيرها... ومن المؤكد أيضا أنهم كانوا يمتلكون عقارات منذ القديم. فالشيخ عبد الله بن بلخير يتميز، كعين من أعيان الحراطين، بعدد عبيده وخدمه. ولعل ما يزيد من أهمية الدلالة، تملك الحراطين من أهل تكاوست لأراضي بورية حتى ما بعد 2 ربيع 3/1256 يونيوه 1840.

إن أسر وعرون الأخرى لا تتزوج من الحراطين حتى ولو كانت منفردة وغير متفرعة. على أن لجوءها لنفس العدول يعرب عن نموذج جماعي لوحدات أبوية تبلورت بوعرو ن ذاته. تكشف دراسة مناهج اقتناء الأرض المسقية عن أشكال بسيطة للترابط وتوحي بفعالية المراقبة الدقيقة والفعلية للساقية. فتشابك قنوات الري هي التي تحدد، من خلال نظام التوزيع، العلاقات بين الحراطين وباقي أسر وعرون. وهنا يتضح دون شك، الدور الهيكلي الذي تحظى به تجارة التبغ بتقدير الجميع. ذلك أن المثل يضرب بنجاح وعرون في استقطاب سوق التبغ الوعروني بمجمل أسواق الصحراء الأطلسية. فتتجلى بوضوح العلاقة العضوية بين مادة التبغ واستقرار، أسر وعرون منذ القرن 16/10 ضمن حركية محلية طويلة المدى. أما خلال القرن التاسع عشر، فقد أصبح إنتاج

التبغ يرتبط محليا بالمهارة والتخصص. فالرسوم تظهر بوضوح جلي سيطرة وعرون على سوق التبغ الصحراوي، تبينها ندرة وصعوبة اقتناء الأراضي المسقية. هذا ما يمكن أن نستشفه من الأسعار المعلنة لمقاييس الماء و ترتكز هذه الأسعار على ممارسة أولائك الذين تؤكد أسماؤهم مدى اندماجهم في القطاع السقوي الفلاحي بوعرون. من هذا المنطلق فإن الاتجاه الذي يمكن أن نسجله، هو تجميع الأراضي والقطع المسقية ولو في فترات الأزمات الغذائية والأوبئة الكبرى. هذا الإتجاه نحو التجميع والاحتكار المجالي، له دلالته خصوصا إذا وقع خلال الأزمات كما هو الشأن بالنسبة للأزمة الغذائية خلال مجاعة 1817-1818[9] أوطاعون 1818-1820[10] أو أيضا طاعون 1825-1826 الذي سجل مميزات ثلاث: ازدياد عمليات شراء الأراضي المسقية، تقوية التحالفات المحلية عن طريق المصاهرة داخل كلى المكونتين، الحراطين من جهة وباقي عائلات وعرون، ارتفاع عدد رسوم شراء البهائم والدور. فنستنتج بما لا يدع مجالا للشك على أن التسابق إلى احتكار الساقية جعل المنافسة تنحصر في هذا المجال بالأساس. نصل من هنا إلى المسألة التجارية ودورها الحقيقي في ترسيخ وتمتين البنيات المحلية. فيتضح لنا أمام نوعية الوثائق المتوفرة أن النفاذ إلى المسألة التجارية الصرف وفهمها الفهم الصحيح، لن يتأتيا إلا بتحليل كنانيش الدور التجارية المتخصصة.

صلاحية المؤشرات الدالة على استقلالية طويلة المدى

يعد بيع الوعرونية بالسلف بكلميم الجارة القريبة من وعرون من بين العمليات الواردة بكنانيش بيروك الشهيرة[11]. إذ نسجل

أن ثلاثة كنانيش تشمل 261 عملية يعود أقدمها إلى سنة 1822، ولم تعرف أول عملية تبغ بالسلف إلا بتاريخ 18-9-1246/4-3-1830. إذن نرى من هنا أننا أمام تأخير ملحوظ، خاصة إذا علمنا أن وعرون هو المنتج الوحيد للتبغ الوعروني. نتساءل إذن إلى أي مدى يمثل هذا التأخير دليلا على المقدرة الوعرونية للاستقلال الفعلي وعدم الارتباط بالدور التجارية المتخصصة، وهو سؤال يفضي بنا إلى سؤال آخر حول ما إذا كان بإمكان كنانيش أهل بيروك الثلاثة أن تعكس حالة الشبكة التجارية الوعرونية من خلال المعطيات التالية:

تاريخ العملية	الكمية بحمولة الجمل	الثمن بالمثقال السكة المتداولة	الانتماء القبلي للمشترى	أجل الأداء
1830-03-14/1245-09-18	3 حمولات	120	تاجكانت	4 أشهر
1833-04-1/1248-11-27	15 حمولة	905	تاجكانت	4 أشهر
1833-06-14/1249-01-25	غير محدد	905	أعريب	4 أشهر
1842-12-05/1258-11-02	3 حمولات	120	تاجكانت	4 أشهر
1848-03-21/1264-04-15	حمولة واحدة	حمولتي ملح بتاودني	آيت موسى أواعلي (تكنة)	4 أشهر
1852-10-20 /1269-01-06	غير محددة	؟؟؟	أعريب	6 أشهر
1852-11-09 /1269-01-25	حمولتان	120	أعريب	6 أشهر
1852-11-09/1269-01-25	حمولتان	120	تاجكانت	6 أشهر
1879-01-14 /1297-02-00 إلى /1879-02-11	5 حمولات	325	تاجكانت	5 أشهر

تنحصر معطيات 50 سنة كما نرى، في تسع عمليات. فيبدو جليا أن ندرة العمليات هذه تحول دوننا والكشف عن شبكة توزيع التبغ الوعروني التي تبقى خفية. نستنتج من هنا أن دار بيروك

المتخصصة في تجارة الصحراء الأطلسية لم تتمكن من المشاركة في تنظيم هذا الفرع من التجارة. فهل مرد ذلك يا ترى هو عدم اهتمام هذه الدار بتسويق بضاعة قليلة المردودية من الأرباح؟ لكي نصل إلى جواب شاف، لابد أن نقارن أسعار تبغ وعرون بأسعار البضائع العابرة للصحراء أو القادمة منها مؤكدين بذلك أو نافين هذه الفرضية. نسجل أن سعر حمولة الجمل من العلك الموريتاني يبلغ حال وصوله سوق كلميم ما معدله 76,25 مثقالا. ولمعرفة ما إذا كان سعر حمولة الجمل من التبغ الوعروني المنتوج محليا يعد غاليا بالمقارنة مع ثمن العلك، فإنه يكفي أن نشير إلى تهافت تجار تجكانت وأعريب وباقي قبائل الصحراء بالرغم من أن ثمن الحمولة الواحدة (60) مثقالا. ورغم كون قطاع البيع بالسلف يعرض القماش الأسود (الحنط) بما قدره 13 مثقالا للذراع الواحد والعبد الأسير بما معدله 35 مثقالا والبندقية 37,5 مثقالا، فإننا نسجل مدى ارتفاع ثمن التبغ المحلي بالمقارنة مع السلع الواردة من بعيد. ينعكس ولع رعاة الصحراء وأبناء قبائلها بنكهة الوعرونية ورائحتها وهذا ما يكشف عنه الشعر الحساني. ولإن كانت كنانيش دار بيروك تغنينا عن الأدب لإثبات الطابع المربح لتجارة التبغ الوعروني، فإنه يبقى والحالة هذه، أن نعرف ما إذا كان تسويق هذه البضاعة خارج شبكة دار بيروك يعزز العلاقة العضوية بين الانتاج والرواج المحليين.

يترجم تحليل المجموعات الوثائقية من رسوم شراء الأراضي المسقية، العلاقة العضوية بين استقرار أسعار التبغ المسجلة والاستغلال الضخم لشبكة الري. في نفس السياق، نسجل بأن غياب أي تقلب أساسي للأسعار يعد بالغ الأهمية. ذلك لأن حجم

الإنتاج، بالمقارنة مع حجم الطلب بالسوق، لم يتعرض لأي ارتباك. من هنا فالعلاقة بين الإنتاج والتسويق تعد كافية لاعتماد منهج حرية شاملة ومقدرة استقلالية تحدد نوعية الارتباط بدار بيروك أو غيرها من المتخصصين في احتكار القطاعات التجارية المربحة.

من الواضح إذن أن الرواج بسوق الأحد بوعرون يحدد الثوابت المحلية والقدرة الإنتاجية القادرة على تسويق المنتوج دونما وسيط. كما أن التقسيم الجغرافي لمناطق التوزيع يكشف، من خلال انتماء التجار القبلي، عن تسرب الوعرونية لكل من تيندوف والمحاور الشرقية التي تربطها بالصحراء الوسطى. هذا ما يمكن أن نستنتجه من خلال الارتباط العضوي بين دار بيروك وتجار تجكانت وأعريب وأولاد بو السبع. لقد بدأت العلاقة بين العرض والطلب تتبلور بسوق الأحد بوعرون لتتنامى بعد القرن العاشر/السادس عشر، بسبب اتساع سوق التبغ بالصحراء، خاصة خلال القرن التاسع عشر. نتصور بذلك مدى استقلال سوق وعرون عن دور التجارة المتخصصة، خاصة إذا رأينا شبكات التوزيع تمتد عبر محوري تمبكتو وأطار. لاشك أن استقلالية تجارية واقتصادية كهذه قد تمت على حساب الدور التجارية المجاورة. وهو ما يعني أن العلاقة الوظيفية بين الإنتاج والتسويق قد انبثقت من صلب أهل وعرون بما يملكونه من قدرة إنتاجية وتجارية. على أي أساس حق للحراطين تملك الأرض المسقية وبمقتضى أية بنية اجتماعية صمدوا أمام الهجمات المنتظمة للرحل وسكان المداشر المجاورة؟

الخبرة المهنية والطاقة الإقتصادية :

إذا اعتمدنا مختلف الكنانيش والمجموعات الوثائقية، يبدو أن العملة الوحيدة المتداولة هي المثقال الفضي، سكة الوقت. إلا أن

هذه المصادر لا تعكس مع ذلك تطوره، فتبقى قيمته الحقيقية مجهولة. مع ذلك فإن هذه العملة التي تستطيع توضيح مكانة السوق كمقر لظواهر اقتصادية هامة، تكشف عن مدى تطور أسعار المقادير المائية المستعملة للري. إذا نحن تتبعنا ثمن الوحدة القياسية (تيرمت) بساقية حم التي تشتمل على حوالي 12 ساعة مائية، فإننا سنجد سعرها يتراوح خلال الفترة الفاصلة ما بين سنة 1811/1126 وسنة 1876/1292 بين 35 و45 مثقالا. نسجل بذلك ارتفاعا على المدى البعيد تفرضه خلال مدة 65 سنة الندرة المتزايدة لمياه الساقية. نتأكد بذلك حقا من أهمية الماء كمصدر أول للغنى بوعرون فتتضح الأهمية الحقيقية للحراطين وهم أغلبية بوعرون. تكشف الوثائق والرسوم بما لا يدع مجالا للشك، عن احتكار الحراطين لمياه الساقية ومن خلالها قطاع التبغ. تتميز وعرون منذ قرون بتعاقب أجيال الحراطين مجسدين بذلك نوعية تقاطع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين سكان القرى والمداشر وأشباه الرحل ممتهني تربية الأغنام. لاشك أن تملك هذه الأجيال من الحراطين لأكبر قدر من الأراضي المسقية، يجسد دليلا على الغنى المتزايد. هذا ما تؤكده الرواية المحلية بمقتضى تقاليد شفوية وأخرى مكتوبة مركزة على استقلالية الحراطين السياسية وعن مدى ارتفاع مستواهم المعيشي. وإذا كانت أيديولوجية الرجل ومربي الماشية هي السائدة بمختلف بقاع هذه الضفة الشمالية الغربية للصحراء، فإننا ندرك لماذا يعمل آيت احماد اواعلي وبلحويلات على التقليل من أهمية الانتاج الفلاحي الصرف. وحتى ندرك أن هذا الإنتاج يستجيب لمتطلبات الصحراء الفلاحية حتى قبل ظهور التبغ خلال القرن العاشر/السادس عشر، فإنه يكفي أن

نستكشف ولو بصورة تقديرية مختلف المراحل الإنتاجية القديمة، لاشك أننا سندرك إذاك نوعية العلاقات الفعلية التي ربطت على امتداد الفترات التاريخية الطويلة بين الحراطين وغيرهم[12].

نكون بعد هذا العرض الأولي لإشكالية بهذا الحجم الكبير، قد تفهمنا لماذا تتشبث مقولة أشباه الرحل بالتقليل من نمط العيش الفلاحي بالمداشر[13]. ونذكر هنا بأن ما يميز العبد المعتق عن الحرطاني هو انتماؤه الاجتماعي إلى خانة مفضلة عن خانة الحراطين. فابتعاده أسيرا «معتقا» عن المجالين الاقتصادي والسياسي، يخرجه من ميدان المنافسة، خلافا للحرطاني الذي يعتبر المنافس الفعلي للمتسيدين على المجال الترحالي في أحواز القرى والمداشر الكبرى. وهو أمر يتجلى بوضوح في العلاقة بين وعرون حيث يحتكر الحراطين أكثر الساقيات والأراضي المسقية بالمقارنة مع باقي الأسر التي تنحصر في ترتيب كمي بجوار المالكين الفعليين. والملاحظ هنا أن هذا النوع من روابط الجوار يعارض شكلا ومضمونا العلاقات التراتبية بين الأسياد والعبيد المعتقين. بل إن تاريخ التعامل بين الحراطين وباقي أهل وعرون وخاصة في الميدان الفلاحي، يثبت علاقات فئتين لمجتمعين متقاربين جدا. فبالنظر إلى أن الهدف من الإنتاج الفلاحي هنا هو الاتجار، يمكن القول بأنه يسوي بين جميع المنتجين ويضعهم في فئة اجتماعية واحدة. وحيث أن الحراطين يشكلون الأغلبية في نظام السوق الذي يساوي بين جميع المنتجين، فإنهم يلمسون أهميتهم الفعلية يوم الأحد بسوق وعرون. فندرك مدى سذاجة الأطروحة التي تمزجهم بالعبيد المعتقين المنتشرين هنا وهناك بأشكال غير منظمة.

إن الهيمنة الاقتصادية التجارية على سوق وعرون تعد وحدها كافية لتوضيح مساهمة الحراطين الفعلية في تجارة التبغ عبر مسالك الصحراء. وهي إشارة داله تكفي وحدها لتجسيد سلطة فعلية مستقلة عن هيمنة الرحل ومربي الأغنام الذين لم يتمكنوا من تجاوز أحواز المداشر والتسرب إلى داخل شبكات الري.

لذلك فإن تشييد حصن مهيب كحصن وعرون الذي يشهد على رسم مؤرخ سنة 1902/1319 إنما يصف بشكل قطعي، استقلالية الوظائف، التي تميز أهله عما عداهم، ومما يزيد من حجم هذه الوظائف هو تحكم أهل وعرون في ثلاث سواقي تحمل كلها أسماء أعيان الحراطين المعروفين محليا بشيوخ وعرون[14]. تنضاف هذه السواقي الثلاث إلى بعض الخطارات الموغلة في القدم لتكشف بما لا يدع مجالا للشك، عن مدى حجم البنية الفلاحية المصدرة للتبغ، مما يعكس انفتاحا على السوق الأسبوعي والمواسم المحلية. فبفضل المساحات المسقية بوعرون وسوقه المصدرة عبر مسالك الصحراء، أمكن لهذا الحصن تحديد الموقع الهام لساكنيه داخل محور الحركية الاقتصادية بهذه الضفة الشمالية الغربية للصحراء. وعلاوة عن كون استقلالية أهل وعرون تعد مفروضة على الرحل ومربي الأغنام من أشباه الرحل الذين هم في طريقهم إلى الاستقرار. فهي عضوية أساس الترابط الفعلي الذي تفترضه الشروط الموضوعية. من هنا فإن عبارة أهل وعرون لا يمكنها، عبر الرسوم والوثائق المختلفة، ان تكشف عن أية تبعية نحو الرحل ومربي الأغنام. والعقود القضائية وغيرها من الوثائق، جد واضحة فيما يتعلق بدور القاضي واحترام مفهوم العدل ناصة على ان المراطين يعيشون مع باقي أسر وعرون جنبا إلى جنب في ظل قانون واحد.

وهي إشارة واضحة إلى كون هذا النظام القضائي يحترم الانتماءات القبلية لكل أسرة ويؤكد على حق المراطين في التمتع بنفس العلاقات التي تجمع بين باقي أهل وعرون. يمكن إذن أن نخلص إلى أن توزيع السلط والامتثال للقوانين المعمول بها، كان يعكس احترام الجميع ويضع الرحل وغيرهم جميعا أمام مسؤولياته.

*****

الهوامش :

(1) Mustapha Naïmi, "Nul Lamta où l'evail du sens étiologique", in le Nom Géographique: Patrimoine et Communication, Actes du Premier Colloque National sur les Noms Géogrphiques, IURS - DCFTT. Rabat, 1994, 45-85.

(2) Mustapha Naïmi, "Nomades et sedentaires dans l'évolution historique de l'ensemble confédéral Tekna", Bulletin Economique et Social du Maroc, Rabat, n 157, 1986, 139-154.

(3) مصطفى ناعمي، الصحراء من خلال بلاد تكنة، دار عكاظ، الرباط، 1988، 200 صفحة.

(4) حسب مؤلف H. G. Cattenoz, la Table de Concordance des Ers Chretiennes et Hégiriennes, 1954 .

(5) Paul Marty, "les Tekna du Sud marocain", in les tribus de la Haute Mauritanie, 1914 - F.C. de la chappelle, les Tekna du Sud Ouest Marocain", 1994, 93; - V. Monteil, Notes sur les Tekna, 1948, 11-14;

مصطفى ناعمي، «أولاد بلحويلات» معلمة المغرب، 1353-1355.

(6) مصطفى ناعمي، «أزوافيط» معلمة المغرب، 364-367، «أيت بلة»، معلمة المغرب، 1346-1349.

(7) F.C. de la Chappelle, les Tekna, 93.

عبد المولى بن بوعلام، «البحر المحيط في نسب تكنة وأزوافيط»، مخطوط وارد بدراسة مصطفى ناعمي «تشكل اتحادية كنموذج للعلاقة بين الرواية الشفوية والعلوم الاجتماعية والإنسانية»، الثقافة الشعبية، الجامعة

الصيفية، أكادير، دار عكاظ، الرباط، 1990، 273-290.

(8) مصطفى ناعمي، «تكاوست»، معلمة المغرب، 2084-2089.

(9) J. Caillé, le Consulat de Tanger, Paris, 1967, 107.

(10) Dr Segur, "Rapport adressé à M. le Ministre de l'Agriculture et du commerce sur les modifications à apporter aux règlements sanitaires", Annales Maritimes, Paris, 1939, t 70, v 2, 746.

(11) مصطفى ناعمي «الضفة الجنوبية للصحراء ما بين 1842 و1872 من خلال كنانيش دار بيروك التجارية، مساهمة ثلاثة مصادر جديدة»، ندوة المصادر العربية للتاريخ الافريقي، اللجنة العالمية من أجل تاريخ علمي وثقافي للإنسانية، الرباط 1-3 أبريل 1987.

(12) M. Naïmi, "le pays Takna, commerce et éthnicité avant la constitution confédérale", Actes du Colloque le Maroc et l'Atlantique du XVe ■ XVIIIe ciècle, Publ de l'Université Mohamed V, Rabat 1992, 121-146.

(13) لا يمكن وصف التمايز الطبقي بين الحراطين (إيسوقّين) والعبيد (إيسمگان) كتشابكات متعاقبة وكتداخلات ولكن كتسلسل منتظم. ويتم التمييز بين أبناء أم حرطانية متزوجة من حرطاني وبعده من عبد معتق. يسمى أبناء الأول إيسوقين بينما يسمى أبناء الثاني إيسمگان. ويبقى هذا الترتيب كما هو شكلا ومضمونا مضيفا إلى أبناء الحراطين أوصافا قد تصل إلى حد نعتهم باليهود، بل ان الحراطين يمثلون فئة أشبه ما تكون بالمنبوذة حتى بالمقارنة مع العبيد المعتقين. يدل المثل القائل «هؤلاء العبيد أصليين – غواد إيسوقين إيحورآن» على نوعية المفاضلة التي تحط من قدر الحراطين واصفة اياهم باللقطاء. ذلك أن ربط العبيد ببلال مؤذن الرسول يحدد نسبهم ويكشف عن أيديلوجية التمايز التي تفضلهم عن الحراطين. يلحق هؤلاء أنفسهم بداوود وسليمان كجدين اسميين ومعلميين نقلا إلى أحفادهم الحرف المتنوعة. وهذه حقيقة تاريخية تكشف عن علاقتهم بالأحباش الذين عرفوا باحتكارهم للمعرفة المهنية. على أن هذا النبذ الاجتماعي لا يرغم الحراطين على ضرورة النزوح إلى أعالي الجبال من أجل التكتل والدفاع عن النفس. من هنا فالمقولة الأيديولوجية التي تحط منهم اجتماعيا لا تحول دونهم والمراقبة الفعلية المستمرة لمياه السواقي.

أنظر .M. Naïmi, "Cinétique de slaffs Takna, flexibilité et mobilité Sociale"

(14) Paul Pascon, "La propriété des terres et des eaux de la maison d'Iligh" Rabat, SMER, 1984.

*****

حول قضية الحدود المغربية

محمد المعزوزي(*)

إذا كان كل الناس في جميع أقطار المعمور قد تتبعوا قضية الصحراء عن كثب أو بواسطة وسائل الإعلام السمعية والمرئية والمقروءة، فإنني كغيري من المهتمين بالحدود أشعر بنوع من المرارة والحسرة التي تمزق كبدي من جراء الوقت والجهد الثمينين المقدمين لتحرير أرضنا، واستمرار بعض الأطراف في معاكسة الحق المشروع للمغرب في اكتمال وحدته الترابية، وكأنهم بذلك يقومون بتطبيق سياسة عجز الاستعمار عن تحقيقها أثناء تواجده ببلادنا خاصة، وأن خروج الاستعمار من أقطار المغرب العربي خلف وراءه قنابل حدودية موقوتة، تفجرت احداها في حوادث حاسي بيضاء بين المغرب والجزائر، وصراعات الحدود بين الجزائر وتونس، ثم بين الجزائر وليبيا.

وانطلاقا من هذا التمهيد فإن هذا المقال لا يتوخى إعادة ما سبق طرحه في الكتب المتخصصة في موضوع الصحراء أو تلك التي تلامس الموضوع عن بعد، ومن خلال وجهات نظر ومرجعيات معينة، بقدر ما يحاول تقديم مجموعة من الانطباعات الناتجة عن دراساتي المتعددة للحدود الوطنية الشرقية والجنوبية والشمالية والتي أتوخى من وراء عرضها تحسيس الجيل الصاعد بمعاناة

(*) كاتب باحث، عضو اللجنة التي مثلت المملكة المغربية بمحكمة العدل الدولية بـ «لاهاي» في ملف قضية الصحراء المغربية.

الآباء والأجداد من أجل صيانة وحدة التراب والدفاع عنه ليتسنى لهم تحمل مسؤولياتهم في إيصال الأمانة إلى أبنائهم وأحفادهم كما تسلمناها بدورنا من آبائنا وأجدادنا. لهذه الأسباب وغيرها سأحاول معالجة الموضوع من خلال المحاور التالية:

1 – الحدود الوطنية وممارسات حكام الجزائر

2 – قضية الجيوب الشمالية المحتلة

3 – تأملات حدودية مستقبلية

1– الحدود الوطنية وممارسات حكام الجزائر:

إن المتأمل لتاريخ المغرب الحديث يعرف جيدا ما عاناه الشعب الجزائري في حروبه التحريرية، فمنذ احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 والتراب المغربي عرضة للانتهاكات الاستعمارية الفرنسية خاصة بعد مساندته لثورة الأمير عبد القادر وغيره من زعماء التحرير بالجزائر وهكذا كانت الجبهة الشرقية والصحراء الجنوبية منطلقا للتوسع الاستعماري بالمغرب إلى أن سقط في قبضة الاستعمار سنة 1912 كما تؤكد ذلك معاهدة الحماية، لكن المغاربة لم يستسلموا لهذا البلاء الجديد بقدر ما حاربوه بقوة السلاح والرجال، فعرف تاريخنا أبطالا وشهداء عطرت دماؤهم أرضنا المعطاء، وبمجرد القضاء على الثورات المسلحة، انطلقت حركة وطنية جديدة تتخذ من التأطير السياسي والتكوين الوطني للشعب وسيلة لتحقيق ثورة شاملة عجلت برحيل الاستعمار بعد أن امتدت سطوته لتمس مقدسات البلاد في شخص بطل التحرير مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه، وبحصول الاستقلال الوطني ظل المغرب وفيا للقضية الجزائرية ومخلصا لها. ومدافعا عنها في

مختلف المحافل الوطنية والقومية والإسلامية والدولية إلى جانب مساندتها بالمال والسلاح والرجال، وعندما أثيرت قضية الحدود مع الحكومة الفرنسية، رفض المغرب الطلب الفرنسي واستجاب لدعوة الأشقاء الجزائريين في تأخير النظر في هذه القضية إلى حين استقلال الجزائر حتى لا يتم التشويش على المجهودات الحربية والجهادية للجزائريين، كما تنص على ذلك معاهدة 1961، خاصة أن أرض المغرب أصبحت مستقرا آمنا للثوار الجزائريين وقاعدة خلفية آمنة لجبهة التحرير الجزائرية، مما جعل التراب الوطني عرضة للانتهاك الفرنسي أرضا وجوا وبحرا. لكن بمجرد استقلال الجزائر تنكر حكامها لاتفاقية 1961 التي كانت قائمة على الثقة والأخوة العربية والاخلاق الإسلامية التي تنص على الوفاء بالعهد بدليل قوله عز وجل «والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون» وأعقب هذا التنكر عدة اعتداءات وانتهاكات للحدود الشرقية والجنوبية، مما فرض على المغرب الدفاع عن أرضه، فكانت حرب حاسي بيضاء سنة 1963.

وكادت هذه الحرب أن تتسع لتشمل، جميع الجبهات بعد أن حاولت بعض الأطراف تدوليها، لكن حكمة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، وتدخل بعض رؤساء الدول الافريقية والعربية أدت إلى إيقاف القتال والانطلاق في مفاوضات حول أراضي يعرف حكام الجزائر حقيقة مغربيتها، لكن سياسة الهيمنة والخضوع للأطماع الاستعمارية وبعض الايديولوجيات المستوردة دفعت بالجزائريين نحو التصعيد العسكري والمساومات السياسية والاستغلال البشع لبعض الظروف القاهرة التي عاشها المغرب. وتناس زعماء جبهة التحرير المساعدة المغربية للمناضلين الجزائريين، سواء على المستوى العسكري أو الدبلوماسي أو الإجتماعي.

وانتهت كل المناورات الجزائرية بعقد اتفاقية 1972 في ظروف صعبة، حيث بترت بعض الأجزاء من التراب الوطني الممتد من نواحي تواتْ إلى جبهة تِنْدوف، وعلق المغاربة عل الانفتاح الجزائري والتكامل الاقتصادي والإجتماعي والثقافي أمالا كبيرة للاندماج الإقتصادي يتجاوز الحدود المرسومة بين مختلف دول المغرب العربي، لكن جشع حكام الجزائر وطمعهم لم يقف عند هذا الحد بل امتد لمعاكسة المغرب في صحرائه الجنوبية، وخلق صراع جديد مجاني من خلال التحالف مع الاستعمار الاسباني على حساب الحقوق التاريخية للمغرب، وهكذا تحولت الأنظار من الحدود الشرقية إلى الصحراء الغربية بغية خلق كيان مصطنع عميل وتابع للجزائر، وقد انفقت الجزائر في سبيل تحقيق ذلك ملايير الدولارات، وكان من الأجدى أن تنفق لتحقيق رفاهية أشقائنا الجزائريين ومختلف دول المغرب العربي. وهكذا أصبح حكام الجزائر وأذيالهم من المرتزقة لعبة في يد بعض الدول الاستعمارية والحرب الباردة السائدة آنذاك، وتم إقحام عدة دول عربية إفريقية وغربية وأسيوية في الصراع، لكن المغاربة ظلوا يلتزمون الحكمة، ويعالجون قضيتهم الوطنية في إطار المشروعية الدولية حيث كانت المسيرة الخضراء تتويجا لحكم محكمة العدل الدولية. ومع تواجدنا تاريخيا وحاضرا ومستقبلا في الصحراء، فإن حكام الجزائر لم تلههم مشاكلهم الداخلية عن التسليم بواقع مغربية الصحراء، بقدر ما كانوا يعلقون مشاكلهم الداخلية على مشجب مغربية الصحراء.

2 – قضية الجيوب الشمالية المحتلة:

إذا كانت الاستراتيجية التي اعتمدها محرر الصحراء جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله رائدا قوميا وعالميا. فإن مشكل الجيوب الشمالية المحتلة يفرض ذاته على المغاربة من حين لآخر بسبب الرغبة الاستعمارية الاسبانية في تأبيد الاستعمار وجعله أمرا محسوما، وذلك من خلال إصدار اسبانيا لعدة قوانين كلها تحاول تكريس الاحتلال للجيوب الشمالية المحتلة. وقد ساهمت ظروف المغرب الحالية في جعله يكتفي بالإحتجاج. ومحاولة خلق إجماع قومي وإسلامي ودولي حول قضية جيوبه المحتلة، كما تؤكد ذلك مختلف التوصيات الصادرة عن عدة هيئات دولية، ونخص بالذكر منها توصية جامعة الدول العربية التي أصدرت القرار التالي:

يقرر المجلس الموافقة على توصية لجنة الشؤون السياسية الآتية:

«نظرت اللجنة مذكرة المملكة المغربية في الموضوع وتوصي بالموافقة على ما يأتي:

نظرت اللجنة موضوع مدينتي سبتة ومليلية وصخرتي الحسيمة وفاليس، والجزر الجعفرية الخاضعة للاحتلال الاسباني، والذي كانت الحكومة المغربية قد طلبت ادراجه في جدول أعمال لجنة الأربعة والعشرين التابعة للأمم المتحدة بتاريخ 30 يناير 1975، تحت رقم أ/أس/475/109.

وبعد الاطلاع على القرار الذي اتخذه المجلس الوزاري لمنظمة الوحدة الافريقية بتاريخ 12 فبراير 1975 بشأن تأييد المغرب في مطالبه العادلة المتعلقة باسترجاع الجيوب المستعمرة في الساحل الشمالي للمغرب.

وبناءعلى المواقف التارخية لجامعة الدول العربية في محاربتها الاستعمار وكفاحها من أجل تحرير جميع المناطق التي ترسف في أغلاله.

واعتبارا للتضامن العربي الذي يحتم على الدول العربية مؤازرة ومساندة أية دولة عربية تعاني من احتلال أجزاء من ترابها الوطني.

ونظرا لكون بقاء هذه الجيوب الاستعمارية في المغرب يشكل خطرا على وحدته الترابية.

ومحافظة على العلاقات التاريخية القائمة بين الدول العربية واسبانيا، توصي اللجنة بما يأتي:

1 – التأييد المطلق للمملكة المغربية في مطالبتها باسترجاع سبتة ومليلية والجزر الجعفرية وصخرتي الحسيمة وفاليس.

2 – دعم الطلب الذي تقدمت به المملكة المغربية إلى لجنة تصفية الاستعمار لتطبيق المبدأ المعمول به من أجل التعجيل بتحرير المدينتين المغربيتين والجيوب المجاورة لها واعادتها للوطن الأب.

3 – بذل المساعي لدى الحكومة الاسبانية للدخول في مفاوضات مباشرة لإنهاء احتلالها لهذه الأراضي المغربية تتميما لوحدة المغرب الترابية.

4 – أن يتابع الأمين العام الموضوع ويقدم تقريرا عنه في الدورة القادمة لمجلس الجامعة. ونفس التأييد قام به وزراء خارجية العالم الاسلامي المنعقد في دورته السادسة العادية في جدة في المملكة العربية السعودية من 3إلى 6 رجب 1395 هـ الموافق لـ 12–15 يونيو 1975 م وذلك في بيانها التالي:

تأكيدا للارادة التي أعلنت في ميثاق المؤتمر الاسلامي من أجل تعزيز التضامن الاسلامي بين الدول الأعضاء والقضاء على الاستعمار في جميع أشكاله.

ونظرا لما تقوم به السلطات الاسبانية من أعمال التعسف والطرد الجماعي والتحرشات العسكرية كرد فعل ضد مطالب المملكة المغربية في استرجاع مدينتي سبتة ومليلية والجزر المغربية الساحلية الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية الاسبانية.

يقرر:

1 – مساندته الكاملة للمملكة المغربية في مطالبتها باسترجاع سيادتها على مدينتي سبتة ومليلية والجزر الساحلية التابعة لهما.

2 – يطلب من لجنة تصفية الاستعمار النظر في هذه القضية واصدار توصية تطالب الحكومة الاسبانية بالدخول في مفاوضات مع المملكة المغربية من أجل تصفية بقايا وجودها الاستعماري في المناطق الشمالية من المملكة المغربية.

3 – يعلن المؤتمر عن قلقه واستيائه من التحرشات التي يقوم بها الجيش الاسباني في هاتين المدينتين والجزر الساحلية التابعة لهما، كما يعبر عن استنكاره لأعمال القمع والاعتقال والطرد الجماعي للسكان المغاربة من المدينتين والجزر الساحلية التابعة لهما.

4 – يدعو المؤتمر الحكومة الاسبانية لتعمل – حفاظا على علاقاتها مع العالم الاسلامي – على إنهاء احتلالها لهذه المناطق المغربية.

5 – يطلب من السيد الأمين العام للمؤتمر الاسلامي أن يقوم بالاجراءات الضرورية لتبليغ هذا القرار إلى الحكومة الاسبانية وإلى منظمة الأمم المتحدة.

وإذا كان المغرب على دراية بالميل الاستعمارية التوسعية التي عانى منها طوال تاريخه القديم والحديث، ويحاول علاج الجيوب المحتلة من خلال منطق العقل والتاريخ والمستقبل المشترك مع الجارة إسبانيا، فإن الإسبانيين وبعض مؤيديهم يحاولون تقزيم المغرب وخنقه وعزله عن أوربا وإفريقيا حتى يتسنى لهم إخضاعه لسياستهم الاستغلالية والاستنزافية لخيراته، وأظن أن الحل المنطقي هو الالتزام باقتراح جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله حول خلق خلية التفكير المستمر في مشكل سبتة ومليلية ومختلف الجيوب الشمالية حفاظا على المصالح المشتركة لاسبانيا والمغرب، دونما إغفال للاستعداد الوطني اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا لكافة الاحتمالات الجيدة منها والسلبية بدل التزامنا بقول الشاعر العربي أمرئ القيس «اليوم خمر وغدا أمر». ونتمنى لو كان لنا أمر حاسم في هذه الجيوب في المستقبل القريب، لكن العمل للغد والمستقبل يبدأ من اللحظة التي يوجد فيها الانسان، خاصة أن مختلف المناطق الاستعمارية آيلة للتحرير في نهاية القرن، وأخرها جزيرة هو نكونك التي ستعود للصين الشعبية في حدود سنة 1997، خاصة وأن الإسبانيين يستعدون بجدية للإحتفال بالذكرى 500 لاحتلال مدينة مليلية.

3 – تأملات حدودية مستقبلية:

قادتني معالجة النقطتين السابقتين إلى صياغة تأملات مستقبلية للحدود الوطنية، ولا أتوخى من ذلك تقديم حلول جاهزة أو الإدعاء بإمكانية فرض رأي أحادي، بقدر ما أحاول ترك الحرية لوجداني للإفصاح عن ما يختمر داخله في قضية شائكة لازمت

كياني لردح طويل من عمري، وأهمها أنني استغرب من الحال التي أصبح عليها عالمنا العربي والاسلامي في مقابل الغرب، فبقدر ما ينحو الغرب نحو الوحدة والتكامل الاقتصادي والاجتماعي، يتوجه عالمنا العربي الاسلامي نحو التمزق والتشردم، بهدف خلق كيانات ضعيفة، تسهل السيطرة عليها، والغريب في الأمر أن الغرب يجد في بعض الحكام العرب والمسلمين أدوات لتطبيق سياسته الخالدة «فرق تسد».

وأظن أن عامل الجغرافية والتاريخ والمستقبل المشترك إلى جانب روابط العروبة والدين واللغة كلها عوامل توحد الأمم أكثر مما تمزقها، لذلك استغرب كلما وجدت قبائل أو جهات عربية أو إسلامية ترفع شعار الانفصال بتدعيم غربي مادي وإعلامي، وكان من نتيجة ذلك، الضعف والتخلف والموت البطيء لحضارة إسلامية وعربية أثبتت وجودها من خلال وحدتها لا تمزقها. فعقيدة الاسلام الداعية إلى التوحيد يمكن أن تكون نبراسنا في رفع شعار الوحدة. أي من توحيد الخالق عز وجل نتوجه نحو توحيد الشعوب والتطلعات نحو المستقبل المشترك.

وقد يبدو حديثي متشائما اتجاه قضية الحدود الوطنية والوحدة المغاربية والعربية والاسلامية، لكنني أخاف أن تنسى تطلعاتنا مع استمرارية صمتنا، وسندي في ذلك قول الشيخ داود في كتابه القيم «تاريخ تطوان» (جزء 12، صفحة 360).

إنني – وأنا اليوم على عتبة الشيخوخة – لأشعر بالحسرة تملأ قلبي، والألم يحز فؤادي حينما أفكر في بقاء مثل هذه الحصون الحربية، والجيوش الأجنبية، فوق تراب وطني العزيز، فماهو –

يا ترى - شعور شبان اليوم وأحرار الجيل، لقد كافح أحرار المغرب (أمس) حتى كسروا قيود الاستعمار ورموا بأشلائه في أعماق البحار ومزقوا قيود الحماية المفروضة شر تمزيق وارجعوا للوطن العزيز حريته واستقلاله ووحدته ولكنه ما يزال على أحرار المغرب (اليوم) دين وأي دين، دين لا يقبل التأخير ولا التأجيل، ذاك هو العمل الجدي بكل ما في الإمكان لإرجاع مدينتي سبتة ومليلية وبقية الأراضي المغتصبة إلى أحضان المغرب تحت ظل العروبة ولواء الاسلام والعزة المغربية الخفاقة الأعلام.

*****

التجارة الصحراوية: تجارة النحاس بين المغرب والسودان (ق 3-7 هـ/9-13 م)

الموساوي العجلاوي(*)

شكلت البضائع النحاسية مادة استراتيجية في التجارة الصحراوية، نظرا للطلب الذي كان قائما عليها في ممالك السودان جنوب الصحراء حيث ارتبطت مادة النحاس بالحياة اليومية للسكان في الاستعمال اليومي وفي الزينة، وساهم النحاس أيضا في ازدهار صناعات الصهر والتحويل في المحطات التجارية في الضفة الجنوبية للصحراء.

وبقدر ما كانت الممالك السودانية مستهلكا كبيرا للنحاس، كان المغرب يتوفر على مناجم متعددة لاستخراج ومعالجة المعادن المختلفة. ويعد مجال الأطلس الصغير مخزنا للترسبات المعدنية النحاسية وتشير النصوص التاريخية إلى ظاهرة تصنيع النحاس ومزجه بمعادن أخرى، ودوره في التجارة الصحراوية، وكان النحاس مادة أساسية في استيراد الذهب إلى الضفة الشمالية وبالخصوص نحو سجلماسة ونول لمطة حيث حُوِّل معظمه إلى قطع نقدية ساهمت في تكوين كتلة معدنية ونقدية مغربية أعطت للاقتصاد المغربي آنذاك قوة متميزة.

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء.

في المقابل عثر في مواقع متعددة في الضفة الجنوبية للصحراء على مئات السبائك والحلي وأدوات الاستعمال اليومي النحاسية الحمراء والصفراء - النحاس الممزوج بالزنك - والنحاس الذي يحمل نسبا هامة من الفضة أو الرصاص، وساهمت التحليلات المختبرية التي أنجزت على هذه العينات، في الكشف عن طرق معالجة المعادن والصهر وأساليب المزج بين مختلف المعادن، وأبانت عن المستوى الحضاري للصناعات المعدنية في التاريخ المغربي.

1 - المعطيات النصية :

أثارت الانتاجات المنجمية والتعدينية اهتمام الرحالة والجغرافيين العرب، فمع كتبهم الأولى ظهرت أولى المعلومات حول المناجم ومراكز التعدين وأهميتها في النسيج الاقتصادي والسياسي للمغرب آنذاك، فاليعقوبي في كتابه «البلدان» (القرن 3 هـ/9 م) أشار إلى أهمية المعادن بجبال الأطلس الصغير، وبالخصوص حول مدينة تامدلت التي كانت حسب رواية اليعقوبي تحت إمرة يحيى بن ادريس العلوي[1]. ومن خلال السرد الذي يورده اليعقوبي يتضح أن إقليمي سجلماسة وسوس كانا مرتبطين بالسودان بالطريق التجاري الصحراوي: «ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبيلة يريد أرض السودان(...) يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين مرحلة...»[2].

هذه إذن هي الصورة التي كانت لدى الجغرافيين العرب الأوائل، عن سجلماسة وسوس، ويؤكد هذا شهادة ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك (3 هـ/9 م) الذي يتحدث عن الخوارج بمنطقة

سجلماسة وامتلاكهم لمنجم الفضة: «وفي يدي الخارجي الصفري درعة (تدغة)، وهي مدينة كبيرة كثيرة الأهل وفيها معدن فضة وهي مما يلي الجنوب إلى بلاد الحبشة...»[3].

وتتوالى مكونات هذه الصورة في كتابات الجغرافيين عن مجال الأطلس الصغير المختزن لثروات معدنية والذي يشكل في نفس الوقت المرفأ التجاري نحو ممالك السودان عبر الصحراء. فالمسعودي في كتابه مروج الذهب (4 هـ/10 م) يشير إلى الأهمية التجارية لهذه المنطقة في جلب ذهب السودان الذي يحول نقوداً بسجلماسة[4]. ونجد عند المقدسي شهادة حول وجود منجم للفضة بإقليم سجلماسة وارتباط الإقليم بالسودان[5]. إلا أننا نجد أدق التفاصيل في روابط سجلماسة بالسودان عبر اودغست، عند ابن حوقل (4 هـ/10 م) الذي زار سجلماسة سنة 340 هـ/951 م[6]. وينقل إلينا البكري (5 هـ/11 م) معلومات هامة حول مناجم النحاس بهذه المنطقة، مناجم تُونِدادن (أم جران حاليا) وتيمامين (تازلفت) بالإضافة إلى معادن الفضة بتامدلت (العدانة حاليا)[7].

ونجد لأول مرة إشارة واضحة لتصدير النحاس نحو ممالك السودان عبر الصحراء، إذ يقول: «ويتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع»[8] مع العلم أن ابن حوقل كان قد أشار في القرن 4هـ/10م إلى أهمية التجارة بين سجلماسة وأودغست، والظاهر أن مادة النحاس أخذت بعدا كبيرا في التجارة الصحراوية ابتداءً من القرن الرابع الهجري وأصبحت من البضائع المطلوبة بإلحاح في الأسواق السودانية وهو الشيء الذي نجد له صدى في المصادر التاريخية التي جاءت بعد البكري، فالزهري في كتاب الجغرافية

(6 هـ/12 م) يذكر النحاس المصدر من مراكش[9] و«النحاس المصبوغ السوسي»[10] وذلك إشارة إلى النحاس الأصفر، وهذا يعني ممارسة مزج النحاس الأحمر بالزنك لكي يصبح نحاسا أصفر.

ويذكر الادريسي، في كتابه نزهة المشتاق (6 هـ/12 م)[11]، تجارة الصحراء الرابطة بين سجلماسة ومدينتي سلا وتكرور بالسودان حيث يصدر إليهما من ضمن البضائع النحاس ويركز الإدريسي بالأساس على قيمة النحاس لدى سكان افريقيا السودانية، فيذكر أن زينتهم كانت من النحاس[12] ويضيف: «ومدينة تكرور أكبر من مدينة سلا وأكثر تجارة وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها التبر والخدم...»[13]، ويذكر الإدريسي عند حديثه عن أهل أغمات في عهد المرابطين: «وهم أملياء تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون...»[14] وهذه شهادة أيضا تبرز أهمية البضائع النحاسية في التجارة الصحراوية أيام المرابطين.

ويورد الإدريسي عند حديثه عن مدينة داي مايثبت جودة النحاس الأصفر الذي كان يصنع بسوس لدرجة أنه كان مرجعا للإتقان، فيقول الإدريسي عن مدينة داي: «وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعد له غيره من النحاس لمشارق الأرض ومغاربها وهو نحاس حلو، لونه إلى البياض يتحمل التزويج ويدخل في لحام الفضة وهو إذا طرق جاد ولم يتشرح كما يتشرح غيره من أنواع النحاس، وهذا المعدن ينسبه العوام إلى السوس

وليست مدينة داي من بلاد السوس لأن بينهما مسافات أيام كثيرة ومن هذا المعدن يحمل إلى سائر البلاد ويتصرف به في كثير من الأعمال...».

ويركز صاحب كتاب الاستبصار (6 هـ/12 م) على أهمية ايجلي بمنطقة سوس في تصدير سبائك النحاس نحو بلاد السودان[16] كما يؤكد على قيمة النحاس عند أهل السودان الذين يتبايعون بحلق النحاس[17].

ويذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان (7 هـ/13 م) أنه ضمن المواد المصدرة إلى بلاد السودان أساور من النحاس الأحمر وحلق وخواتم[18].

ونجد نفس المعلومات عند القزويني في كتابه: آثار البلاد وأخبار العباد» (7 هـ/13 م) إذ يذكر الحلق النحاسية ضمن صادرات المغرب نحو السودان[19].

ويتحدث المراكشي في كتابه «المعجب» (7 هـ/13 م)، عن مناجم النحاس والزنك بسوس، ولأول مرة نجد إشارة في نص تاريخي إلى وجود منجم للزنك بالمغرب، وربما مرد ذلك إلى شهرة المنجم[20].

أما ابن سعيد في كتابه الجغرافيا (7 هـ/13 م) فيتحدث عن وفرة النحاس بسوس[21].

نستخلص من هذه النصوص أن النحاس بالخصوص النحاس الأصفر بدأ يتخذ مكانة مهمة في التجارة الصحراوية ابتداءً من القرن الخامس الهجري، بتزايد الطلب على هذه المادة بالسودان،

وهذا ما نقلته كل المصادر التاريخية، وهذه الوضعية امتدت قرونا بعد ذلك إذ نجد لها صدى عند الحسن بن محمد الوزان في كتابه وصف افريقيا وأيضا عند مارمول (افريقيا) (8 هـ/16 م) فالحسن بن محمد الوزان يعطينا معلومات هامة عن إنتاج النحاس بإفران (الأطلس الصغير) وأن السكان كانوا ميسورين لتجارتهم مع السودان (ولاته وتمبكتو) وأن إفران كانت تحتضن عددا كبيرا من الصناع الذين ينتجون أواني نحاسية تباع بكثرة في السودان وكانت مناجم نحاس إفران بقدم الجبل وأبانت التحريات الميدانية أن الأمر يتعلق بمناجم وانسيمي وأدرار وناس وتاوريرت وناس وتاسكالا. ويؤكد مارمول نفس المعلومات عن نحاس إفران ويضيف أنه نظرا لأهمية إنتاج النحاس بالمنطقة أوفد السلطان السعدي واليا مقيما بإفران لمتابعة صناعة النحاس وأن المواد النحاسية المصنوعة في عين المكان تسمى الصيني والإشارة واضحة إلى صناعة النحاس الأصفر[22].

2 – المعطيات المادية

2–1. المناجم المغربية :

تختزن جبال الأطلس الصغير عشرات المناجم النحاسية التي ظلت نشيطة خلال قرون عدة من تاريخ المغرب، فانطلاقا من دراسة أنجزناها حول مناجم الأطلس الصغير، أمكننا إحصاء مجموعات مهمة من الاستغلاليات المنجمية والتعدينية، متمركزة حول المدن التي لعبت أدوارا كبيرة في تاريخ المغرب، وهكذا وجدنا أن عشر استغلاليات منجمية للنحاس والرصاص والمنغنيز والحديد

ارتبطت بمدينة نول لمطة - كما تم إحصاء ست وعشرين استغلالية حول مدينة إفران وجلها كان ينتج النحاس والمنغنيز والرصاص، ومن أهم مناجم نحاس إفران نذكر وانسيمي وأدرار وناس وتاسكالا، وارتبطت بتامدلت خمس وثلاثون استغلالية للنحاس والفضة والزنك والحديد، كمناجم نحاس إستواناس ومواناس وإفران وناس ومنجم تمزكدوين للزنك. وحول مدينتي ايجلي وتارودانت تم إحصاء اثنتين وثلاثين استغلالية من أهمها مجمعات إنتاج النحاس بتلات نوامان وتاتاوت، والتي كانت بدون شك وراء ازدهار صناعة النحاس بايجلي وتارودانت. ونجد مجموعة أخرى من المناجم مرتبطة بمدينة زاكسورة التي لعبت دورا استراتيجيا في الطريق التجاري سجلماسة - نول. ومن أهم هذه المناجم، نذكر أم جرات - وذكره البكري تحت إسم تنودادن - والذي يغطي مساحة 400 كلم2، بالإضافة إلى منجم البليدة. وأحصينا حول مدينة سجلماسة خمسا وعشرين استغلالية منجمية للنحاس والرصاص والفضة، نذكر من بينها منجم تازلفت للنحاس - والذي ذكره البكري تحت إسم تحمامين - ومنجم ايمشر وأخيرا مناجم تازلاغت وتاسريرت وأكوجكال، ويعد تازلاغت من أهم وأكبر مناجم إنتاج وتعدين النحاس بالمغرب كما تشهد بذلك آلاف الأطنان من الأتربة المستخرجة من باطن الأرض وركامات هامة من النفايات المعدنية قدر حجمها بحوالي ثمانين ألف طن ولإبراز دور النحاس في الصناعات المنجمية قديما، نذكر أن الاستغلال المعدني بتازلاغت وصل إلى أعماق 114 م تحت سطح الأرض كما، عرفت مناطق أخرى خصوصا بالأطلس الكبير والمتوسط إنتاجا هاما للنحاس.

أمكننا تقديم فرضيات حول إنتاج النحاس بالأطلس الصغير انطلاقا من الحفريات وركامات الأتربة التي تم حساب حجمها، وافترضنا أن المغاربة القدامى استغلوا فقط ما يقارب 1٪ من مركزات النحاس في الأحجار المعدنية وأنه تم إنتاج ما يفوق 100 ألف طن من النحاس[23]، مع العلم أن المعثورات المعدنية والنصوص التاريخية تتحدث عن النحاس الأصفر أي الممزوج بالتوتيا (الزنك) والنحاس الممزوج بالفضة أو الرصاص[24].

إن المجال الجغرافي المشكل للضفة الشمالية للصحراء يختزن عددا هاما من المناجم المتنوعة: نحاس، فضة، رصاص، زنك، حديد، وهي المواد المعدنية التي لعبت أدوارا أساسية في التجارات القديمة، بالإضافة إلى أن مجال الأطلس الصغير عرف مراكز متعددة للتعدين سواء حول المناجم المعروفة أو في المدن القديمة بسجلماسة وزاكورة وتامدلت ونول وتازلاغت وايجلي وتارودانت.

كل الدلائل الأركيلوجية والتحاليل المختبرية والنصوص التاريخية تؤكد وجود صناعات معدنية في الضفة الشمالية للصحراء[25] أي أن كل الإمكانات المادية كانت متوفرة لقيام تجارة المعادن نحو الضفة الجنوبية للصحراء مع العلم أن النحاس الأحمر والأصفر كان يتمتع بجاذبية خاصة لدى سكان السودان[25].

2-2. المعثورات المعدنية بالضفة الجنوبية للصحراء.

1.2.2- المعثورات المعدنية بحوض واد السنغال

عثر على بقايا معدنية بعدة مواقع بحوض واد السنغال: سين نگايين، ديورون جوماك، ديورون بونداو، راو، ندالان، بودور،

ساري تيوفي، سانتيوبارا، فابورا، فاريال،... وأدت تحاليل هذه البقايا المعدنية إلى الكشف عن معلومات هامة حول مكوناتها الكيميائية وطرق صهر المعادن وأساليب صياغة الحلي[26]. وأمكن التمييز خمس (5) مجموعات.

– المجموعة الأولى : وتحتوي بقايا هذه المجموعة على نسب هامة من النحاس تتراوح بين 90٪ و99.9٪ وتمثل في مجملها 43.87٪ من مجموع البقايا المعدنية التي تم تحليلها والتي وصل عددها إلى 107 عينة وتتكون هذه المجموعة من أساور وخاتم، ويظهر أن الأساور النحاسية كانت السلعة الرائجة في هذه المنطقة وبالخصوص في مواقع بادور وديورون بوماك وسين نكايين.

– المجموعة الثانية : وتظم عينات من الحلي وصل عددها إلى 39 وتحمل في تكوينها الكيميائي أزيد من 10٪ من الزنك، وكما هو الحال في المجموعة الأولى تشكل الأساور العينات الغالبة وبالخصوص في موقعي سين نكايين وديورون بوماك.

– المجموعة الثالثة : وتشمل تسع (9) عينات عثر عليها براو وسانتيوبارا وتتكون بنسب كبيرة من الفضة مع نسب من النحاس تتراوح ما بين 1 و10٪، عدا في عينة واحدة تتساوى فيها نسب الفضة والنحاس. وهذه المجموعة تتكون في مجملها من قلادات.

– المجموعة الرابعة : وتحتوي على خمس (5) عينات من البرونز، وتتميز عينات هذه المجموعة بوجود النحاس فيها بنسب كبيرة مع حضور للقصدير لنسب تتراوح بين 5 و15٪ والزنك بنسب 1 إلى 15٪، عدا في عينة واحدة لوحظ فيها غياب الزنك، وتتركز هذه المجموعة في ندالان وبودور وسانتيو بارا.

- المجموعة الخامسة : وتمثل 13 عينة، أي ما يعادل 13,11٪ من مجموع المعثورات، وتتميز عينات هذه المجموعة بعدم تجانس مكوناتها الكيميائية هذه المجموعة بعدم تجانس مكوناتها الكيميائية، وتوجد في المواقع التالية: سين نكايين وبودور وديورون بومالك ندالان وبودور وسانتيوبارا.

2.2.2- المعثورات المعدنية بتكداوست[27]

ويتعلق الأمر بمجموعة سبائك وقطع نحاسية متعددة فالسبائك الصفراء تصل نسبة النحاس فيها من 67,4٪ إلى 86,5٪ وتنحصر نسبة الزنك بين 7 و12٪، ويلاحظ أن إحدى السبائك تحتوي على 20٪ من الرصاص، وهي نسبة استثنائية. وأهم ملاحظة يمكن تسجيلها على المكونات الكيميائية لهذه السبائك هو تعدد معادنها. وأبانت التحاليل المختبرية أنها عرفت عدة عمليات صهر لتنقيتها من الشوائب أو لإضافة معادن أخرى إليها. ولوحظ في مكونات السبائك الصفراء أنه كلما ازدادت نسبة الزنك فيها كلما قلت نسبة الحديد[28].

ويظهر من حفريات موقع تكداوست أن مجموعة من الحلي وأدوات الاستعمال اليومي قد أنتجت في عين المكان انطلاقا من سبائك نحاسية وصلت المنطقة من الضفة الشمالية للصحراء أواخر القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري(10 م-11 م).29). وأثبتت التحاليل أيضا أن الأمر لا يتعلق فقط بأدوات نحاسية، ولكنها عينات متكونة من مزيج من المعادن: نحاس وزنك ورصاص وفضة، وهذا ما يؤكد تصدير هذه المعادن نحو الضفة الجنوبية للصحراء.

3.2.2 – المعثورات المعدنية بكومبي صالح[30]

تختلف البقايا المعدنية التي عثر عليها في كومبي صالح في مكوناتها الكيميائية عن تلك التي عثر عليها في حوض واد السنغال وتختلف اختلافا طفيفا عن عينات تگداوست. ويتعلق الأمر بخمس عشرة عينة من النحاس الأحمر ومن النحاس الممزوج بالرصاص ومن النحاس الأصفر وقطعة من الفضة، وأفضت التحاليل المختبرية إلى الملاحظات التالية :

– تؤكد معثورات كومبي صالح الاتجاه العام للمعثورات المعدنية بالضفة الجنوبية للصحراء، أي تعدد وتنوع مكونات الأدوات المعدنية.

– بالنسبة لجل عينات كومبي صالح نلاحظ وجود نسب هامة من الزرنيخ تصل إلى 5٪

– وجود الرصاص بنسبة كبيرة حيث يشكل مع النحاس المكون الرئيسي في بعض العينات وتصل نسبته إلى 28,5٪، وتتأرجح نسبة الزنك في النحاس الأصفر بين 10 و15٪، أما القطعة الفضية، فتصل 70٪ من الفضة و27 ٪ من النحاس.

4.2.2 -- السبائك النحاسية لقافلة إجافن[31]

عثر تيودور مونو على بقايا قافلة بموقع إجافن، وتم إحصاء أكثر من 2000 قضيب من النحاس الأصفر، كانت موجهة نحو الأسواق السودانية، ويعتقد مونو أن هذه القافلة كانت متوجهة نحو ولاته. ويزن كل قضيب حوال 500 غرام، أي أن هذه القافلة كانت تحمل طنا واحدا من النحاس الأصفر، ومتوسط طول القضيب يصل إلى

70 سنم وتم تحليل قضيب طوله 74,7 سم ووزنه 521 غ وكانت النتيجة[32] :

78,84٪ من النحاس

19,23٪ من الزنك

وهذا يدل مرة أخرى على أن الأمر يتعلق بما وصفته المصادر التاريخية بالنحاس الأصفر، وهذه الكمية التي تتجاوز طنا واحداً كانت، في إطار السياق التاريخي والتحريات الأركيولوجية للمنطقة، موجهة من المغرب نحو ولاته وحدد عمر هذه القافلة التي تاهت في الصحراء، انطلاقا من بعض المواد العضوية ببداية القرن الثاني عشر الميلادي، يتطابق هذا مع المعطيات النصية المتعددة في القرن 6 هـ/12 م والتي تؤكد على تصدير النحاس الأصفر، على شكل سبائك، نحو ممالك السودان.

3- استنتاجات :

لاحظ الباحثون لتاريخ وأركيولوجيا الضفة الجنوبية للصحراء قلة آثار العروق المعدنية النحاسية وبالخصوص في منطقة الساحل حيث أن الحديد وحده يطغى على التكونات المعدنية في هذه المنطقة[33]، مع العلم أن العروق المعدنية الأخرى لا تسمح بالحديث عن نشاطات منجمية وتعدينية هامة، كما أن طرق إعادة الصهر التي كانت تمارس في تكداوست (أودغست) قد انتقلت من المغرب نحو الضفة الجنوبية للصحراء، ويؤكد دانيلو غربنار أنه في موقع بودور بحوض واد السنغال تم الكشف عن أكبر عدد من المعثورات المعدنية في هذه المنطقة، وتم تحديد أعمار المواقع التي تم التنقيب

فيها والتي تغطي فترة تمتد من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر الميلادي.

أدت التحاليل المختبرية للبقايا المعدنية المعثور عليها في كومبي صالح وتكداوست وحوض واد السنغال إلى عدة استنتاجات:

– إن حضور الزرنيخ Tarsenic في مكونات المعثورات المعدنية في كومبي صالح بنسب تصل إلى 5٪ تبين أن درجات الصهر الحرارية للمادة الأصلية المكونة من النحاس والرصاص تراوحت ما بين 965 درجة حرارية و1000 درجة حرارية ويتعلق الأمر أساسا بسبيكتين نحاسيتين فاقت نسبة النحاس فيهما 65٪.

– أبانت تحاليل البقايا المعدنية لموقع تكداوست أن نسبة الحديد مرتفعة نسبيا في المواد النحاسية ويفسر هذا بكون النحاس صُهر في درجات حرارة ما بين 1000 و1080 درجة حرارية، الشيء الذي سمح له بامتصاص سلفورات النحاس والحديد على السواء. ونعتقد أن السبائك الصفراء قد استوردت من مراكز التعدين المحيطة بتامدلت ومن تازلاغت التي كانت من أكبر مراكز استخراج وتعدين النحاس بالمغرب. والملاحظ أيضا أن البقايا والأدوات المنزلية والحلي المعدنية المعثور عليها بتكداوست تحمل نسبا من الفضة، وهذا ما أثبتته تحاليل مختبرية لمعادن النحاس بجبل جواد وبوسكور وتازلاغت وأم جران. كما أن تحاليل النفايات المعدنية النحاسية بتازلاغت، وعينات تكداوست، أظهرت أن القصدير والفضة تفوق نسبة القصدير، وهذه الملاحظة لم تسجل مثلا على عينات كومبي صالح.

– أظهرت التحاليل أيضا أن الأمر لا يتعلق بمعثورات نحاسية حمراء ومزيج من النحاس والرصاص والفضة، بل كذلك بمواد نحاسية صفراء أي مزيج بين النحاس والزنك.

ويفسر تنوع المركبات الكيميائية للبقايا المعدنية مدى ارتباط سوق السودان بالبضائع المعدنية التي لا توجد إلا بالضفة الشمالية للصحراء والتي يتطلب تصنيعها توافر عدة شروط من معالجة وصهر وإدراك النتائج الهامة التي أظهرتها التحاليل المختبرية للبقايا النحاسية الصفراء، أن عملية مزج النحاس بالزنك (التوتيا) كانت متنوعة، وهذه العملية تتطلب معرفة عميقة وتجربة طويلة في ميدان التعدين، وهو الأمر الذي كان جاريا بمراكز التعدين بالأطلس الصغير، وأمكن استخراج طريقتين للصهر والمزج، انطلاقا من نسب العناصر الكيمائية في العينات المختبرية.

– فالطريقة الأولى، كانت تعتمد إدخال الزنك إلى سبيكة نحاسية وتسمى: Méthode de cémentation وتعطي هذه الطريقة نحاسا أصفر صافيا، وهذا ما ينطبق على معثورات حوض واد السنغال.

– أما الطريقة الثانية فتعتمد على مزج معدني النحاس والزنك وصهرهما معا، وتسمح هذه الطريقة بمرور الرصاص والحديد وعناصر أخرى، والتي يمكن أن تكون ممزوجة في حالة طبيعية مع أوكسيدات معدن الزنك، وهذا ما نلاحظه في مكونات معثورات كومبي صالح وتكداوست حيث تحتوي على نسب هامة من الرصاص والحديد.

فإذن هناك اختلاف بين طرق معالجة وصهر ومزج النحاس بالزنك بين مجموعة بقايا حوض السنغال ومجموعة بقايا كومبي

صالح وتكداوست، ونعتقد أن هذه الأخيرة جاءت نتيجة لطريقة الصهر التي تعتمد استخلاص النحاس والزنك في آن واحد بخلط معدن النحاس مع الزنك (التوتيا). في حين أتت البقايا المعدنية لحوض واد السنغال كنتيجة للطريقة الأولى المذكورة أعلاه، وصهرت في درجة حرارية بلغت 950 درجة، وهذا ما يدفعنا إلى ربط هذه المعثورات بمراكز التعدين بإفران وايجلي وتارودانت ومراكش وداي.

إن النصوص التاريخية للقرنين 5 و6 هـ/11، 12 م، تشير بوضوح إلى تجارة النحاس الأبيض من المغرب نحو افريقيا السوداء، عبر الصحراء/ والعثور على بقايا قافلة إجافن في الصحراء لا يترك مجالا للشك في تصدير مكثف للنحاس عبر الطريق التجاري الصحراوي الذي وصفه الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق، وأثبتت تحاليل إحدى السبائك المعثور عليها بإجافن إلى تقارب مكوناتها مع معثورات حوض واد السنغال، إذ تحتوي على نسب من الزنك تفوق 10٪، وهذا ما يؤكد أن المواد المعدنية كانت من أهم بضائع الخط التجاري الذي كان يربط بين مجال الأطلس الصغير وممالك السودان.

*****

الهوامش :

(1) اليعقوبي: كتاب البلدان ليدن 1892، ص 359.
(2) نفس المصدر، ص 360.
(3) ابن خرداذبه: كتاب المسالك والممالك، ليدن، 1889، ص 88.
في الهامش H يقول دوغوجي محقق الكتاب أنه وجد بنسخة أخرى كلمة

تدغة.

انظر مقالنا: La question de Todgha بمجلة هسبريس تمودا تحت الطبع.

(4) المسعودي: مروج الذهب - Ed. C. Barbier De Meynard et Pavet de Courteil Paris 1861-1877. ص 92-93.

(5) المقدسي: أحسن التقاسيم طبعة ليدن 1877، ص 331 و341.

(6) ابن حوقل صورة الأرض طبعة ليدن 1938، صفحات 83، 91، 96، 97، 99، 100، 103، 104.

(7) البكري: كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. طبعة باريز 1965، صفحات 156، 161، 167.

(8) نفس المصدر، ص 159.

(9) الزهري: كتاب الجغرافية، طبعة 1968، ص 191.

(10) نفس المصدر، ص 190.

(11) الإدريسي: كتاب نزهة المشتاق، طبعة الجزائر 1957.

(12) نفس المصدر، ص 6.

(13) نفس المصدر، ص 4.

(14) نفس المصدر، ص 42.

(15) تقع داي بالقرب من مدينة بني ملال. لا يوجد نحاس خام أبيض، ونعتقد أن الأمر يتعلق بمزيج معدني من النحاس والزنك أو النحاس والفضة أو ربما وقع الإدريسي في خطإ، وأن المقصود بالنحاس الأبيض في داي هو نتيجة لصناعة صهر تحويلية بالمدينة وأن السبائك المعدنية كانت تجلب من مجال الأطلس الصغير مع العلم بوجود مناجم نحاسية قريبة من داي من أهمها منجم ايفرغر للنحاس القريب من واو يزغت.

(16) مجهول: كتاب الاستبصار – الدار البيضاء 1985، ص 212.

(17) نفس المصدر، ص 217.

(18) ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الثاني، طبعة القاهرة 1906، ص 261 و262.

(19) القزويني: آثار البلاد طبعة بيروت 1979، ص 19.

(20) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب الدار البيضاء 1978.

نعتقد أن منجم الزنك المشار إليه في كتاب المراكشي هو منجم تمزگدوين الذي يوجد على بعد 22,5 كلم شمال غرب تامدلت وتحيط به مجموعة مناجم للنحاس بإفران وناس ومونأس واستيواناس. يقول المراكشي: «وبسوس أيضا معدنان للنحاس ومعدن للتوتيا (الزنك) وهي التوتيا التي يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفرا...» ص 510.

(21) ابن سعيد in extraits relatifs au Maghreb. Ed. Fagnan Paris 1924، ص 18 و19.

(22) كانت الصين مرجعا في التاريخ لصناعة النحاس الأصفر منذ العهود

القديمة للحضارة الصينية، وربما التشبيه هنا يعود إلى جودة ومتانة النحاس الأصفر المصنوع بإفران. وكل إشارة إلى النحاس المصبوغ أو النحاس الأصفر أو النحاس الأبيض، تعني وجود نسب هامة من التوتيا (الزنك) ممزوجة بالنحاس، واستغل المغاربة القدامى ما يعرف بالكلامين La calamine وهي: SiO2Zn OH2O

(23) أدت بعض التجارب الحديثة لإنتاج النحاس بالطرق التقليدية القديمة، إلى صنع سبائك نحاسية من 500 إلى 600 غرام بمنطقة تاتاوت بالقرب من تارودانت، كما أدت تجارب أخرى بتازلاغت إلى إنتاج سبائك من 2 إلى 4 كلغ.

(24) انطلاقا من دراستنا لمناجم الفضة بايمضرو زكوندر والعدانة أنتج المغاربة حوالي 2000 طن من الفضة بالإضافة إلى الرصاص والمنغنيز المستعملين في صناعة الخزف وتبعا لذلك فإنتاج المعادن يفوق بكثير الأرقام المقدمة أعلاه.

(25) لقد لعب النحاس دورا استراتيجيا سواء في خلق حضارة معدنية في مجال الصحراء أو في المناطق الجبلية ذات المسالك الوعرة أو حول المدن التي ازدهرت بالخصوص بين القرنين الثاني والسابع الهجري. صناعة معدنية كانت تتطلب معرفة علمية وتقنية بالإضافة إلى كثافة سكنية هامة.

وشكل النحاس الأحمر والأصفر والرصاص والفضة، بضائع هامة للتصدير نحو الجنوب إلى حدود القرن العاشر الهجري حيث تحول نحاس الأطلس الصغير إلى مادة استراتيجية في التجارة مع أوربا، وفي القرن التاسع عشر شكل النحاس أهم دعامة مادية في المقاومة ضد محاولات الاستعمار التجاري، باحتلاله مكانة مهمة في الكتلة المعدنية والنقدية المغربية.

انظر مقالنا: «الإصلاح النقدي» بالمغرب في القرن التاسع عشر دراسات تاريخية مهداة إلى جرمان عياش 1994، ص189-223.

(26) تم تحليل البقايا المعدنية لحوض واد السنغال وتگداوست وكومبي صالح بمختبر:- "Laboratoire Anthropologie - Préhistoire -) Protohistoire - Quan- ternaire armoricains"Rennes - France. وتحت إشراف: J. R. Bourhis, J. Briard.

(27) يتعلق الأمر بموقع أودغست المذكور في المصادر التاريخية والذي كان يشكل أحد المرافئ التجارية في الضفة الجنوبية للصحراء، ولعب دورا كبيرا في تشكل وقيام سلطة المرابطين في بداية نشأتهم. نشرت أعمال الحفريات في تگداوست تحت عنوان:

Tegdaoust I: Recherches sur Awdaghost - Paris 1970.

Tegdaoust II: Recherches sur Awdaghost - Paris 1979.

Tegdaoust III: Recherches sur Awdaghost - Paris 1983.

(28) نشرت نتائج تحاليل عينات تگداوست وكومبي صالح في كتاب: Métallurgie africaine، وهو مجموع مقالات باريز 1983. وتمت تحاليل هذه العينات بمختبر Rennes – انظر الإحالة رقم 26.

(29) انظر مقالنا: من أودغست إلى مراكش: قراءة في تاريخ المرابطين من خلال وثائق أركيلوجية، أشغال الملتقى الأول حول مراكش، ص 90-116. الدار البيضاء 1989.

(30) انظر الإحالة رقم 26 من هذا المقال.

(31) Théodore Monod: "Le Ma'den Ijafen: une épave caravanière dans la Magasat al Koubra" in: Actes du 1er colloque international d'archéologie africaine Fort-lamy - Tchad 1966.

(32) تم تحليل هذا القضيب بالولايات المتحدة الأمريكية:
Massachusetts intituto of technology, Mai 1965.

(33) انظر على الخصوص: Danilo Grébénard:
Les origins de la metallurgie en Afrique Occidentale - Paris 1988.

*****

دفاع المخزن المغربي عن وحدته الترابية وعن حقوقه المشروعة في الأقاليم الصحراوية

نور الدين بلحداد(*)

اعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من الوثائق المخزنية الرسمية المحفوظة في الخزانة الحسنية وقسم الوثائق التابع للخزانات العامة بالرباط، وعلى وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، والوثائق الدبلوماسية المحفوظة بمدينة نانت « Nantes ».

I – تصدي المخزن لمحاولات الأجانب للاستقرار في سواحل الصحراء:

خلفت المحاولات التي قام بها كل من جورج كلاص (G. Glass)، سنة 1764، وجون دفدسون (J. Davidson) سنة 1836، لبناء مركز تجاري في الجنوب المغربي، رغبة قوية في نفوس بعض التجار البريطانيين الذين حاولوا الاتصال مباشرة ببعض أعيان القبائل وشيوخها لربط علاقات تجارية، ومن هؤلاء التجار، نذكر دونالد ماكينزي (D. Mackenzie) الذي أسس شركة تجارية في مدينة لندن سنة 1875. أطلق عليها اسم: (North West African Company) وبعد شحن سفينته (Volta)، بمواد تجارية متنوعة وغادر ماكينزي ميناء مدينة لفربول في 11 يونيو 1876، وتمكن من زيارة السواحل

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير.

المغربية الواقعة بين مصب وادي درعة ورأس بوجدور. وبسبب عدة عوامل اختار التاجر البريطاني ساحل طرفاية لبناء وكالته التجارية. واتصل بالشيخ محمد بن بيروك التكني وقدم له بعض الهدايا وكميات هامة من المواد الغذائية، فاستجاب له الشيخ المذكور ووعده بمنحه قطعة أرض كافية لإنجاز مشروعه.

وفي سنة 1878، أرسلت الحكومة البريطانية كميات هامة من الحديد والأخشاب لمساعدة ماكينزي على بناء المركز كما توسط لصالحه نائب القنصل البريطاني (Topebann) بجزر الكناريا س لإقناع السلطات الإسبانية بمده بكميات من الأحجار واليد العاملة، وبعد انتهاء أشغال البناء بدأ ماكينزي يعقد صفقات تجارية مع القبائل، فكان يحصل منها على الصوف مقابل كميات من الأرز والسكر والشاي. وتمكن كذلك من لفت أنظار أصحاب القوافل التجارية نحو مراكزه لعقد صفقات تجارية معهم. وقد اتخذ تاجران بريطانيان نفس الطريقة التي سلكها ماكينزي لبناء مراكز تجارية جديدة في سواحل المغرب الجنوبية فجهز الأول ويدعى دفيد كوهن (D. Cohen) السفينة (Anjou) وشحنها بمواد تجارية مختلفة وأبحر من مدينة مرسيليا الفرنسية سنة 1880. بهدف الرسو في ساحل إفني، أما التاجر الثاني ويدعى جيمس كورتيس (J. Curtis) فقد حاول بناء مركز تجاري بالقرب من مرسى أركسيس سنة 1880.

وعلى الرغم من مشاكل المخزن ومشاغله، فقد استشاط السلطان مولاي الحسن الأول غضبا، واستدعى وزير بريطانيا بطنجة ج. د. هاي. وأبلغه احتجاجه الشديد على بناء مركز تجاري في ساحل طرفاية دون الحصول على إذنه[1].

ولقطع الطريق على بعض التجار الاسبانيين الذين حاولوا الاقتداء بماكينزي، ولتعزيز كذلك سلطته في جميع أنحاء الصحراء المغربية، بادر السلطان مولاي الحسن الأول إلى تعيين الشيخ ماء العينين خليفة له بالصحراء وبعث إليه ظهير توليته الذي نقتطف منه هذه الفقرة:

«... يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز قدره وجعل في الصالحات طيه ونشره أننا استولينا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته لحامله الفقيه محمد بن فضل ماء العينين الصحراوي تولية تامة شاملة على بلاد بني باعمران بسوس الأقصى ومن وراءهم بني جرار وفوقهم من الجزوليين قبيلة بعد قبيلة مع الاعرابيين بالصحراء...»[2].

وإذا قمنا بقراءة سريعة في هذا الظهير فإننا نجد أن تاريخ اصداره هو 12 ربيع الثاني عام 1296 هـ موافق 5 أبريل 1879. وهذا دليل قاطع على مشروعية الحقوق المغربية في الصحراء، لأن احتلال اسبانيا لأول منطقة في الصحراء ونعني بذلك منطقة وادي الذهب لم يكن إلا بعد سنة 1884، ثم هناك كلمة تضمنها الظهير الشريف ولها أكثر من معنى ودلالة على مغربية هذه المناطق، وهي «...إلى منتهى العمارة من ايالتنا السعيدة...»

وبعث السلطان مولاي الحسن الأول كذلك برسالة إلى قائد تازروالت الحسين أهاشم، أمره بعدم المتاجرة مع دفيد كوهن السالف الذكر. ونفس الشيء مع أمير أدرار الشيخ أحمد ولد عايدة، وأمره بعدم الإستجابة لمطالب التاجر ماكينزي. وأمام تعنت ماكينزي وعدم مبالاته باحتجاجات السلطان، هاجمت قبائل

طرفاية مستودعه التجاري سنة 1881، وخربت منشآته. فاحتج هاي وطالب المخزن بتعويض مالي قدره 12.000 فرنك، وهذا كذلك دليل آخر، علما أن هذه المناطق كانت خاضعة لسلطة المخزن المغربي. لكن مولاي الحسن الأول رفض الاستجابة لهذا الطلب، وبعث رسالة إلى نائبه بطنجة محمد بركاش، ومما قال فيها:

«... وإذا كانت به أمتعة لرعيتهم فإنه ليس بمفتوح للتجارة، وإن الاستراعاء على وجود الأمتعة المذكورة بذلك المحل واجب لكون وجودها به خارجا عن القانون ومخالف للحق...»[3].

ولحسم مادة هؤلاء التجار الأجانب، قرر السلطان مولاي الحسن الأول القيام بحركة إلى سوس سنة 1882. وبمجرد وصوله إلى منطقة وادي نون نصب عددا من القواد وكلفهم بحراسة السواحل الصحراوية ومنع رسو السفن الأجنبية بها. كما أمر قائده بالجنوب أحمد العبوبي بالقبض على التاجر كورتيس إن هو حاول العودة إلى مرسى اركسيس للمتاجرة مع قبائلها[4].

ولمساعدة قبائل الجنوب المغربي على الحصول على كل ما تحتاج إليه من مواد غذائية عوض اقتنائها من التجار الأجانب، قرر مولاي الحسن الأول وفتح مرسى تجارية في بلادهم وبعث رسالة إلى شيوخ قبائل أيت باعمران وتكنة[5].

وإذا كان المخزن قد استطاع إفشال مشروع كرتيس وكوهن، فإنه قد عانى الشيء الكثير من محاولات ماكينزي ولم يتمكن من استرجاع ساحل طرفاية إلا في سنة 1895، بمجرد التوقيع على معاهدة مع الحكومة البريطانية التي اعترفت فيها بسلطة المغرب في طرفاية والصحراء[6].

وبسبب احتلال بريطانيا لطرفاية، فقد خشيت اسبانيا على مصالحها في جزر الكناريا س، لذلك جهزت حملة بقيادة إميليو بونيللي (E. Bonelli)، وكلفته باحتلال المناطق الواقعة بين رأس بوجدور والرأس الأبيض، وبناء مراكز تجارية لتسهيل عملية البيع والشراء مع قبائل المنطقة. وعلى الرغم من كثرة المواد التجارية والهدايا المتنوعة، فقد فشل بونيللي في إقامة علاقات تجارية مع شيوخ القبائل. كما تعرض مركزه التجاري لهجوم قوي من طرف أولاد باعمار المنتمون لقبيلة أولاد دليم في 9 مارس 1885، واستولوا على كل المواد التجارية التي كانت تقلها السفينة (Cires)، وقتلوا بعض أعوان بونيللي، نذكر من بينهم (Sanchez Fe-lui) فاحتجت الحكومة الاسبانية على هذا الهجوم وبعثت رسالة إلى السلطان مولاي الحسن الأول تطلب فيها تعويضات مالية عن الخسائر التي لحقت منشآت المركز، وهذا دليل قاطع من طرف الحكومة الاسبانية على أن هذه المناطق كانت خاضعة لسلطة المخزن المغربي. وإلا فلماذا وجهت إليه هذا الطلب. وفي نفس الوقت الذي أخذت تظهر فيه أطماع فرنسا التوسعية في الصحراء وفي بلاد شنقيط، توصل السلطان مولاي الحسن الأول برسالة من القائد محمد بن أحمد بن الكور الزفاطي في 12 صفر عام 1303 الموافق ليوم الجمعة 20 نونبر 1885. يعرب فيها عن تمسك كل قبائل الصحراء بهويتهم المغربية وببيعتهم لسلاطين المغرب.

تقول الرسالة:

« ... وليكن في كريم علم سيدنا أيضا أن جميع قبائل الصحراء وأعيانهم كابن أحمد عيد وقبائلهم وابن سويد أحمد وقبائلهم

وكمثل أهل الزوايا آل الشيخ المختار وآل الشيخ سيدي وأهل الحاج المختار وآل بارك الله وأهل التفخ الخطاط وتندغ جميعا وجميع الابراكن وغيرهم من قبائل الصحراء قد فرحوا بقدوم سيدنا لهذه البلاد... والحاصل أنهم يحبون سيدنا نصره الله وأيده وينصرون كلمته...»(7).

وبسبب تشوف بعض قبائل الجنوب المغربي لربط علاقات تجارية مع الأجانب، قرر السلطان مولاي الحسن الأول القيام بحركة ثانية إلى الجنوب. وبمجرد وصوله إلى منطقة وادي نون في 13 ماي 1886، وفدت عليه جموع من شيوخ القبائل لتجديد الطاعة والولاء، فنظم السلطان شؤون المنطقة وأقام حامية عسكرية في كليمين ونصب قوادا جددا وكلفهم بحراسة السواحل ومنع رسو السفن الأجنبية. وامتثالا لأوامر السلطان أغار القائد دحمان ولد بيروك على أهل الساحل سنة 1889 بسبب تعاونهم مع الأجانب، ثم نزل إلى الساقية الحمراء واستولى على خيل أولاد تيدرارين والزركيين بسبب مواصلتهم لتعاطي التجارة مع الأجانب.

وعلى الرغم من كل هذه التدابير، فقد حاولت اسبانيا استمالة بعض شيوخ القبائل لربط علاقات تجارية معها. وأرسلت بعثة بقيادة مترجم يهودي من الشام يدعى سبير (Sber) إلى ساحل طرفاية سنة 1892. وكلفته بربط علاقات تجارية مع الشيخ ماء العينين، لكن الشيخ المذكور رفض الاستجابة لطلب سبير وبعث رسالة إلى السلطان مولاي الحسن الأول سنة 1892. ومما قال فيها:

«...وليكن في كريم علم أمير المومنين أن رجلا كان مع النصارى يقال له أصبير وهو يسمى نفسه محمد الصابر يدّعي الاسلام...

وكان في براواته انه يريد مني أن يكون خبر مرصة الطرفاية بيدي وامتنعت له أولا... وما امرتموني به معه أفعله بحول الله وقوته...»[8].

وأمام فشل سبير في محاولاته، أمرت الحكومة الاسبانية ممثلها في ساحل وادي الذهب (J. Gonzales) بإجراء مفاوضات مباشرة مع الشيخ ماء العينين لاقناعه بربط علاقات تجارية معها، فتوصل الشيخ برسالة من ممثل اسبانيا، قال فيها:

«... وأوكد أيضا بأنني حاضر لأفعل كل ما يرضيك وتحب... ثم أخبرك وأثبت لك أن تجارة اسبانيا كلها بيدك وتحت أمرك في كل مكان وزمان...»، لكن الشيخ ماء العينين رفض كل هذه الاغراءات المادية لسبب بسيط وهو ان البيعة التي بايع بها السلطان مولاي الحسن الأول تمنعه من ذلك.

ولتعزيز سلطته في سواحل الصحراء، بعث السلطان رسالة إلى قائده بالجنوب دحمان ولد بيروك سنة 1892، قال فيها:

«... وقد بلغ علمنا الشريف جولان بعض السفن من جهة البحر لناحية الساحل وذلك مما يوجب ايقاظكم ويقضي حزمكم واستنهاضكم، فجددنا لكم ولغيركم أمرنا الشريف بهذا تحريكا لعزائمكم بمزيد الاهتمام في تصوين العسس المذكورة وتعاهد وظيفها وتجديد تأسيسها ورد الهمة لجهتها، فلتصرفوا بالكم لضبط أمرها وتقويم عددها وانتخاب رجالها والقيام على ساق الجد فيها...».

وبعد استخلاص المخزن لمرسي طرفاية من يد الانجليز سنة 1895، ضاعف المخزن من علاقاته مع الشيخ ماء العينين الذي أصبح

يحصل من السلطان مولاي عبد العزيز على المؤونة اللازمة والأسلحة الكافية لمواجهة المد الاستعماري، وحتى يكون المخزن على علم بكل ما يقوم به الإسبانيون في وادي الذهب، بعث الشيخ أحمد بن شمس خليفة الشيخ ماء العينين بزاوية فاس، رسالة إلى السلطان مولاي عبد العزيز قال فيها:

«... أما بعد فليكن في علم سيدنا أن النصارى اسبانيول اشتغلوا في البناء في الداخلة موضع يكون بينه مع الطرفاية مسيرة سبعة أيام ينبغي أن تكونوا من ذلك على بال...».

وبخصوص المد الاستعماري الفرنسي في الصحراء، فإننا نجد أنه في نفس الوقت الذي كان المندوب الاسباني كاستييو يتفاوض مع نظيره الفرنسي ديلكاسي، بشأن اقتسام سواحل وادي الذهب، توصل الصدر الأعظم أحمد بن موسى «باحماد» برسالة من الشيخ ماء العينين يخبره فيها بتأهب الجيوش الفرنسية لاحتلال منطقة أدرار، ومما قال فيها:

«... إن النصرى أهل أندر لعنهم الله، ثبت عندنا بالتواتر أنهم مشتغلون بشراء الجمال والقرب، ويريدون بذلك النهوض لأدرار، وبقي من في البلاد متحيرا فيما يدخل معهم. فالبعض يقول نحن في بيعة مولاي الحسن وابنه مولاي عبد العزيز ولا نقدر على فعل شيء حتى يخلف لنا مولاي عبد العزيز فيما نفعل...»[9].

وبعدما تيقن السلطان مولاي عبد العزيز من أطماع فرنسا التوسعية في منطقة أدرار، بعث رسالة إلى نائبه بطنجة محمد الطريس، أمره فيها بالاحتجاج على وزير فرنسا بطنجة ومما قال فيها:

«... وعليه فنامرك أن تتفاوض مع القديمين ابن سعيد وغنام مفاوضة تأمل وامعان النظر في الأسلوب الذي يناسب كتابتك به لباشدور جنس النصرى المذكورين في هذه السيرة التي تفاحش أمر تراميهم بها على الحدود من غير مرعاة شرط ولا اعتبار قانون...».[10]

وعلى الرغم من هذا الاحتجاج، فقد استمرت الحكومة الفرنسية في سعيها لاحتلال أدرار، وحاولت إنشاء خط تجاري يربط بين عين صالح ومدينة تِنْبُكْتو، وكلفت الشيخ سعد بوه الذي سقط في حبالها بالتوسط لصالحها عند أخيه الشيخ ماء العينين لاقناعه بربط علاقات تجارية مع مراكزها الموجودة في السنغال، فامتنع ماء العينين عن ذلك، وبعث رسالة إلى باحماد قال فيها:

«... وليكن في كريم علمكم أنهم لعنهم الله كثيرا ما يطالبونني بالعهد معهم وأنا أمتنع من ذلك إلا إذا كان على أيديكم...»[11].

وفي نفس الوقت الذي تصدت فيه قبائل أدرار لمشاريع فرنسا، قامت قبائل وادي الذهب بهجوم عنيف ضد المركز التجاري الذي أقامه الاسبان في شبه جزيرة وادي الذهب سنة 1901، وأرغمت الاسبان على الانكماش داخله ومنعتهم من الاتصال بباقي القبائل التي تقطن في المناطق الداخلية. فحاول الاسبانيون كسب صداقة شيوخ القبائل عن طريق خلق عدة مشاريع اقتصادية في بلادهم، مثل بناء معامل متخصصة في صناعة السمك، واستصلاح أراضيهم الزراعية، لكن كل هذه المشاريع باءت بالفشل بسبب تصدي القبائل وامتناعها عن عقد صفقات تجارية مع الأجانب.

وبمجرد توصل الحكومتان، الفرنسية والاسبانية إلى التوقيع على اتفاقية في 3 أكتوبر 1904، لإتمام تحديد مجال نفوذهما في

الصحراء، كلف الشيخ ماء العينين ابنه أحمد الهيبة بمكاتبة قواد المخزن بالجنوب عامة وشيوخ قبيلة الزركيين خاصة لحثهم على إقامة حراسة دائمة على طول السواحل لمنع السفن الأجنبية من الرسو. كما بعث السلطان مولاي عبد العزيز رسالة إلى شيوخ قبيلة العروسيين، حثهم فيها على عدم التهاون في الدفاع عن سواحل بلادهم ووعدهم بمدهم بالسلاح الكافي للتصدي للأجانب، ومما قال:

«... أما الوسائل التي تخصكم والعون الذي تنتظرونه هنا والمصلحة التي تريدون أن نبلغها إليكم، فذلك كله من الواجبات علينا ومن الاهتمامات التي تلزمنا نحوكم...»[12].

وحاولت اسبانيا إغراء بعض شيوخ قبائل وادي نون عن طريق منحهم هدايا متنوعة للسماح لها ببناء مركز تجاري في بلادهم، لكن السلطان تصدى لها وقام بتعيين سليمان العروسي قائدا على قبيلة الكزاح سنة 1906. وأثنى كذلك على عامل طرفاية الذي تصدى لبعض السفن الأجنبية التي حاولت الرسو هناك. ومما قال في رسالته:

«... قد بلغ علمنا الشريف ما أنت عليه هنالك من الوقوف في أمور المخزن بطرفاية ونواحيها وردك البال لصيانتها وحفظ محارمها وبذلك المجهود في استجلاب قلوب جوارها للقيام بالصلاح والاصلاح والسعي فيما يرضي جنابنا الشريف...»[13].

أما بخصوص فرنسا فقد حاولت استغلال بعض بنود المعاهدة التي وقعتها مع اسبانيا سنة 1904، لاحتلال بلاد شنقيط، فجهزت بعثة بقيادة كوبولاني سنة 1905، وكلفته بإقامة علاقات تجارية مع

شيوخ القبائل، فتصدى له الطالب أخيار وبعث رسالة إلى والده الشيخ ماء العينين حثه فيها على ضرورة إبلاغ المخزن بنوايا فرنسا التوسعية وأن يطلب منه كميات هامة من السلاح لمساعدة القبائل على التصدي لمشاريعها. كما تصدى أحد أتباع الشيخ ماء العينين ويدعى الشريف ولد مولاي الزين لكوبولاني وقتله سنة 1905.

وأمام تزايد التوسع الفرنسي، شكل الشيخ ماء العينين وفدا من أعيان القبائل الصحراوية واتجه بهم نحو مدينة فاس لتجديد بيعتهم للسلطان والحصول منه على كميات هامة من السلاح. وبعد عودته إلى الصحراء أصبح الشيخ ماء العينين يحث القبائل على مقاطعة الأجانب وعلى التصدي لهم. فاحتجت فرنسا على السلطان وطالبته بالكف عن إرسال السلاح للقبائل، وخوفا من وقوع مضاعفات خطيرة بين الدولتين، قرر مولاي عبد العزيز إرسال وفد إلى الصحراء بقيادة ابن عمه مولاي ادريس بن عبد الرحمن وحثه على الدفاع عن وحدة بلاده الترابية، وفي يوم 11 يونيو 1905 وصل الوفد المخزني برئاسة مولاي ادريس إلى مرسى طرفاية، حاملا معه كميات هامة من السلاح والذخيرة وظهائر تولية أربعة عشر قائدا، عينهم السلطان على رأس القبائل. ووجد في استقباله بعض أتباع الشيخ ماء العينين يرأسهم محمد الامام بن ماء العينين، وبعد مسيرة ستة أيام وصل الوفد إلى مدينة السمارة حيث ألقى الشيخ ماء العينين خطابا أمام شيوخ القبائل دعاهم فيه إلى تجديد بيعتهم للسلطان ودفع ما ترتب عليهم في زكاة للخليفة، ووجه الشيخ ماء العينين رسالة إلى قبيلة إذوعيش وأهل سويد أحمد، دعاهم فيها إلى ضرورة إرسال من ينوب عليهم إلى السمارة

للتفاوض مع الخليفة السلطاني حول تنظيم الجهاد ضد الأجانب. ومما قال فيها:

«...أما بعد فليكن في كريم علمكم أن السلطان نصره الله وجه إلينا ابن عمه خليفة نائبا عنه في كل ما أهمكم الآن أو قبل من الأمور كلها لاسيما أمر النصرى دمرهم الله... والآن لابد من اتيان ولات الأمر منكم لتقع المشافهة مع الخليفة على أيدينا...»[14].

وبعد اجتماع كلمة شيوخ القبائل على ضرورة التصدي للجيوش الفرنسية، أرسل السلطان مولاي عبد العزيز مائة بندقية للشيخ ماء العينين سنة 1906، تمكن بفضلها مولاي ادريس من مهاجمة المركز الفرنسي المقام في تجيكجة ومحاصرة حاميته لمدة دامت من 5 نونبر إلى 1 دجنبر من نفس السنة. فاحتجت فرنسا بواسطة قنصلها بفاس هنري كيار (H. Gaillard)، على السلطان وهددته باستعمال قوة السلاح إن تمادى في إرسال السلاح للشيخ ماء العينين، وذهبت كذلك إلى حد إرسال سفينة حربية (Kleber) إلى ساحل طرفاية لمنع رسو السفن المخزنية المحملة بالسلاح.

وأمام تزايد المحاولات الفرنسية في بلاد شنقيط، بعث شيوخ القبائل وأعيانها رسالة إلى السلطان مولاي عبد العزيز يعربون فيها عن تمسكهم ببيعته وفي الدفاع عن بلادهم، ومما قالوا فيها:

«...فمن هم في بيعتكم سلفا عن خلف أجمعون قبائل الشناجطة المتبوءون بلادا لم يكن للنصارى سبيل عليها من قبل وهذه البلاد فيها كثير من أهل الإيمان الحقيقيين فمنها أدرار بلد واسع قيم أمره خديمك سيدي أحمد بن عيْد الذي عنده طابعك... ومنها بلاد تكانت وقيم أمرها عثمان بن بكار بن سُوَيد أحمد...»[15].

وحاول الحاكم السياسي والعسكري الاسباني بمنطقة وادي الذهب، الليوتنان كولنيل بَنْسْ (Benz)، تعزيز نفوذ بلاده في الصحراء وذلك عن طريق القيام بعدة زيارات استطلاعية للمناطق الداخلية مثل منطقة العركوب التي زارها سنة 1907، بهدف إقناع شيوخها بربط علاقات تجارية مع مركز فيلا سيسنيروس (الداخلة حاليا). لكنه فشل في مهمته وبذلك قرر رفع تقرير مفصل لحكومته حثها فيه على ضرورة إنشاء فرق عسكرية خاصة لتسهيل عملية احتلال هذه المناطق. كما أن حكومة مدريد لم تقتنع بالحجج التي قدمها السلطان لفرنسا لتبرير إرسال السلاح للقبائل الصحراوية، بل اتهمته بعرقلة احتلال المناطق التي منحتها لها اتفاقية 1904 التي وقعتها مع فرنسا. فأصدرت قرارا في 25 مارس 1907، منعت بموجبه سكان جزر الكناريا من تصدير السلاح لقبائل الصحراء، وحذرتهم باحتجاز سفنهم المحملة بالسلاح.

وأمام صمود السلطان ومواصلة إرسال السلاح للشيخ ماء العينين، قررت اسبانيا وفرنسا نهج سياسة موحدة، وأرسلتا بعض سفنها الحربية (Alvaro Bazan) و(La Lande) إلى سواحل المغرب الجنوبية لمنع وصول الأسلحة للقبائل[16].

وفي فترة حكم السلطان مولاي عبد الحفيظ توطدت العلاقات بشكل كبير بين سكان الصحراء والمخزن المغربي. وهكذا حل بمدينة مراكش وفد من قبائل الصحراء يرأسهم الشيخ ماء العينين سنة 1907، فجددوا للسلطان بيعتهم وطالبوه بكميات من الأسلحة للدفاع عن وحدة بلادهم الترابية.

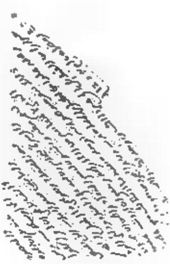
وبعد عودة الوفد الصحراوي إلى بلاده، هاجم أتباع الشيخ ماء العينين المركز الفرنسي الموجود في أكجوجة سنة 1908، وقتلوا حاكمه القبطان (Repoux) وحوالي سبعة عشر جنديا آخر. وبذلك اشتدت نقمة فرنسا على السلطان وقام حاكمها العسكري بالسنغال الكولنيل (Gouraud)، بهجوم ضد قبائل شنقيط وتمكن من احتلال منطقة أدرار سنة 1909. وهكذا أصبحت وضعية الشيخ ماء العينين جد حرجة، فطلب منه مولاي عبد الحفيظ مغادرة مدينة السمارة والمجيء إلى تزنيت لكي لا يقع في أيدي أعدائه الفرنسيين. وبعث رسالة كذلك إلى أمناء الصويرة وآسفي ومراكش، أمرهم فيها بتخصيص قدر من المال عند نهاية كل شهر وإرساله للشيخ ماء العينين لمساعدته على التصدي للجيوش الفرنسية[17].

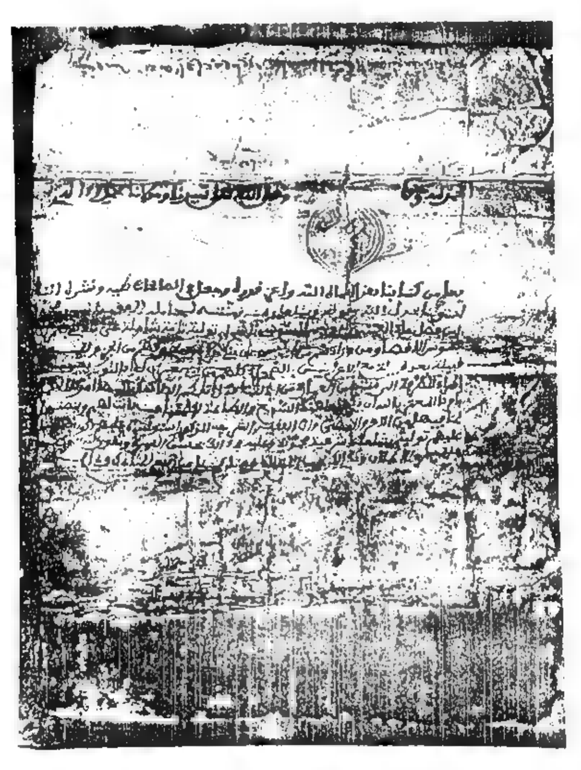
وبمجرد ما علم الشيخ ماء العينين بنوايا فرنسا التوسعية في سواحل المغرب الجنوبية، دعا قبائل سوس وتكنة والصحراء إلى تزنيت في فبراير 1910، وحثهم على ضرورة توحيد صفوفهم والاستعداد للذهاب إلى فاس لفك الحصار المضروب على السلطان. لكن هذه المحاولة باءت بالفشل، إذ تمكن الجنرال الفرنسي (Moinier) من هزم أتباع الشيخ ماء العينين بالمغرب من قصبة اولاد زيدان سنة 1910. فاضطر الشيخ ماء العينين إلى العودة إلى تزنيت وحاول إعادة تنظيم صفوف القبائل لكن المنية وافته في منتصف شهر أكتوبر في نفس السنة، فخلفه ابنه أحمد الهيبة في رئاسة القبائل وحاول بدوره استخلاص مدينة مراكش من أيدي الفرنسيين، لكنه انهزم بدوره أمام قوة الجنرال (Mangin) في معركة سيدي بوعثمان في 6 شتنبر 1912.

وعلى الرغم من فرض معاهدة الحماية على المغرب في 30 مارس 1912، واقتسام أجزائه بين فرنسا واسبانيا فقد ظل أبناء الصحراء متشبثين ببيعتهم لسلاطين المغرب، وبهويتهم المغربية، فواصلوا الجهاد ضد الجيوش الفرنسية والاسبانية ولم يستسلموا إلا بعدما فقدت ذخيرتهم الحربية وتطويق مناطقهم من طرف المستعمر سنة 1934.

*****

الوثيقة رقم 1





الوثيقة رقم 2

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

خديمنا الأرضى الطالب محمد بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله
وبعد فقد وصل كتابك بأن نائب جنس النجليز كتب لك في شأن أمر خديمه
الذي بمكينس بما كتب به أنه وجهت [illegible] وليته في أمور متعلقة
بالتجارة أمره بأن يأتي حضرتنا الشريفة بأن عددا كثيرا من أمتعة رعيتهم بالجمل
المذكور وتعين على الحفر الأمناء وفتشه عليه وأنه لا يكون [illegible] عليه أن
وضع تراميه عليه بسبب الخبار المسكورة الخزينة على الجمل المذكور كما جعلتم
عدد أنك حملت الشحنة التي وجهت من أن نوجهنا بعض خدامنا إلى
جوف المذكور ليلا الحق فيه حيث مؤمر [illegible] وإن كانت به أمتعة
لرعيتهم فإنه ليس بمفتوح للتجارة وأن الأمر إعلام على وجود الأمتعة
المذكورة بذلك المحل وإيجاب للكون وجودها به خارجا عن القانون وعلالها
للحق وأشرت بإجابته إن قبلنا جوابك المذكور بوصول كتاب النائب
المذكور مع نسخة جوابك له عنه وبقبوله [illegible] بالزيادة في الكلام
معهم بأن يعلموا أن تلك الأمتعة التي عندهم في ذلك المحل لا تتضمنه كتاب
النائب المذكور نوع من الاحتياط وأنت فرضت لهم بالاحتياط حقه
في النسخة المذكورة وصار ذلك بالبال وقد نوضنا لك الكتابة في ذلك فلأجل
النسخة هيئه وقد وجهنا لك تغيير ما أجاب به مكينسي الموجه من حضرتنا
الشريفة لذلك المحل لما تكلم مع أمتعة فيما اشتغل به من البناء فيه وأجيبه
في غير هذا مجيئه بما أشرت به والسلام في 26 القعدة عام 302 اه

الوثيقة رقم 3

الوثيقة رقم 4

المصدر : كناش رقم : 353، الخزانة الحسنية، الرباط. ص : 220.

رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول لقائده أحمد العبوبي في 19 رمضان عام 1300.

وبعد فمن جملة المكاتيب التي وجهت لعلي مقامنا كتاب بعض النصرى لأيت ربعين من صبوية وهو كرطيس المتقدم النزول هنالك أو غيره يخبرهم فيه بالذهاب لبر النصرى ومنها يأتي إليهم بحرا وعليه فلتكن عليهم عينا[1] وأذنا عن ورد لهنالك فإن رجع كرطيس لهنالك وحده فاقبض عليه وكذا

إن ورد[2] ومعه طائفة من النصرى فاقبض على الكل أو وردت[3] طائفة من النصرى ولم يكن معهما كرطيس فاقبض عليهم أيضا ووجههم لعالم السويرة صحبة من يحرسهم في أموالهم وأنفسهم ثم إنا وجهنا لك مكاتيب تسعة فأحدهما لعامل السويرة وثانيهما لبركاش وثالثهما للباشدور على تقدير أن ورد كرطيس وحده لهنالك وعلى تقدير إن ورد كرطيس ومعه غيره من النصرى توافيك ثلاثة مكاتيب أيضا لمن ذكر على تفصيله وعلى تقدير إذا وردت طائفة من النصرى لهاتيك السواحل ولم يكن معهم كرطيس توافيك ثلاثة مكاتيب أيضا للمذكورين. فالصورة الأولى توافيك في قرطاس وعليه علامة واحد والصورة الثانية توافيك في قرطاس آخر وعليها علامة إثنان والصورة الثالثة توافيك وعليها علامة ثلاثة فإذا ورد كرطيس وحده وقبضت عليه فابعثه لعامل السويرة مع الكتاب المتضمن لذلك الذي عليه علامة واحد. وكذلك كتاب برگاش وكتاب الباشدور اللذين عليهما العلامة المذكورة وهي الواحد. وإذا ورد كرطيس ومعه طائفة من النصرى وقبضت عليهم فابعثهم لعامل السويرة مع الكتاب المتضمن لذلك الذي عليه علامة اثنين وكذلك كتاب بركاش وكتاب الباشدور اللذين عليهما العلامة المذكورة وهي اثنان. وإذا وردت طائفة من النصرى ولم يكن فيهم كرطيس وقبضت عليهم فابعثهم لعامل السويرة مع الكتاب المتضمن لذلك الذي عليه علامة ثلاثة وكذلك كتاب برگاش وكتاب الباشدور اللذين عليهما العلامة المذكورة وهي ثلاثة بعد أن تُلَكِّكَ الكل وابق المكاتيب الستة الفاضلة تحت يدك على كل تقدير واطلع علمنا الشريف بذلك والسلام في 19 رمضان عام 1300.

*****

(1) ثلاثة في شأن كرطيس إذا ورد وحده لهنالك وقبضت عليه أحدهما لخديمنا الزكراكي الدويلالي والثاني لبرگاش والثالث لباشدور النجليز عليهما علامة واحد.

(2) ثلاثة في شأن كرطيس إذا ورد ومعه غيره وقبضت عليه، أحدهما لعامل السويرة والثاني لبرگاش والثالث لباشدور النجليز وعليهما علامة اثنان.

(3) ثلاثة إذا وردت جماعة منهم ولم يرد معهم كرطيس وقبضت عليهم أحدهما لعامل السويرة والثاني لبرگاش والثالث للباشدور وعليهما علامة ثلاثة.

*****

الوثيقة رقم 5

المصدر : مخطوط مكرفلم رقم ، 21، قسم الوثائق التابع للخزانة العامة الرباط، ص : 58.

رسالة من السلطان مولاي الحسن الاول لقواد ايت باعمران وتكنة في عام 1299هـ.

بعد الحمدلة والصلاة على النبي عليه السلام وبعد فقد اقتضت المصلحة فتح مرسى بحدود بلادكم وبلاد خدامنا قبيلة تكنة سيدي بورزك أو بالمحل المسمى بآصك إن كان هو الحد بينكم وبينهم ليسهم عليكم وعليهم بقربها تعاطي البيع والشراء فيها لبعد مراسي ايا لتنا السعيدة عندكم ولحاق المشقة لكم في سفركم لها بقصد ذاك مع ما بلغ علمنا الشريف من تشوفكم ورغبتكم في فتحها وتضييع أموال لكم لها بال في الاختلاس بالبيع والشراء هنا كم مع ارتكاب أمور في تعاطيها وشراء الرخيص بأغلا ثمن و بيع الغالي مبخوسا حتى أن البعض منكم أراد أن يخلع بسبب فتحها ربقة الطاعة ويفارق الجماعة وهذا من جملة المقصود الأهم عندنا في وجهتنا السعيدة لبلادكم لاكن لما ورد على حضرتنا العالية بالله أعيان قبيلتكم ووقع معهم الكلام في شأنها وأجابوا أمرنا الشريف لهم بفتحها بأحد المحلين المذكورين بالسمع والطاعة ظهر لنا توجيه معهم طائفة من الجيش صحبة عمنا مولاي الأمين وكاتبنا الفقيه السيد علي المسفيوي وخدنا القائد مبارك بن الشليح وبعض الخاصة من عمالنا ومهندسين بقصد معاينة أحد المحلين المشار إليهما الذي يحد بلادكم وبلاد تكنة ل. عصل الانتفاع بها للجانبين وتخطيط المرسى به والاتيان لحضرتنا الشريفة بصورته والوقوف على المحل المسمى بالعجمية بسانط كروز، والاتيان بصورته. فنأمركم أن تقفوا معهم على ذالك لتنالوا حظكم من هذه المنفعة المبرورة والحسنة المدخرة بحول الله وهانحن ننتظر ما نسمعه عنكم من الوقوف مع المذكورين في ذلك، أرشدكم الله وزادكم توفيقا وهداية وصلاحا ونجاحا عامين والسلام. في عام 1299.

*****

الوثيقة رقم 7

المصدر : الظهائر والرسائل السلطانية الخاصة بعهد السلطان مولاي الحسن الأول، المحفظة رقم 18 ، الفلاف رقم : 130. الخزانة الحسنية بالرباط. رسالة من القائد محمد بن أحمد بن الكور الزفاضي للسلطان مولاي الحسن الأول في 12 صفر عام 1303.

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله، وعلى مقام سيدنا العالي بالله أفضل السلام و أزكى التحية و الاكرام.

أما بعد فالاهم المقصود من ناحية سيدنا نصره الله وأيده الدعاء لنا بعز الدارين والسلامة من وبالهما وليكن في كريم علم سيدنا أيضا أن جميع قبائل الصحراء وأعيانهم كابن أحمد عيد وقبائلهم وابن سويد أحمد وقبائلهم وكمثل أهل الزوايا مال الشيخ المختار و مال الشيخ سيدي وأهل الحاج المختار وال بارك الله وأهل التفغ الخطاط وتندغ جميعا وجميع الابراكن وغيرهم من قبائل الصحراء قد فرحوا بقدوم سيدنا لهذه البلاد ويطلبون له النصر والظفر ويطلبون الله أن يمتعهم بلقائه في بلادهم والحاصل أنهم يحبون سيدنا نصره الله وأيده وينصرون كلمته ويحسنون إلى من جاءهم بخبره يسرهم ما يسره ويسوءهم ما يسوؤه فلا أساء الله له يوما ولا ليلة ولازالت الأيام تساعده والاكدار تباعده قد أخبرنا بذالك من لايشك في قوله ولا فعله وهو واحد من إخواننا تقي زكي ذو عقل وحزم وفطانة ونباهة وهو خبير بأحوال تلك البلاد وأحوال أهلها وقد مكث في تلك البلاد نحو خمس سنين يجول فيها من قبيلة إلى قبيلة ومن بلد إلى بلد وقد جاءنا وهو مقيم عندنا الآن وهو من أكابر أعياننا وأتقاهم والسلام على حضرة سيدنا الأمير مولانا الحسن بن مولانا محمد بن مولانا عبد الرحمان والسلام عن إذن القائد محمد بن أحمد بن الكور الزفاضي التكني والسلام. في 12 يوما خلون من صفر عام 1303 والسلام.

الحمد لله وحده والسلام على اول من عبدك

الحمد لله رب العالمين على امين نا الحسن الموصوف بالحسن
والشكر لله رب العالمين على امين نا العابد المعروف بالحسن
وعلى حضرة امير المومنين سلام الله ورحمته وبركاته
ما دام الكون وحركاته وسكناته هذا ولكي
يكرم علم امير المومنين ان رجلا كان مع النصارى
لعنهم الله يقال له اصبير وهو يسمي نفسه محمد العابدين
بن عي (رانسكا) ومنذ زمن وهو بسلك البراوات
بل قدم علي قبل وارانا (راسكا) وسعاير وكان في براوته
انه ينبغي ان يكون في مرصة الكوفلة بيدي وامتنعت له اولا
وبعد ذا الكرنشت جوابه حتى ارسل البراوة ثلاث مع
المكتوب على حالها فلما ارسلتها ارسلت له بعض البواريد
لينظر في حرمتني با تبع الخبر عندكم وما امرتمونا به
معه اجعله بحول الله وقوته وجزاكم الله تعالى بما تحبونه بالتمام
وان خبر الكرمانية كثر على جيبة الغبل والقلال حتى زادت حاملة
وهو مريد نا محمد بيجيت وارسلته لهما ولاهلها لينظر فيما
ويا ينبغي بخبر البلير واتانا به وهذا نا ارسلته لكم ببعض خبركم
الخبر ان شاء الله مستمسكا جهة وارجو الله ان يبلغكم منه النفع
ما لم يبلغه غيركم في دهركم وجعله في عقبكم الى منتهى الابد وعلى المحبة
كو بينه حبيبكم وحبيب ابائكم سلطان العينين شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين والسلام
بخير البوادي والمسلمين في امين 12 ذي القعدة عام 1306 هـ

الوثيقة رقم 8

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم : 353.
الوثيقة رقم 9

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم: 353،
الوثيقة رقم 9

Consulat de France
à Mogador

République Française.

Mogador, le 31 Décembre 1908

N° 336

SECRÉTARIAT DE LA LÉGATION DE FRANCE
à TANGER
3 Janv. 09
25
Ma-el-Aïnin

Rapports du Makhzen avec Ma-el-Aïnin.

Le Consul de France à Mogador
à Monsieur le comte de Saint-Aulaire
chargé d'affaires de France au Maroc,
à Tanger

J'apprends de bonne source que, par ordre du [illegible], la plus grande partie des revenus perçus par les amins des Mostafad à Mogador, à Saffi et à [illegible] est versée à la fin de chaque mois aux agents de Ma-el-Aïnin.

Les sommes ainsi versées sont régulièrement adressées au Marabout à [illegible]-el-Hamra. Les envois se font généralement par la voie de Tiznit.

Les [illegible] des revenus du Mostafad à Mogador sont : 1° les [illegible] de portes qui rapportent environ 2000 francs par mois,
2° les [illegible] des immeubles domaniaux qui sont de

الوثيقة رقم [illegible] (تتمة)

plus de 1600 Douros.

3° les taxes [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] 1000 Douros.

Total [illegible] 1000 Douros par mois

Dans une prochaine communication j'aurai l'honneur de vous faire connaître le chiffre [illegible] [illegible] de ces mêmes revenus [illegible] [illegible]

[illegible]

الهوامش :

(1) أنظر ملحق الوثائق في آخر هذا البحث.
(2) أنظر نص الظهير الشريف في ملحق الوثائق.
(3) أنظر نص الرسالة في ملحق الوثائق.
(4) أنظر نص الرسالة في ملحق الوثائق.
(5) أنظر نص الرسالة السلطانية في ملحق الوثائق.
(6) أنظر فصول هذه المعاهدة في:
عبد الهادي مكوار : وثائق وبطائق متعلقة بطرفاية، مخطوط مكرو فلم رقم 25، ص 4، الخزانة العامة الرباط.
(7) أنظر نص الرسالة في الملحق.
(8) أنظر نص الرسالة في الملحق.
(9) أنظر نص الرسالة في:
محمد بن عزوز حكيم: السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال

الوثائق المخزنية: الجزء 1. ص 188. الدار البيضاء، 1981.

(10) م. س، ص 189.

(11) م. س.، ص 188.

(12) م. س، ص 220.

(13) كناش مكاتب الطابع الشريف، ص 79/69. مخطوط رقم: د 1695، قسم الوثائق، الخزانة العامة، الرباط.

(14) أنظر نص الرسالة في:

Paul Marty - islam en Mauritanie et au Sénégal (Les Fadelia). p. 159. dans: Revue du Monde Musulman. Vol. XXXI. Ed Ernest Leroux. Paris. 1915-1916.

(15) محمد الامام: الجاش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة في مركب وسيط، مخطوط مكروفلم، رقم 6، ص 24. الخزانة العامة الرباط.

(16) بعث قنصل فرنسا بالعرائش (Jeannier) رسالة إلى وزير بلاده بطنجة (Regnault) بتاريخ فبراير 1907، أخبره فيها بأن السلطان مولاي عبد العزيز قد أرسل مؤخرا حوالي 125 صندوق من البندقيات و145 آخر من الدخيرة للشيخ ماء العينين.

Documents Diplomatiques Français. Tome 3, p. 178. Année 1906-1907. Paris.

(17) أنظر نص الرسالة في التقرير الذي بعثه قنصل فرنسا بالصويرة (Kouri) إلى القائم بأعمال فرنسا بطنجة (Saint-Aulaire) بتاريخ 31 دجنبر 1908.

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم 350. مجموعة المغرب (طنجة)، نانط فرنسا، أنظر الوثيقة رقم 9.

*****

بعض مظاهر حياة الصحراء المغربية فكرا وحضارة

الشيخ ماء العينين لارباس
بن الشيخ محمد الأغظف(*)

إن الحديث عن جانب من جوانب تاريخ جهة من جهات المملكة المغربية يحتاج ولاشك لدراسة معمقة وبحث شامل ليضع الكاتب القارئ في الصورة الحقيقية لواقع ظاهرة من ظواهر تاريخ المكان المتحدث عنه، فالتاريخ المغربي ضارب في أعماق العصور الغابرة، ولا يزال الكثير مما مر على هذا البلد الأمين يحتاج إلى دراسة وافية لاستخراج كنوز ماضينا المجيد الذي ما زال الكثير منه مجهولا، ويحتاج لتضافر جهود الباحثين المختصين لنفض الغبار عنه، فماضي الأمم المشرق أغلى رصيد يدفع بها لمستقبل واعد.

وإن اهتمام وزارة الثقافة بهذا الجانب الذي يدخل في ميدان اختصاصها، وجعلها تخصص عددا خاصا من مجلة المناهل يهتم بالصحراء المغربية حضارة وفكرا، إن هذا الاهتمام تشكر عليه الوزارة وإدارة المجلة.

إن الصحراء المغربية، كغيرها من جهات المملكة المغربية، انجبت علماء ومجاهدين وأولياء وصالحين وكان سكانها الأماجد، وما يزالون أوفياء يعتز كل واحد منهم بتاريخ وطنه.

(*) رئيس المجلس العلمي بالأقاليم الجنوبية للصحراء المغربية.

فإذا أراد الباحث أن يتتبع جوانب حياة هذا الجزء من الوطن الغالي فسيحتاج إلى وقت طويل، لأسباب لا تخفى على أي دارس ومختص في تاريخ صحرائنا المغربية.

إنك إذا أردت أن تهيئ دراسة عن عالم من علمائها أو مجاهديها أو صالح من صلحائها إلا ويفرض عليك واجب الأمانة التاريخية أن تدون الواقع الذي لا يقبل الطعن حسب ما هو موثق، حول الموضوع الذي تناولت. وعندما تجد نفسك أنك إذا أردت التحدث عن أي عالم أو مجاهد أو صالح أو قبيلة برمتها إلا ورأيت قلمك مرهونا بأن يتطرق إلى تاريخ جبل العلمين، أو سكان سيدي يحيى الغرب، أو قلعة سراغنة، أو مراكش، أو زرهون، أو سيدي بوعزة، أو خنيفرة، أو سوس، أو سجلماسة، أوأربعاء سيدي المختار، أو نواحي وجدة والناظور... إلى غير ذلك من مدن وجهات المملكة، لترابط هؤلاء السكان الصحراويين نسبا وصهرا بأصولهم ومنابعهم وأهلهم وذويهم المنتشرين في جميع رقعة هذا الوطن العزيز، من البوغاز إلى الصحراء، وهذا من الأسباب التي تحتم على من يستهدف الموضوعية في ما يدونه وينشره عن تاريخ هذه الجهة الصحراوية، أن يوضح هذا التمازج العرقي والتلاحم السلالي والتفاعل البنوي والتماسك الموجود بين أبناء هذه الأمة العظيمة، كل هذا يتراءى للباحث كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، حلقات سلسلة متماسكة وصفوف مراحل حياتنا التاريخية المتراصة. فتتحصل عند المختص المهتم أن الكتابة عن الصحراء المغربية تاريخا وفكرا، ترتبط ارتباطا عضويا بتاريخ مغرب موحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

ولاشك أن تنوع المميزات والخصائص التي توجد بكل جهة من جهات المملكة، أعطيا لهذا البلد الأصيل غنى حضاريا متميزا، قل ما يوجد في بلد أو تتوفر عليه أمة، زيادة على التمازج العائلي الذي يجمع بين أبناء الوطن.

ولقد طبع سكان هذه الجهة الصحراوية من المملكة المغربية إيمان راسخ بالوفاء المطلق لهذا الوطن العزيز، يدافعون عن وحدته، ويذبون بما في الكلمة من معنى عن مقدساته، ويحافظون على أصالته، ويعتزون أيما اعتزاز بحضارته ويباهون بتاريخه الذي يسمو بما خلده عظماؤنا من مآثر تتيه بها الأمم.

إن سفر ماضي بلادنا الضخم يدون غرة في جبين حياة الدول التي ترعى القيم وتقدر الواجب الوطني والأخلاقي، فأبناء جهة، هذه صفاتهم، لا يستغرب عليهم التشبث بأصالتهم النابعة عن مغرب موحد نسبا وأرضا، قدم العروبة وأمازيغ امتزجا في عروق المواطن المغربي فكونا منه مواطنا متميزا بشهامته، وصلابة عوده، واعتزازه بأصالته النسيبة، وحبه لبلده، وتجاوبه بكل مشاعره مع طبيعته الخلابة وانصهاره في حياة جهته عرفا وعادة.

وهذا ما جعل ولد الصحراء المغربية يهتم بالحياة البسيطة التي تكتنف ولد الواحة النقية طبيعة وسلوكا:

لبيت تخفق الأرياح فيه   أحب إلي من قصر منيف

لقد عاش جل أبناء الصحراء المغربية تحت الخيام باستثناء بعض أبناء الحواضر المحدثة في القرنين 18 و19 كمدينة طرفاية والداخلة والسمارة، مع أن أبناء هذه المدن يعيشون من حين لآخر تحت الخيام وينتقلون على ظهور الجمال، إما لاداء البيعة لملوكنا

العلويين في المناسبات الدينية والوطنية، أو دفاعا عن الوطن، أو طالبين أحيانا للعلم أو باحثين عن الكلإ...

وقد كان أبناء الصحراء المغربية يرحلون طلبا للعلم في حواضرنا العتيقة كفاس ومراكش إضافة إلى المدارس العتيقة الشهيرة المنتشرة في صحرائنا المغربية وفي وسط المملكة وشمالها. وقد لعبت هذه المدارس العلمية دورا طلائعيا في تثقيف أبناء هذا الوطن العزيز وقوت تواصلهم وترابطهم في الكثير من مجالات الحياة، وزاد في هذا التلاحم وحدة الرؤى ووحدة المذهب والعقيدة، فقد حرص ملوك المغرب على الأخذ بمذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي وشد الاعتناء به وبدراسته وتأصيله في عهد الدولة العلوية الشريفة. فكان لتوحيد المذهب المالكي والمعتقد الأشعري أكبر عامل لقوة وحدتنا فكرا وحضارة.

ومن المعلوم أن جامعة القرويين التي عم نور إشعاع علمها كثيرا من أصقاع الدنيا. قد تخرج منها علماء أجلاء كان لهم الفضل في تأسيس هذه المدارس المتفرعة عن هذه الجامعة العتيقة. فلن ترى عميد مؤسسة علمية في الجنوب صدر علما، ونشر معارف نافعة إلا وتخرج هو نفسه أو مشايخه الآخذ عنهم من هذه المعلمة التاريخية القروية الفاسية.

ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر البعض من هذه المدارس التي ساهمت في نشر العلم وتلقينه مدرسة سجلماسة، المدرسة الناصرية، مدرسة الشيخ سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، مدرسة اتشاغ الخطاط، مدرسة الشيخ محمد المامي، مدرسة أهل محمد سالم، مدرسة الصمارة العينية، مدرسة أهل عبد المعطي السباعية،

مدرسة إيلغ السوسية... إلى غير ذلك من المدارس العلمية الكثيرة، التي لا تأتي تحت حصر والتي حازت قصبة السبق في نشر العلم والمعارف، وإلى أبنائها الأوفياء وجميع سكان هذه الجهة يرجع الفضل في التصدي لمد الغزو الاستعماري بقيادة العرش العلوي المجيد أيد الله ملكه، وخلد في الصالحات ذكره.

لقد اعتنى الملوك العلويون بالعلم والعلماء وذلك ديدنهم وتلك شيمتهم، فأحاطوا المدارس العلمية في الصحراء المغربية بالعناية الفائقة كي تقوم بأداء رسالتها المشرفة على الوجه الأكمل، وقد تحقق ذلك فضلا من الله جلت قدرته، وما زال البعض من هذه المدارس يقوم بواجبه أحسن قيام، فإذا تتبع المهتم إنتاج خريجي هذه المؤسسات في أي ميدان من ميادين العلوم الاسلامية، يجد أن هذا السلف الصالح ترك لنا من أعماله الفكرية الحية ما يجعلنا جديرين بالافتخار به وبمجهوده الجبار الذي بذل في الحفاظ على تراثنا الاسلامي فكرا وحضارة، واستطاع هذا السلف بواسطة مدارسه وعلمائه ودعاته ومشايخه الحريصين على قيمه بصفة عامة، أن يلقن الأجيال ما ترك لنا الرعيل الأول من ثروة علمية تغني المدارك وتنمي المعارف وتحيي التراث وتحافظ على الأصالة.

أولئك أبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرا لمجامع

من تحلى بهذه القيم، وأحيى هذا التاريخ المجيد وحافظ على إبراز أعمال أبناء هذا البلد وتخليد مكانتهم لتبقى مرسومة في ذاكرة الأجيال، هو أب للفضيلة ويحق الافتخار به، ويعتز المنتسب إليه وطنا ونسبا.

لقد عرف ولد الصحراء المغربية الحقيقي بالوفاء بالعهد والاخلاص للعرش العلوي المجيد والجالس عليه والتمسك بالاسلام وقيمه، والمحافظة على تطبيق مشهور مذهب مالك وما جرى به العمل، كما عرف بترجيح رواية ابن قاسم على غيرها من أقوال علماء المذاهب.

ويمتاز علماء الصحراء المغربية بعدم التعصب ويتحلون بالمرونة الكاملة في الفكر، والبعد عن التزمت، فالآية القرآنية، والحديث النبوي على ألسنتهم، يعطرون مجالسهم دوما وأبدا بعلوم القرآن والتفسير، وعلوم الحديث ودراسة كتبه ومسانده، ولا يفترون عن مدارسة السيرة النبوية، ولهم شغف وحب لا يضاهيان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ولكي أعطيك أيها القارئ برهانا واضحا ودليلا قاطعا على عمق حب سكان هذه الجهة للرسول عليه الصلاة والسلام وآل بيته الكرام، هاأنا أسوق لك نموذجا مختصرا جدا من شعر أحد خريجي هذه المدارس التي أومأت لها آنفا وبالأخص مدرسة السمارة العينية، وأعني بها أحد نبغاء هذه المؤسسة العلمية، العلامة الجليل والشاعر المجيد، والمقاوم الكبير والوفي المحب للرسول وآله صلى الله عليه وسلم، أستاذنا الكبير فضيلة ماء العينين بن العتيق، صاحب التآليف المفيدة والدواوين العديدة.

يقول هذا الشاعر من قصيدة يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم، مطلعها:

الا من لعين عز وجدا هجوبها	وهان عليها بالمدامع جودها
تفيض لذكرى الفيضتين بعبرة	كأني إذا كفكفتها استزيدها

ومن لحجي أذكى به الشوق شعلة تشب استعارا إذ يرام خمودها
وهل تذكرت أيامها أم تنوسيت وهل رعيت أم هل أضيعت عهودها

إلى أن يقول في التخلص على الرسول (ص) :

ولكن هوى أرض الحجاز استمالني فلما يشقني اليوم إلا شهودها
ألا يا رسول الله حبك حببت إلي به وهدانا ونجودها
فما غير أرض أنت فيها ميمم لنيل العلا من كل وجه صعيدها
وهل جنة الدنيا سوى الأربع التي حوتك وهل إلا ربيعك عيدها
بميلادك الأقطار نارت وأصبحت محلا بتقصار السعادة جيدها
وأمسى الليالي ساقطا نيرانها وطالعة في الخافقين سعودها

إلى آخرها، وهي قصيدة مديحية عليه (ص) طويلة ومفيدة، عدد أبياتها (92)، تدل عل سعة اطلاع صاحبها وغزارة علمه وجودة شعره وإخلاص حبه وطول نفسه في هذا الميدان.

ولم يقتصر هذا العلامة الوحيد والشاعر المجيد على ذكر مناقبه عليه الصلاة والسلام ونظم مدائحه، بل أعمل قريحته الوقادة وأبرز قصائده الجيدة في الثناء لآل بيته عليه الصلاة والسلام، وهذه بعض أبيات من إحدى قصائده الكثيرة التي يمدح بها جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، بمناسبة رجوع جلالته من منفاه السحيق هو والأسرة المالكة حاملا معه حرية المغرب واستقلاله، مبرزا حبه لهذه الدوحة النبوية الشريفة، ومبتهجا بالانتصار الذي أحرز عليه العرش العلوي المجيد وشعبه الوفي رغم كيد الكائدين ومناورات المتآمرين، فقال من قصيدة طويلة هذا مطلعها:

تتابعت البشائر والحبور ... بحمد الله واتصل السرور
وصبح السعد لاح له ضياء ... وروض الفوز لاح له عبير
ونهج الرشد آن له سلوك ... ووجه الحق آن له سفور
بمشهد طلعة الملك المفدى ... من ازدانت بدولته الدهور
ومن مجلى جلالته توالت ... به الأفراح وانشرح الصدور
ومن طود السعادة مستقر ... بأمرته وناظرها قرير
امام العصر محمود السجايا ... محمد ابن يوسفنا الشهير
مزاياه الأمم بها تشيع ... لشهرتها ويبصرها الضرير
من أولى العز الأمة بعد ذل ... وبعد العز ذل به الكفور
وفي سبل العلا مر المنايا ... لديه كأنه الماء النمير

إلى أن يقول:

أمير المومنين وبالتهاني ... هم أحرى إذ انت لهم أمير
وما نهدي إليك من التهاني ... لما أوتيت من شرف كثير
لقد أنقذت الأمة من صغار ... عليه مع الكبير ربى الصغير
أزلت ظلامه عنهما وأنى ... ترى الظلماء معك وأنت نور
كففت أكف الاستعمار عنها ... فحر العبد وانفك الأسير

إلى أن يقول:

ونعم الشعب شعبك خير شعب ... تعمهم الثقافة والشعور
تآخوا في بيانتهم فكل ... على أوطانه طبعا غيور
رجال الحرب فيه بدوا بدورا ... لهم تحنوا بمشرقها البدور
اساتذة جهابذة أباة ... غطارفة قساورة بحور
الا فهنا قرير العين ان لا ... تبارحك المسرة والحبور

إلى أخر هذه القصيدة الرائعة التي ضمنها تهنئته للمغفور له على الانتصار العظيم الذي أعطاه الله على عدوه، فحرر أمته بإرادة لا تقهر وشعب وفي حريص على تحقيق ما يهدف إليه العرش العلوي المجيد من حفظ هذه الأمة وبناء مستقبلها وصيانة

كرامتها والمحافظة على وحدتها والذب عن قيمها، وقد ازداد هذا الوطن ازدهارا في عهد الموحد الباني أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني دام في حرز السبع المثاني.

فلقد بينت أن أبناء هذه الجهة عرفوا بوفائهم وحبهم للرسول وآل بيته، وسقت هذا النموذج كبرهان على ما يكنه أبناء هذا الوطن، بصفة شمولية، من إخلاص منقطع النظير للرسول (ص) وآل بيته العلويين الشرفاء الذين نعتز بقيادتهم الرشيدة.

وهذه الظاهرة من تكريم أبناء الرسول وتقديرهم واعتقاد كل الخير في هذه السلالة النبوية، عامة على جميع جهات المملكة المغربية، مع أن حظ هذه الجهة الصحراوية المغربية لم يكن ولله الحمد ضئيلا في هذا الميدان المشرف:

إن كان رفضي حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

*****

فاز كلب بحب أصحاب كهف كيف أشقى بحب آل النبي

لقد أتيت ببعض إنتاج هذا الشاعر المجيد والعالم الكبير، خريج مدرسة الصمارة العينية لأبرز للدارس مدى تشبث سكان الصحراء المغربية وعلمائها بحب النبي صلى الله عليه وسلم، وآل بيته الكرام، حيث يتنافسون في مدحه عليه الصلاة والسلام، بالشعر العربي العمودي الموزون الذي هو جوهر تراث أدبنا في ميدان النظم، زيادة على ما لهم من ثروة أدبية في النثر تشد القارئ؛ لصفاء خيالهم ودقة تصويرهم وفيض عاطفتهم. وكذلك في الأدب الحساني الذي لم يترك غرضا من أغراض الشعر العربي الأصيل إلا وتناوله بأسلوب رفيع جدا، فأديب الصحراء المغربية

معروف بصدق عاطفته وتلك شنشنة يعرفها من اخزم:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منـي وبيض الهند تقطر من دمي

وغير خاف أن حياتهم في الماضي - كما أشرنا في السطور الآنفة- تتقارب جدا مع حياة سكان الجزيرة العربية الذين كانوا يتتبعون مواضيع القطر.

ويمتاز أبناء الصحراء المغربية بالتراحم فيما بينهم وحسن النية والكرم الحاتمي مع الكل، إذ يعتنون بالضيف والغريب وذوي الحاجة عناية فائقة، ولا يسمحون بمس كرامتهم لأي كان:

فنفسك أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

إن عنايتهم بالضيف والغريب والجار، نابعة من امتثالهم لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت.

وتتمثل هذه العناية التي لا مثيل لها في مواساتهم لذوي الحاجة بمالهم ومشاركتهم لهم في ما عندهم بصفة عملية.

فسكان هذه الجهة من المملكة المغربية يطبقون ما يرمي إليه التكافل الإجتماعي الإسلامي بمعنى الكلمة. ولقد أشار إلى ذلك العلامة الشيخ محمد الامام في قصيدة له رائعة، يصف فيها شمائل أبناء هذه الجهة إذ يقول:

منازلهم لابن السبيل مشاعة فلا يزجر المولى ولا ينبح الكلب

ويصدق فيهم لكرمهم وأريحيتهم قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

ومن شيمهم التسامح الطبعي، وتتوفر فيهم صفة المؤمن التي أشار إليها الحديث النبوي: المؤمن سريع الغضب سريع الرضا.

فإذا حدث تشاجر فيما بينهم بسبب من الأسباب، فسرعان ما يمحي، ولا يبقى له أدنى أثر في النفوس، لطيبوبتهم وترفعهم وصفاء طويتهم وحبهم للخير وانقيادهم للسلام وتسامحهم الفطري:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

تقود سكان الصحراء المغربية المثالية السامية إلى نعوت المجد وصفات الكمال، يحترم بعضهم البعض، والكبير منهم يحترم الصغير والصغير يوقر الكبير كما هو مطلوب من المسلم أن يعامل به أخاه المسلم، ومن المعلوم أن للنفوس من النقائض ما لله من الكمالات، والعصمة للأنبياء، والانسان ضعيف بطبعه، مسير غير مخير، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق. هذا في نظري شيء مسلم به، لكن عندما يكون أساس تربية هذا المجتمع قويا وتكون أصالته المعبرة عن تجذره في عمق التاريخ ثابتة - كما هو الواقع - فالزوابع التي تمر لا تغير من الأساس شيئا ولا تضر بناء المجتمع المرصوص:

فما على عالي الذري من نصب من هبة الصبا ورمية الصبي

غيره:

تأبى الطبيعة غير ما يستحسن إن هم صاحبها بما لا يحسن
وإذا دمته إلى النقيصة حدة دمت السجية للتي هي أحسن

فعلى كل مغربي أن يعتز أيما اعتزاز بتاريخ وطنه، المملكة المغربية، ويزداد تيها بما خلده أبناء كل جهة من جهات هذا الوطن، من علم وجهاد وتضحية ووفاء ودفاع عن القيم السامية بالغالي

والنفيس، فالحديث عن هذه الأعمال المشرقة الكثيرة التي قام بها سكان جهات المملكة المغربية على امتداد التاريخ، بتفصيل وتمحيص تزيد ولد هذا الوطن اعتزازا وفخرا به، ولقد قلت في صدر هذا العرض الوجيز عن حياة صحرائنا المغربية، حضارة وفكرا، أن الكتابة عن جزئية من جوانب تاريخها يحتاج لوقت ودراسة وتنقيب من المختصين، لثروة هذا الموضوع وتنوع محاوره وغزارة مادته. ولي كامل اليقين بأن وزارة الثقافة لا تألوا جهدا في أن تنتدب لكل جهة علماء مختصين لجمع ما هنالك من تاريخ مجهول ما زال ينتظر من ينقب عليه ويبرزه في جوانب عديدة، علما وأدبا وفنونا... فبلادنا تزخر بتاريخ عظيم غني في شتى أنواع المعارف.

وإذا قدر الله أن أعدت دراسة موضوعية لكشف ما تتوفر عليه بلادنا من ذخائر علمية متنوعة، سنكون عندها قمنا بجزء من واجبنا نحو هذا الوطن الذي ينتظر أن نشمر عن ساعد الجد لخدمته بكل غال ونفيس، في عصر لا يرحم ولا يأخذ فيه مكانته إلا الأقوى علما وفكرا واقتصادا...

لقد فرض المغرب إسمه في التاريخ، ودون أثره في كل مجال من مجالات الحياة بصمود أبنائه، واهتمامهم الشامل بجميع مظاهر الوجود، فما علينا نحن إلا أن نعرف بأعمال هؤلاء الأماجد السابقين، ونكرس الجهد لاضافة لبنات لما بناه الأولون من أعمال تناسب تطور العصر، وتجدده السريع الذي لا يعرف التوقف ويعج بالابتكار والتجديد.

*****

جوانب وحدوية في حركة الشيخ ماء العينين

محمد الظريف(*)

يطرح البحث في موضوع الوحدة في حركة الشيخ ماء العينين نفسه بإلحاح على الباحثين في تاريخ المغرب الحديث لعدة اعتبارات منها:

أولا: مكانة الوحدة في تجربة هذا الشيخ في مستوياتها المختلفة الإجتماعية والسياسية، وموقعها في أعماله العلمية والأدبية. فهي تشكل منطلق هذه التجربة وغاية غاياتها، وروح هذه الأعمال وقطب دائرتها.

ثانيا: أهمية هذا الموضوع في الظروف الراهنة التي تعيشها بلادنا على المستوى الوطني والقومي. فنحن في أمس الحاجة إلى استلهام جوانب القوة في تراثنا لمواجهة التحديات المختلفة التي تحاول تقزيمنا وتمزيق صفوفنا، واعتمادها في إقامة مختلف الجدران الأمنية التي تقوم ببنائها، لأن التراث في أشكاله المختلفة ليس مادة ميتة تنتهي بانتهاء زمانها، وتفقد فعاليتها بزوال عهدها، ولكنه شمس دائمة الاشراق، ما تكاد تغيب وراء الأفق حتى تعود من جديد لتملأ الحياة نورا وضياء، إنه «روح الأمة

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، جامعة الحسن الثاني.

وتاريخها »[1]. لذلك لا ينبغي أن نهيل عليه تراب النسيان، أو نحفظه في المتاحف ورفوف الخزانات، ونقدم له القرابين، «بل ينبغي أن ندرسه وندعو إلى دراسته في ضوء تجاربنا وتفكيرنا، وما يعتمل في واقعنا ونفوسنا من صراع للكشف عن روح الأصالة في أمتنا، حتى نستطيع متابعة مسار التقدم الذي تحتمه حركة التاريخ الدائبة، وحتى يتسنى لنا أن نهيئ انطلاقة متفتحة يلتحم فيها التراث بتأثيره على الواقع ومعركة التغيير من جهة مع المكتسبات الجديدة بفعاليتها المبدعة الخلاقة من جهة ثانية »[2].

ثالثا : تعسف الدارسين الأجانب في تفسير الأبعاد الحقيقية للجوانب الوحدوية في هذه الحركة. فلما فشل المستعمر في طمس هذه الجوانب وإخفاء حقيقتها، جند سدنته لافراغها من محتواها الحقيقي وتقديمها في صورة تخدم أغراضه الاستعمارية.

فبول مارتي Paul Marty – على سبيل المثال – يربط هذه الجوانب بما يسمى في الأطروحة الإستعمارية بالإسلام الافريقي، أي العادات والمعتقدات الوثنية التي طبعت إسلام الشعوب الإفريقية، فيرى أن «والد الشيخ ماء العينين لم يسمح بتداول أوراد جميع الطرق ضمن طريقته إلا نتيجة تفهمه للاتجاهات الدينية للسود، لأن الرجل السليم والفاضل، هو الذي يملك عددا من الطلاسم التي تجعله في مأمن من أي احتمال، وهذا ما يفسر اتباع عدد كبير من السود لطريقته »[3].

وقريب من هذا الزعم ما يعتقده برادفور Bradfoord في الوسائل التي اعتمدها الشيخ ماء العينين في تحقيق الوحدة بين قبائل الصحراء المغربية. فهو يرى أن «زواج هذا الشيخ من مائة وست

عشرة امرأة كان من الوسائل القوية التي لجأ إليها لجمع الشمل بين القبائل الصحراوية وتقوية أواصر القرابة بينها»(4)، وهو اعتقاد طريف، لكنه غير مقنع، لأن صاحبه يظل أسير النظرة الانتروبولوجية الاستعمارية التي تفرغ كل الظواهر المشرقة في العالم الإسلامي من محتواها الديني وترجعها إلى مجموعة من الأعراف والعادات والطقوس المرتبطة باللاشعور الجمعي للشعوب.

ويصل هذا التعسف قمته في الحديث عن الأبعاد السياسية لهذه الحركة، فلا يعود امتدادها في الزمان والمكان – كما يرى برادفور – إلى ما تقوم عليه من أسس وحدوية، وإنما يعود بالأساس إلى أسباب سياسية تتعلق برغبة ملوك الدولة العلوية في تسخيرها لضرب الزوايا والطرق المناهضة لتوجهاتهم. «فليس مستبعدا –كما يرى هذا الباحث – أن يكون أمر هذه الزاوية كأمر الزاوية التيجانية التي منحها السلطان مولاي سليمان كل إمكانات القوة لتقليص دور باقي الزوايا المعاصرة لها»[5].

رابعا : اهتمام بعض رواد البحث في ثقافة الصحراء بهذا الجانب، وتأكيدهم على ضرورة إبرازه، فأية دراسة لثقافة الصحراء – حسب رأي الدكتور عباس الجراري – ينبغي أن تتم انطلاقا من عنصر التواصل الذي ربطها بالحركة الثقافية في المغرب، لأن هذه الثقافة كانت – ومازال – أداة وحدة ووسيلة تواصل[6].

وتظهر آثار الوحدة في حركة الشيخ ماء العينين في عدة جوانب نقتصر في إبرازها على جانبين اثنين: ثقافي وسياسي،

الجانب الأول : ويتمثل فيما خلفه الشيخ ماء العينين وأبناؤه وأحفاده ومريدوه من أعمال علمية وتركوه من آثار أدبية،

وسنقتصر فيه على التصوف والفقه باعتبارهما أبرز الأسس الثقافية التي قامت عليها الحركة المعينية.

1- **التصوف**: ويتحرك في اتجاهه العام في خط واحد هو تحقيق وحدة الجماعة الإسلامية، وصهر أبنائها في بوتقة روحية واحدة. ويظهر ذلك في مختلف مستوياته العلمية والعملية.

فهو ليس تجربة باطنية تأملية «يكتفي فيها بالأخبار، أو يستغنى فيها بالعلم عن حصول الأنوار»[7]، ولكنه علم وعمل، عادة وعبادة، سلوك اجتماعي وتربية أخلاقية. وهو لا يسعى إلى عزل الإنسان عن الدنيا، وإبعاده عن شرورها ومشاغلها، كما يفهم من التصوف بصفة عامة، ولكنه يهدف إلى السمو به عن قشور الحياة، والارتفاع به إلى مستوى الكمال.

كما أنه لا يقوم في أصل نشأته على الخنوع والاستسلام والتواكل والمصالحة مع الواقع، ولكنه ينبني على مواجهة كل ما يفسر سعادة الانسان، ويحول دون تحقيق كماله[8].

وتظهر وحدوية التصوف المعيني فيما يلي:

أولا: وحدة الشريعة والحقيقة. وهو مبدأ أساسي في التجربة الصوفية المعينية، يقوم في أساسه على ضرورة ركوب سفينة الشريعة في بحر الحقيقة، ولزوم دخول بيت الشريعة من باب الحقيقة. وقد أكد الشيخ ماء العينين على ضرورة احترام هذا المبدإ، ولزم الاهتداء به من أي سلوك صوفي، بل اعتبره أساس التجربة الصوفية وجوهر حقيقتها. فالتصوف عنده هو «الوقوف مع آداب الشريعة ظاهرا أو باطنا، فيرى (الواقف) حكمه من الظاهر في الباطن، ومن الباطن في الظاهر، فيحصل من الحكمين كمال لم يكن بعده كمال...»[9].

وكل سلوك صوفي لا يقوم على هذا المبدإ يعتبر مروقا وفسقا، لأن من «تفقه ولم يتصوف، فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه، فقد تزندق، ومن جمع بينهما، فقد تحقق»[10].

ثانيا : معالجة الانسان لنفسه ويتم ذلك بالتخلي عن الجوانب الظلمانية التي تميتها والتحلي بالأخلاق النورانية التي تحييها فتنطلق من عقالها وتعانق الجمال والجلال والكمال. وقد عبر الشيخ ماء العينين عن هذه التجربة الوحدوية التي تتوحد فيها القيم المثالية عبر عمليات التخلي والتحلي والتجلي فيما بثه في أعماله الصوفية من أراء تربوية تهتم بآداب المريد مع ربه وشيخه وأخيه وغيره من الخلق، وخاصة في كتابه نعت البدايات وتوصيف النهايات[11].

ثالثا : المؤاخاة بين الطرق الصوفية والتأليف بين قلوب أبنائها، وقد خصص الشيخ ماء العينين لهذا الموضوع منظومته «إني مخاوي لجميع الطرق» وكتابه «مفيد الراوي على أني مخاوي». فالطرق بالنسبة إليه «وإن تعددت واختلفت فمرجعها كلها لأمر واحد هو الفناء في مشاهدة الله، والنظر إليه عن كل ما سواه»[12]، ولذلك عمل على توحيدها وصهرها في بوتقة روحيه واحدة.

إني مخاوي لجميع الطرق — أخوة الإيمان عند المتقي
ولا افرق بين الأولياء — كمن يفرق بين الأنبياء
قال تعالى: المومنون إخوة — وعدم التفريق فيه أسوة[13].

وترجع وحدة الطرق حسب المنظومة الفكرية المعينية، إلى طبيعة تكوين البشرية، وما جبلت عليه في أصل نشأتها من ميل إلى الاتحاد، ونفور من التمزق، فقد «خلق الله تعالى الأرواح من

عالم الملكوت والأشباح من عالم الملك، ونفخ فيها تلك الأرواح،أي أرواح الاتحاد والإئتلاف. وجعل بينهما النفوس الأمارة التي ليست من قبيل الأرواح، ولا من قبيل الأشباح، فأرسل عليها جند العقول ليدفع بها شرها، وهي العقول المجردة الأخروية، وإلا فالعقول الغريزية والدنيوية لا تقدرعلى الدفع، بل هي معينة للنفس، فإذا امتحن الله عباده المؤمنين هيج نفوسهم الأمارة ليظهر حقائق درجاتهم من الإيمان والأخوة، وأمرهم أن يعينوا العقل والروح والقلب على النفس حتى تنهزم، لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، فهم كنفس واحدة لأن مصادرهم مصدر واحد، وهو آدم عليه السلام...»[14].

فالاتحاد حسب هذا القول جوهر متأصل في الذات البشرية، منحه الله لآدم عليه السلام، وأورثه ذريته الصالحة التي غلبت عقولها المجردة الأخروية النورانية على عقولها الغريزية الدنيوية. أما التفرقة فهي عنصر خسيس في الطبيعة البشرية، «لأنها لا تكون إلا من النفس الأمارة، أما الروح فلا ينظر في التفرقة أصلا»[15].

هذا الأصل الطبيعي للائتلاف والاختلاف في الذات البشرية، هو الأصل في دعوة الإسلام إلى وحدة الأمة الاسلامية، ونهيه عن التمزق والتشرذم، وينتج عنه أن الاتحاد إيمان وصلاح، وأن الاختلاف كفر وفساد[16].

وينطلق الشيخ ماء العينين في هذا الأساس الوحدوي الذي بنى عليه طريقته من روح الإسلام الوحدوية،ا لتي تستهدف توحيد الجماعة الإسلامية، ومن الواقع الاجتماعي والديني والسياسي

للمغرب في نهاية القرن التاسع عشر. ففي هذه الفترة، وبينما كانت القوات الاستعمارية تحاصر المغرب من جميع الجهات، وتتحين الفرصة للانقضاض عليه، كانت الصراعات القبلية تمزق كيانه الداخلي، وكان على الطرق الصوفية أن تضطلع بدورها التاريخي المعهود، وتواصل رسالة عبد الله بن ياسين والمهدي بن تومرت والشرفاء السعديين والعلويين، وتعمل على تعبئة الجماهير وإصلاح ذات البين بينها، وتهييئها للدفاع عن البلاد، غير أن معظمها كان يتغافل عن هذا الواقع المأساوي، ويتجاهل ما يهدد المغرب من أخطار، ولا يهتم إلا بجمع الصدقات والهبات، ونشر البدع والاعتقادات السائجة والسلوكات التواكلية المثبطة للعزائم، فصار هذا الأمر يتطلب المعالجة، فبادر الشيخ ماء العينين إلى إصلاحه بما صلح به أوله، فبنى طريقته على أساس التوحيد والتربية التي تقوم على التخلي عن الشقاق والنزاع والتواكل والتحلي بالإيمان والصبر. وغيرها من المبادئ الوحدوية التي تسمو بالانسان وترفعه إلى مقام الكمال.

وقد تمكن بفضل هذه المبادئ الوحدوية التي بنى عليها طريقته من توحيد القبائل الصحراوية، وتعبئتها لمواجهة المستعمر، وقيادتها لصد الأطماع الأجنبية التي كانت تهدد وحدة المغرب لمدة طويلة[17].

2 – **الفقه** : ويسير في اتجاهه العام في نفس الخط الوحدوي الذي تسير فيه باقي مكونات الثقافة المعينية، ويظهر ذلك في مختلف الأحكام والقضايا التي عالجها الشيخ ماء العينين في أعماله الفقهية المختلفة «كتبيان الحق الذي للباطل سحق» و«دليل الرفاق

على شمس الإتفاق » و« كتاب الصلاة في فضائل بعض الصلوات » و« أحكام الضيافة » و« مزيل العتب عمن طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسب » وغيرها[18].

ففي كتاب « دليل الرفاق على شمس الإتفاق » – وهو أبرز عمل فقهي وحدوي معيني – يعرض الشيخ ما ء العينين آراءه الوحدوية في المؤاخاة بين جميع الاتجاهات الفقهية والمساواة بين سائر المدارس التشريعية الإسلامية. فالشريعة المطهرة بالنسبة إليه (كما في الميزان لاخلاف فيها البتة، بل إنما نزلت على مرتبتين، لكل مرتبة قوم من الفريقين، مرتبة كأنها مشددة هي للأقوياء، وأخرى كأنها مخففة للضعفاء يكلفون بالصعود خارجا عن إحدى الحالتين »[19].

فما يبدو من خلافات فقهية في الشريعة الإسلامية – حسب رأي الشيخ ماء العينين، في هذا القول الذي يستند فيه إلى الميزان الكبرى للشعراني – لا يعود بالأساس إلى طبيعة هذه الشريعة، وإنما هو مظهر من مظاهر مرونتها ومراعاتها لأحوال الناس واستعداداتهم الفطرية.

ولا يقنع الشيخ ماء العينين بهذه الإشارة الموجزة، ولكن يفسح المجال للإمام الشعراني ليوضح هذه الفكرة، ويعرض جزئياتها وجوانبها العامة، فيسهب في بسط جوانبها في أكثر من أربع صفحات، فيرى (أن الشريعة جاءت عامة وليس مذهب أولى بها من مذهب، فمن ادعى تخصيصها بما ذهب إليه إمامه من المقلدين، فقد أتى بابا من الكبائر)[20].

وبعد حسم الشعراني في هذه المسألة، وإدانته لمن يخصص الشريعة الإسلامية، وتكفيره لمن يفتح باب الخلاف فيها، يقترح على

عامة المسلمين «ميزانه الكبرى» لقياس ما يمكن أن يعترضهم من مسائل فقهية، وتجنب الخلافات وتجاوز الشقاقات المذهبية. فمن خاف تعارض أدلة الشريعة - حسب رأيه - فليرجعها كلها إلى مرتبتين: عزيمة ورخصة، يرتفع عنده التعارض والخلاف، لأنها لا تخرج عن هاتين المرتبتين[21].

وفي النهاية يستنتج الشعراني، على لسان الشيخ ماء العينين، «أن مجموع المذاهب هي بعينها الشريعة، ومن لم يدخل لفهم الشريعة من هذا الباب نقص علمه بها، وفاته خير كثير»[22].

ولا تنحصر وحدوية الفقه المعيني في هذا الجانب النظري من كتاب «دليل الرفاق»، ولكنها تميز سائر الأعمال الفقهية المعينية التي تنظم علاقة الانسان بربه، وعلاقته بأخيه الانسان. فجل الأحكام الفقهية التي تنظم علاقة الانسان بربه، من صلاة وصوم وحج وزكاة، ترمي في مجملها إلى خلق مجتمع سليم يتساوى فيه المؤمنون، وتتكافأ فيه قناعاتهم الاعتقادية.

فالطهارة بالنسبة للشيخ ماء العينين ليست مجرد نظافة حسية، ولكنها نظافة معنوية أيضا[23]، والصلاة ليست مجرد سجود وركوع، ولكنها تؤدي دورا كبيرا في تطهير الفرد المسلم والسمو به عن الشرور والآثام، والارتفاع به إلى مستوى عال من الصفاء.

ومعظم الأعمال الفقهية التي تتناول علاقة الانسان بأخيه الانسان تؤكد على ضرورة التكافل والتعاون بين أعضاء الجماعة الاسلامية. ففي كتاب «جامع المهم من أسرار النكاح الملتئم»، يستعرض الشيخ ماء العينين أصناف النساء، وما يلائم كل صنف

منها من الرجال، فيكشف عن بعض الأسرار الخفية التي تؤدي إلى سعادة أو تعاسة الحياة الإجتماعية في بعض الأسر(24). وفي الجواب المسمى «مزيل العتب عمن طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسب» يحتكم إلى القاعدة الفقهية المشهورة «درء المفاسد مقدم على جلب المنافع» فيقرر استنادا إلى هذه القاعدة أن «من كان لها تعيير في قول أو فعل بين أمثالها، يجعل لها التطليق لنفسها، ولا كلام لزوجها ولا لوليها فيه...»[25] وفي كتابه «مزيلة النكد عمن لا يحب الحسد» يذم كل المفاسد التي تخرب العلاقات الاجتماعية وتعرض المجتمعات الى التفكك والدمار، ويشيد بالفضائل التي تخدم الوحدة وتشيد بنيانها كالتواضع وفعل الخير وحب الناس وغيرها من أعمال الخير التي تعمق الروابط الاجتماعية وتقوي التماسك بين أفراد المجتمع[26].

الجانب الثاني : ويتمثل في المواقف السياسية التي اتخذها الشيخ ماء العينين من بعض القضايا الوطنية والاسلامية. وخاصة قضية سيادة المغرب في أراضيه الصحراوية، فلم تكن الحركة المعينية حركة انعزالية تقام فيها الطقوس، وتوزع فيها الاوراد والأذكار على الفقراء والمريدين وتجتمع فيها القبائل حول الموائد لدفن همومها وتناسي خلافاتها الاقليمية، ولكنها كانت حركة سياسية ذات مشروع متكامل، يبدأ في الدين، وينتهي بالسياسة. وهي بهذا القانون الذي يحكم صيرورة مشروعها، لا تخرج عن القانون العام الذي يضبط تطور الزوايا التي سبقتها. فجل الحركات الدينية التي برزت في تاريخ المغرب قبلها، اتبعت هذا المسار في تطورها، «زاوية، فقيام اتحاد وتحالف قبائل، فتأسيس نواة للسلطة»[27].

فعبد الله بن ياسين بدأ في رباط منعزل، وتبلورت حركته في بناء حاضرة مراكش، والمهدي بن تومرت بدأ بمحاربة البدع وتكسير آلات الموسيقى، وانتهى إلى استلام السلطة السياسية من أيدي المرابطين. وأبو بكر الدلائي بدأ بنشر الطريقة الشاذلية، وانتهى حفيده إلى تأسيس مدينة الدلاء. غير أن خصوصيات المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها الحركة المعينية، ومميزات شخصية مؤسسها البارزة، جعلها تختلف عن غيرها من الزوايا التي سبقتها أو عاصرتها. فحضور السلطة المركزية في مجموع الأقاليم المغربية، وغيرتها الدينية والوطنية، جعلت الشيخ ماء العينين يضع يده في يدها، ويتعاون معها على تنفيذ مشروعها الوطني. فكان بذلك خليفة السلاطين العلويين في المنطقة الخلفية من الجنوب المغربي، ووكيلهم في السهر على ترتيب شؤونها، يمثلهم لدى سكانها وينقل أوامرهم وقراراتهم إلى قبائلها[28].

ومن أبرز مظاهر وحدوية الحركة المعينية في هذا الجانب مايلي:

أولا : ارتباط الشيخ ماء العينين بملوك المغرب ووفاؤه لما في عنقه لهم من التزامات وعهود. فقد ظل طيلة نصف قرن يتردد عليهم لتجديد البيعة والتشاور معهم في مختلف القضايا التي تهم الوطن. «فوفد على مولاي عبد الرحمان سنة 1274 هـ/1857 م، في طريقه إلى الحج، فمولاي محمد بن عبد الرحمن ، فمولاي الحسن، فمولاي عبد الحفيظ أخيرا. فكان يصدر عن تجلة عظيمة وإكرام لا نهاية له، خصوصا في الدولة العزيزية أيام الوزير أحمد بن موسى، فكانت الدولة تهتز متى ورد على المغرب»[29].

وقد بلغت زياراته لهم أربع عشرة زيارة منها: ثمان زيارات تمت في مراكش وزيارتان في مكناس وثلاث زيارات في فاس.

ومن الصور الحية التي ينقلها الشيخ مربيه ربه عن هذه الزيارات قوله في أول زياراته لفاس سنة 1320 هـ 1902 م: «ثم وفد على السلطان مولاي عبد العزيز عام عشرين بفاس، ولم ير شيخنا رضي الله عنه فاسا قبل ذلك، وكان يوم دخوله يوما مشهودا على العادة مما يفعل السلطان من إخراج العساكر والطبول والبنود وآلات الأفراح ووجوه الدولة وأبهة الملك، فكان اجتماعا ضخما واحتفالا شيقا، حتى أنه خرج من العلماء والصلحاء والشرفاء وأرباب المناصب والتجار وعامة الناس وخاصتهم. مالم يخرج من عاصمة فاس قبل ذلك اليوم، والمدة التي لبثنا ثمة قلما فات يوم منها إلا وإذا بطائفة تريد الزيارة من شيخنا (ض) ما بين شاعر يمدحه لله، أو ملتمس بركته، أو طالب وردا أو مصحح لحكم، أو مبتغي إجازة، أو ميمم حاجة كشفاعة، أو حامل هدية، إلى غير ذلك من جميع المسالك...»[30].

وتزخر الخزانة المغربية بوثائق مهمة تؤكد هذا الجانب في الحركة المعينية، نكتفي منها بإيراد ثلاث وثائق رسمية منها:

1 – ظهير حسني يرتب بمقتضاه السلطان مولاي الحسن راتبا شهريا للشيخ ماء العينين بتاريخ 5 شعبان 1304 هـ موافق 29 أبريل 1887 م[31].

2 – رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى الشيخ ماء العينين يخبره فيها بتتبعه لتطور الأحداث السياسية والدينية والثقافية في الصحراء المغربية[32].

3 – رسالة من الشيخ ماء العينين إلى الوزير أحمد بن موسى يطلعه فيها بتأهب الفرنسيين لغزو المنطقة الجنوبية، ومساوماتهم

له للدخول تحت طاعتهم. ورفضه لهذه المساومات، وتأكيده ولاءه وطاعته للملوك العلويين[33].

فإذا كان البحث التاريخي المعاصريعتد بالوثيقة، ولا شيء عنده غير الوثيقة، وما عدا الوثيقة بالنسبة إليه فهو إنشاء، فإن هذه الوثائق الثلاث وغيرها كثير، تعبر بوضوح عن ولاء الشيخ ماء العينين للملوك العلويين، واعتماد هؤلاء الملوك عليه في تبليغ رسالتهم الثقافية والدينية والسياسية إلى رعاياهم من الأقاليم الصحراوية[34].

ثانيا : تنظيم التجمعات الوحدوية داخل الصحراء وخارجها لمواجهة التحديات الأجنبية التي تهدد وحدة المغرب الترابية. فقد قاد عدة تجمعات في مراكش وفاس والصحراء لإيقاف المد الاستعماري في الجنوب المغربي، منها تجمع السمارة سنة 1906 الذي حضره وفد من الحكومة المغربية يتألف من عم السلطان وخليفته في الصحراء مولاي ادريس ووزيره سيدي المدني وكاتبه الغرفي ومحمد بن يعيش، وفي هذا التجمع أشرف على تسليم ظهائر التسمية لأربعة عشر قائدا من قواد الصحراء(35). و500 بندقية. وبعد هذا التجمع بسنتين ترأس تجمعا وحدويا آخر في السمارة أيضا للنظر في استفحال أمر النصارى بالصحراء بعد عودة عم السلطان واستيلاء فرنسا على تكانت. وقد حضر هذا التجمع عدد من أعيان القبائل الصحراوية وعلمائها، منهم أحمد بن سيدي وسيدي أحمد بن هيب من أرض شمام، وسيدي المختار بن الشيخ القاضي من قبيلة إجيجب، وسيدي بن فال بن محمد لحبيب وأخوه ابن الديد من أرض القبلة والشيخ سيدي بن الشيخ أحمد بن سليمان من قبيلة أبناء ديمان وغيرهم من الشيوخ والعلماء[36].

ومنها أيضا تجمع مراكش سنة 1327 هـ/1907 الذي حضره أهل الحل والعقد في الصحراء لتجديد البيعة للسلطان مولاي عبد الحفيظ وطلب المزيد من العدة لرد المستعمر عن البلاد[37]. وفي هذا التجمع ألقيت مجموعة من القصائد الشعرية في مدح السلطان مولاي عبد الحفيظ والشيخ ماء العينين والاشادة بطموحاتهما الوحدوية من أبرزها قصيدة الأمين ابن محمد المختار بن اليدال الديماني التي يقول في مطلعها:

ألا فــإلى م اللهــو أنت غــالط عن النهج من صوب الهدى أم مغالط

وبعد هذه المقدمة التي يصف فيها أحوال الصحراء وتكالب المستعمر على أبنائها، وبعد الاشادة بالسلطان مولاي عبد الحفيظ والشيخ ماء العينين ينتقل إلى استعراض أسماء القبائل الصحراوية التي حضرت هذا التجمع :

فدا لأمير المومنين نفوسنا وأموالنا أولادنا والأسابط
أعالي الذرى أتوك من كل أمة قبائل مالهن أخالط
وماليط بالسبطين من علوية ومن آل بوحبين ركبا أراهط
وكالوفد منال الأشبح وناقص وأبناء شمس الدين حيث المراسط
ومن آل عبد الله محمود والذي من أحمد من دامان في العقد واسط
وللجكني الوفد من خير فتية ومنا بني ديمان في الركب فارط
وهاميها صابيها ومسومها ولمثونها أقلالها والزوافط

....

تدارك بهم ما من عليهم سلبنه خيول الاعادي والسنون القواحط
وأرسل جموعات الجيوش وراءهم مرابط خيل بعدهن مرابط[38]

ثالثا: تنظيم المقاومة المسلحة للدفاع عن وحدة المغرب الترابية.

بعد نجاح الشيخ ماء العينين في تكوين قاعدة اجتماعية صلبة داخل الصحراء، انتقل إلى تنفيذ الجزء الأهم من مشروعه السياسي الوحدوي، فقاد مجموعة من العمليات العسكرية للقضاء على الوجود الأجنبي في الجنوب المغربي، منها:

1 – الهجوم على حصن ما كنزي بطرفاية للقضاء على الوجود الانجليزي في المنطقة، فقد شدد ضرباته على هذا الحصن مباشرة بعد إنشائه بسنتين، فتمكن بفضل حماس أتباعه ومريديه، ودعم السلطان مولاي الحسن من تخريبه وإرغام الانجليز على التخلي عنه للحكومة المغربية سنة 1895، مقابل تعويض مادي عما صرفته شركة الشمال الغربي الافريقي من أموال في بنائه[39].

2 – الهجوم على الداخلة ابتداء من سنة 1884، وتخريب ما أقامه الاسبان من منشآت على شاطئ هذه المدينة. وقد ألف في هذا الموضوع كتابه «هداية من حارا في أمر النصارى» في الرد على ولد عايدة الذي طالبه الشيخ ماء العينين. برد ماغنمه مريدوه في هذا الهجوم بحكم ماله من علاقات مع الاسبان[40].

3 – الهجوم على القوات الفرنسية في شنقيط وانتصاره عليها في عدد من المواقع مثل تجحكة ودامان والمينان وتكانت وغيرها من المعارك التي أقلقت الأجهزة الاستعمارية وأظهرت كفاءة المجاهدين المغاربة في الصحراء.

رابعا : الاشادة بالوحدة الإسلامية، لم يكن الشيخ ماء العينين يصدر في حركته الوحدوية عن نزعة إقليمية ضيقة، ولكنه كان يرمي إلى تحقيق غاية أبعد، ومشروع أوسع يشمل الوطن برمته والأمة الإسلامية بكاملها، ويظهر ذلك من خلال تنويهه بالخلفاء العثمانيين وإشادته بفضلهم على المسلمين، فهم في رأيه «زبدة الملوك، ودولتهم زبدة الدول، حيث لا دولة بعدها لغيرهم إلى ظهور المهدى وعيسى، ويقاتلون من هم مبادي الرجال والكفرة الفجرة، من الافرنج والانكروس وغيرهم، ولهم الجمعية الكبرى واليد

الطولى والدولة العظمى في الأقاليم السبعة وأطراف البلاد في المغرب والمشرق، ولم يعط هذا لواحد قبل دولتهم... »[41].

فليس هذا التنويه شعورا فرديا نابعا من إعجاب شخصي بهؤلاء الملوك، ولكنه يرتبط بالأسس الوحدوية الشاملة للحركة المعينية وبالمشروع الوطني الذي وضعه ملوك الدولة العلوية لمواجهة الخطر الأجنبي، ومع القرارات السياسية التي اتخذتها الحكومة المغربية للدفاع عن سيادة المغرب وحماية حوزته الترابية. «ففي سنة 1880، وبعد مؤتمر مدريد، بعث السلطان مولاي الحسن الأول سفيرا له إلى اسطمبول، وفي سنة 1886، تلقى اقتراحا من وزير الخارجية العثماني محمد سيد باشا بفتح سفارة تركية بطنجة »[42].

وقد خلفت الجوانب الوحدوية في هذه الحركة أصداء طيبة في نفوس المغاربة، فعبروا عن إعجابهم بها ومباركتهم لها بأشكال مختلفة منها:

1- الاشادة بالشيخ ماء العينين والتنويه بخصاله الحميدة وأعماله الجليلة. فقد استقطب هذا الشيخ بمواقفه الوحدوية اهتمام كثير من العلماء والأدباء في المشرق والمغرب، فخلدوا مآثره في قصائدهم وأشادوا بمنجزاته في دواوينهم وأشعارهم، فاجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الأمداح، حتى صار ذكره جاريا على كل لسان، وصيته مستوطنا في كل مكان حسب تعبير ماء العينين بن الطالب ابراهيم :

فكأنه من صيته مستوطن   من سائر الأقطار كل مكان[43]

فمدحه إخوته وأبناؤه ومريدوه من مختلف القبائل الصحراوية، وتغنى بأمجاده ملوك الدولة العلوية، ونشر محاسنه شعراء سائر الأقاليم المغربية، وتردد صدى منجزاته في قصائد كثير من الشعراء المشارقة.

وقد حاول بعض مريديه أن يحصروا هذه الأمداح، فأقروا بالعجز عن حصرها واستقصائها، ومع ذلك فقد جمعوا منها دواوين كثيرة منها «ديوان الأبحر المعينية في الأمداح المعينية» للشيخ النعمة في مجلدين يحتويان على أشعار مختلفة لخمس مائة وعشرين شاعرا، وديوان في مدح الشيخ ماء العينين أيضا لمؤلف مجهول[44]، يضم قصائد متنوعة لواحد وثمانين شاعرا، وديوان في نفس الموضوع يتوسط كتاب «سحر البيان في شمائل شيخنا الشيخ ماء العينين الحسان» لابن العتيق، يحتوي على قصائد مطولة لواحد وأربعين شاعرا. إلى غير ذلك من الأمداح التي تتضمنها بعض المؤلفات المحجورة كه«مجمع البحرين في كرامات شيخنا الشيخ ماء العينين» للشيخ محمد العاقب بن مايابا، وقرة العينين في كرامات الشيخ ماء العينين للشيخ مربيه ربه و«كبور البدائع المحتوية على درر الأشعار المصطفوية» وغيرها من المؤلفات التي اهتم أصحابها بجمع الأمداح المعينية[45].

وقد أكد جل الذين مدحوا الشيخ ماء العينين على الجانب الوحدوي في حركته، فهو أمل الوحدة الإسلامية وضياؤها كما يصفه السلطان مولاي عبد الحفيظ في قصيدته الترحيبية خلال زيارته له سنة 1325 هـ/1907 بمراكش :

أيا قمر الدهر الذي تم نوره ... ويا كعبة يحجها كل مقتدي
أضاءت بك الأرجاء حتى تلألأت ... وأضحت تهني في الورى كل مقتدي
وزاد سرورا في الخليقة وافرا ... طلوع محياكم بهالة مقعد
فأهلا وسهلا مرحبا ثم مرحبا ... بطالع سعد في الخلائق مسعد
بؤمل جمع المسلمين قدومكم ... كما لا ليشراهم بوفر مسدد
أنا لك رب العرش كل فضيلة ... وأقعدك الرحمان في أي مقعد[46]

وفاس تهتز لحلوله بها، وإشراق شمسه على أهلها، يقول عبد الواحد الفاسي في قصيدته التي يرحب به فيها خلال قدومه على السلطان مولاي عبد العزيز سنة 1324 هـ/1906:

أهذا بروز البدر في المحفل الأغر ... ينادي أهل من مبصر طلعة القمر
أم المسك قد فاحت عواطر نشره ... وهب شذى الأزهار من دوحة الظفر
أم الجوهر المكنون قد فاض بحره ... بفاس متى حَلّ الهمام انبهر
فـفاس قد تاهت بيمن قدومه ... إذا المسك منها فاح والعنبر والزهر
لذاك أمير المومنين بك احتفى ... وأعلم بالإجلال في البدو والحضر[47]

2 – طبع معظم أعماله العلمية والأدبية وتقريظها بما تستحقه من إكبار وإجلال. فقد تولى ملوك الدولة العلوية طبع عدد كبير من أعماله في مطابع فاس التاريخية، واهتموا بقراءتها وتزويد خزاناتهم بها، كما قرظها معظم علماء المغرب وأدبائه نظما ونثرا، منهم السلطان مولاي عبد الحفيظ وعبد الرحمان بن جعفر الكتاني، وسيدي أحمد بن صابر البوعزاوي وسيدي ابراهيم بن سيدي محمد الجدميوي، ومحمد بن الطالب بن عثمان بن سودة المري وأحمد بن عبد المولى اليملاحي، وعبد السلام بن سيدي علال الفهري الفاسي وعبد الله القباج وغيرهم[48].

3– طلب الاجازات العلمية والفوائد النورانية والفتاوي الفقهية، وإعطاؤها لعدد كبير من العلماء ورجال الدولة المغربية، منها إجازة الشيخ ماء العينين للسلطان مولاي عبد الحفيظ[49]، وإجازته

لباشا سلا الحاج محمد بن الطيب الصبيحي[50]، وفوائده للوزير أحمد بن موسى وفوائده للحاج ابن يعيش[51]، وأجوبة مريده الشيخ أحمد الشمس مقدم زاويته بفاس لبعض علماء هذه المدينة مثل محمد بن عبد الواحد الإدريسي العالم الصوفي بزاوية زرهون، والفقيه سيدي المهدي الوزاني في مسألة تعجيل المعينيين لصلاة العشاء قبل الوقت بالمعهود لها عند الكافة، وتعجيلهم لصلاة الجمعة، وغيرها من القضايا الفقهية التي أودعها كتابه «النفحة الأحمدية»[52].

4 – رحلة عدد كبير من أبناء الأقاليم الشمالية إلى الصحراء لأغراض علمية وسياسية. فبعد استقرار الشيخ ماء العينين بالساقية الحمراء، شد عدد كبير من المغاربة في الشمال الرحال إلى مدرسته للتزود من علمي الظاهر والباطن، منهم الضوء السباعي البقاري المتوفى سنة 1326 هـ وابن عمه الدرباكي الذي سافر إلى تيرس ومكث بها ما يزيد على شهرين ورجع إلى أهله في بلاد الحوز، والقاضي سيدي التهامي المكناسي الذي حمل إلى الشيخ عددا من هدايا أحبته في الحوز منها كتاب المكودي بخط يده، وابن عمه سيدي أحمد بن بوفريو السباعي البقاري، وسيدي محمد بن عبد الله المشهور بابن عبُّ، وسيدي محمد الضوء بن عبد الكريم المومني، وعلال الحمري الذي قدم عليه من بلاد أحمر وأهدى له ما يملكه من غنم وغيرهم من المريدين الذين سالت أباطح الصحراء بأعناق مطيهم لرؤية الشيخ ماء العينين والتزود بعلمه[53].

ومن أبرز الرحلات الوحدوية التي قام بها أبناء الأقاليم الشمالية إلى مضارب الشيخ ماء العينين بالصحراء تلكم الرحلة

التي قامت بها البعثة المغربية التي توجهت إلى طرفاية لاستلامها من الانجليز في 3 من يوليوز 1895 /10 محرم 1313 هـ «فخلال مقام هذه البعثة بطرفاية وجه إليها الشيخ ماء العينين ابنه محمد سيداتي وصهره الأمجد وحفيده المحفوظ يبلغها تهنئة قبيلته وأتباع طريقته بالنجاح الذي كللت به مساعي أبيه من قبله وما سعى إليه السلطان مولاي عبد العزيز، واغتنم الوفد الفرصة، فوجه الدعوة إلى البعثة السلطانية للوصول إلى الشيخ ماء العينين وزيارته في قلب الصحراء، فسافرت البعثة على ظهور الرواحل وسارت حتى بلغت مضارب خيامه بذي النبط من الساقية الحمراء يوم الجمعة 26 يوليوز 1895 /3 صفر 1313، وحضروا يوما صلاة العصر معه، فلما فرغوا منها قام الشاعر ابراهيم بن محمد البواري من تلاميذ الشيخ فأنشد حول زرب المسجد مرحبا بهم:

أهلا بهم من خمسة أعلام	بل خمسة كقواعد الاسلام
رسل الأمير ابن الأمير إمامنا	عبد العزيز بن العزيز الامام
من خصه المولى بأعلا رتبة	تلك الخلافة رحمة الانام
لازال مخصوصا بكل فضيلة	اذ خصنا بأئمة الاقوام
ولأنتم من عند شيخ فاضل	ماء العيون المصطفى بمقام

وبعدما أقاموا ضيوفا في مضارب الشيخ ماء العينين مدة أسبوعين عادوا إلى طرفاية يوم 17 صفر على غير الطريق الذي أتوا منه[54]» هذه بعض المظاهر الوحدوية في حركة الشيخ ماء العينين، حاولنا استعراضها باختصار شديد، لأن المقام لا يسمح باستقصائها وحصر مختلف جوانبها، وذلك لغناها وتعددها وامتدادها في الزمان والمكان.

وحسبنا إثارة الانتباه إليها وكشف الحجاب عنها، لتأخذ حجمها الحقيقي وتوظف في خدمة قضيتنا الوطنية إلى جانب ما يحفل به ملف هذه القضية من ظهائر ورسائل وتقارير، وإن كان هذا التنبيه وحده غير كاف لتحقيق ما نأمله من انتصارات، لأن المعركة الثقافية لا يمكن أن تتوج بالنجاح اعتمادا على الآمال وحدها، بل لابد من توفر الأدوات اللازمة لهذه المعركة لمواجهة الخصوم ودحض أكاذيبهم ومغالطاتهم من رسائل وأعمال أدبية وعلمية ودراسات حول ثقافة الصحراء وأدبائها، مثل أعمال استاذنا الدكتور عباس الجراري الرائدة في هذا المجال، وغيرها من الأعمال التي يمكن أن تعزز قضينا الوطنية وتقف في صف واحد مع جنودنا البواسل الذين يواجهون العدو بإيمان قوي وعزم راسخ.

*****

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده

يعرف بعون الله وقوته ومنته من أمرنا هذا للشيخ الجليل الخير البركة
ماء العينين أننا أنعمنا عليه بـ [illegible] ريالا في الشهر إعانة له على ما هو بصدده
من بث العلم الشريف ونشره [illegible] من أمنائنا بمرسى الصويرة المحروسة
بالله [illegible] في كل شهر والسلام في 5 شعبان
عام 1304

[illegible]

الوثيقة رقم 1

ظهير حسني يرتب به السلطان مولاي الحسن الأول أجرة شهرية للشيخ ماء العينين 5 شعبان 1314 هـ/29 أبريل 1887 م.

أنظر : ـ الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 82.

محمد الظريف. رسالة جامعية مرقونة بخزانة كلية الآداب، الرباط

الحمد لله

محبنا الارضى المرابط الخير الشيخ ماء العينين
وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى
وبركاته وبعد فقد وصل كتابك بلفه الشجرة
التي بالكعبة (?) كتبت من [illegible] كتابه
التي جعلت مع النسخة التي اعطيته [illegible]
واشترت بسبب ما يكون عليه عملك معه
وبالجملة فلا نعلم عليكم بزاوية [illegible]
وبنيتموها فلا اعتراض عليها وعلمنا ما ذكرتم
من انك انتسخت [illegible] الكتب التي بعثت
وجهت لنا نسخة منه وصار بالبال
انما ما اجبت به الشجرة عملا لتسببه لا يسوغ
ما ينبغي ان يجاب به عن ذلك وانما
ما يكون عليه عملك معه [illegible]
بكتاب من الشريعة [illegible]
واما الزاوية [illegible]
[illegible] تجعلها به كما ارسلنا
خدامنا مولاي عثمان والحاج [illegible]
بان [illegible] اربعة ازواج
[illegible]
[illegible] وفي 12 شعبان
عام 1306

واما النسخة من [illegible]
[illegible]
[illegible]

الوثيقة رقم 2 :

رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى الشيخ ماء العينين، 12 شعبان 1306 هـ - 1889 م.
أنظر : الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 83.

الوثيقة رقم 3

رسالة من الشيخ ماء العينين إلى الوزير أحمد بن موسى 7 محرم 1318 هـ/7-5-1900م.

أنظر : السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية خلال الوثائق المخزنية، محمد بن عزوز حكيم، ص 188.

أنظر كذلك : الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 98.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

ومن خط شيخنا الشيخ ماء العينين

رضي الله عنه ونفعنا به آمين

[illegible] الذنوب [illegible] من جميع المسلمين أما بعد فإن الكتاب

المسمى [illegible] قد طلب مني مولاي عبد

الحفيظ بن مولاي الحسن نور الله ضريحه [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] والسلام

عبد ربه ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين

عفا الله عنه وعن المسلمين [illegible] عام 1322

الوثيقة رقم 4

إجازة الشيخ ماء العينين للسلطان مولاي عبد الحفيظ. 11 جمادى الأولى عام 1322 هـ/1904 م.
أنظر : الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين. ص 120. محمد الظريف، رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا. اشراف الدكتور عباس الجراري 1986. مرقونة بخزانة كلية الآداب، الرباط.

الوثيقة رقم 5

إجازة الشيخ ماء العينين للباشا محمد الصبيحي، جمادى الأولى ـ عام 1324 هـ/1905 م.
الخزانة الصبيحية، سلا.
أنظر : الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، محمد الظريف، ص : 122.

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

[illegible]

الوثيقة رقم 6

إستجازة الصبيحي للشيخ ماء العينين 16 جمادى الأولى - عام 1324 هـ/1905 .
الخزانة الصبيحية، سلا.
أنظر : الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص ، 121.

الهوامش :

(1) الفكر والوحدة. الدكتور عباس الجراري، ص 146.
(2) وحدة المغرب المذهبية، ص 31. الدكتور عباس الجراري.
(3) الطريقة الفاضلية. بول مارتي. مجلة العالم الاسلامي ص 143، 1915.
(4) ماء العينين القلقمي. برادفور مجلة الأفارقة ص 180، 1977.
(5) ماء العينين القلقمي،برادفور ، الأفارقة، ص 187، 1977.
(6) ثقافة الصحراء، الدكتور عباس الجراري، ص 61.
(7) منيل المآرب على الحمد من كفاء الواجب الشيخ ماء العينين ص 82.
(8) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، محمد الظريف، ص 204.
(9) الايضاح لبعض الاصطلاح، الشيخ ماء العينين، ص 7.
(10) ينسب هذا القول إلى الامام مالك كما جاء في كتاب النفحة الأحمدية للشيخ أحمد الشمس مريد الشيخ ماء العينين ص 138.
(11) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 204.
(12) نعت البدايات، الشيخ ماء العينين، ص 11.
(13) مفيد الراوي، ص 3.
(14) مفيد الراوي على أني مخاوي، الشيخ ماء العينين، ص 7.
(15) نفس المصدر السابق، ص 7.
(16) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 224.
(17) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 65.
(18) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين من ص 287 إلى 291.
(19) دليل الرفاق على شمس الاتفاق. الشيخ ماء العينين، ص 3.
(20) دليل الرفاق على شمس الاتفاق. الشيخ ماء العينين، ص 3.
(21) نفس المصدر السابق، ص 2-3.
(22) نفسه، ص 5.
(23) نفسه، ص 48. ج 1.
(24) جامع المهم من أسرار النكاح الملتئم، الشيخ ماء العينين، ورقة 132. ب خع الرباط. مخطوط د 1597.
(25) مزيل العتب عمن طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسب. الشيخ ماء العينين، ورقة 131، مخطوط مجموع.
(26) الحياة الأدبية في الزاوية المعينية، ص 304.
(27) الصحراء الغربية أو عقدة التجزئة في المغرب العربي، علي الشامي، ص 103.

(28) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 80.
(29) المعسول، المختار السوسي، ص 84. ج 4.
(30) قرة العينين في كرامات الشيخ ماء العينين، الشيخ مربيه ربه، ورقة 101، مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط.
(31) وثيقة رقم 1.
(32) وثيقة رقم 2.
(33) وثيقة رقم 3.
(34) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، محمد الظريف، ص 82.
(35) الجاش الربيط، الشيخ محمد الإمام، ص 23. كان تاريخ هذا التجمع في 7 ربيع الثاني 1323 هـ موافق 11 يونيو 1906.
(36) الجاش الربيط، الشيخ محمد الامام، ص 24.
(37) نفسه، ص 36.
(38) الأبحر المعينية في الأمداح المعينية 150 أ.
(39) حفريات صحراوية، عبد الوهاب بنمنصور، ص ٥.
(40) هداية من حارا في أمر النصارى، الشيخ ماء العينين، نسخة مخطوطة خع الرباط.
(41) مبصر المتشوف على منتخب التصوف، الشيخ ماء العينين ج II، ص 176.
(42) ماء العينين القلقمي، برادفور الافارقة، ص 176. 1967، مجلد 12. أقيم هذا المؤتمر للنظر في مسألة داء الحماية القنصلية بالمغرب وتقرر فيه سيادة السلطان على وحدة بلاده.
(43) الأبحر المعينية، الشيخ النعمة ج I، ورقة 4.
(44) الخزانة العامة، قسم المخطوطات، د 1609.
(45) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 401.
(46) الأبحر المعينية ورقة 195، ج I.
(47) نفسه، ورقة 146، ج I.
(48) يمكن الرجوع في هذا الكتاب إلى التقاريظ المطبوعة في ذيل مؤلفات الشيخ ماء العينين وكذا الأبحر المعينية.
(49) وثيقة رقم 4.
(50) وثيقة رقم 5.
(51) توجد هذه الفوائد في مجموع مخطوط بالخزانة العامة د 1597، ورقة 115 ب الرباط.
(52) الحياة الأدبية في الزاوية المعينية، ص 295.
(53) النفحة الأحمدية، الشيخ أحمد الشمس، ص 118، سحر البيان. ابن العتيق، ورقة 161.

الطباعة الحجرية بالمغرب وإشعاع الثقافة الصحراوية للشيخ ماء العينين

خالد بن الصغير(*)

تقدم الباحث فوزي عبد الرزاق العراقي الأصل ، الأمريكي الجنسية، بمناقشة أطروحة نال بها دكتوراه الدولة من جامعة هارفارد الأمريكية سنة 1990 ، في موضوع تحت عنوان :

The kingdom of the book: the history of printing as an agency of change in morocco between 1865 and 1912. Ph. D, 1990, boston university.

ونظرا لأهمية هذه الأطروحة الواقعة في حوالي أربعمائة صفحة، التي انفرد فيها صاحبها بتغطية شاملة وعميقة لموضوع على مستوى عال من الأهمية ، هو تاريخ الطباعة في المغرب ، قمت بترجمتها إلى العربية ، وهي الآن تحت الطبع ، وستصدر قريبا ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، في سلسلة نصوص وأعمال مترجمة تحت العنوان التالي :

مملكة الكتاب : تاريخ الطباعة في المغرب (1865 - 1912)

وقد خصص صاحب الكتاب حيزا هاما من فصله السابع بعنوان: «العلماء والطباعة»، لدراسة قضايا عديدة ، كانت من بينها علاقة الشيخ ماء العينين - كنموذج بارز للمثقف والعالم الصحراوي - بالمطبعةالحجرية التي كان المخزن قد تولى في بداية الأمر مباشرة

(*) أستاذ جامعي، المدرسة العليا للأساتذة، التقدم، الرباط.

تسيير شؤونها في فاس قبل أن تنتقل إلى أيادي الخواص . وقد ارتأينا اقتطاف هذا القسم الهام من الكتاب المشار إليه أعلاه ، وتقديمه إلى قراء المناهل في إطار عددها المخصص بكامله لملف الثقافة الصحراوية المغربية .

كانت التحولات التي أحدثتها الطباعة في حياة العلماء الذين كانوا أيضا يمارسون التأليف بمعناه الواسع ذات أهمية كبرى . ولنا في حياة ماء العينين (الذي توفي سنة 1910)[1] ونشاطاته المتعددة خير نموذج يمكننا من إعطاء صورة حقيقية عن مثل تلك التحولات .

الإسم الكامل لماء العينين هو: محمد مصطفى ابن محمد فاضل ابن مامين القلقمي، كانت ولادته سنة 1830 في أقصى جنوب موريتانيا بمنطقة الحوض[2]. وهو الإبن الثاني عشر من بين إخوته الثمانية والأربعين . وكان والده محمد فاضل متصوفا بما في الكلمة من معنى ، وكانت له الريادة داخل الطريقة القادرية بحكم نسبه الشريف . ونتيجة اتساع عدد مريديه ، تسمت الطريقة التي كان يتبعها باسمه ، وأصبحت تعرف بالطريقة الفاضلية . وحصل الأمر نفسه مع ابنه ماء العينين الذي أصبحت طريقته تعرف بالمعينية[3].

ويبدو أن من الأمور التي تميز بها ماء العينين عن إخوته العديدين انفراده بالتوجه إلى فاس بغية استكمال التكوين وتحقيق المزيد من التحصيل[4] . لكن لا أحد يعرف - حتى الآن - متى حل ماء العينين بفاس ، ومن هم العلماء المغاربة الذين تتلمذ عليهم هناك . ثم إن المهتمين بدراسة حياة ماء العينين يفيدوننا

بأن الرجل قد التقى بالسلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام (1822– 1859) وخلفه من بعده سيدي محمد بن عبد الرحمن (1859 – 1873)، وذلك أثناء زياراته التي قام بها إلى المشرق لأداء فريضة الحج[5]. وهنا أيضا ، لا أحد يعلم بصفة مؤكدة الأسباب التي جعلت ماء العينين يبذل الجهود للالتقاء بالسلطانين ، ولا الأسباب التي جعلتهما يستقبلانه في لقاءات خاصة على أرض المغرب .

لكن لو صحت هذه المعلومات لأمكننا الميل إلى الظن أن لقاءات من ذلك القبيل ، وطبيعة العلاقات القائمة بين السلطانين وماء العينين ، قد كانت مفيدة لكلا الطرفين . والسبب في ذلك أن ماء العينين – كما تشير إلى ذلك كتاباته – كان زعيما صاعدا يشق طريقه ، ولديه حاجة ماسة إلى السند المادي والمعنوي ، دعما للمكانة الاجتماعية والدينية التي ورثها عن والده .

ومن المحتمل جدا أن يكون السلطانان بصدد تهييء ماء العينين لضمان الدفاع عن الأطراف الجنوبية للبلاد ضد محاولات الأوربيين التوسعية. ويعتبر ذلك صحيحا عن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن الذي خسر حرب تطوان ضد إسبانيا ، ووجد نفسه وقد ألزمته تلك الهزيمة بالتنازل لها عن محطة تجارية على السواحل الصحراوية[6]. وقد أدرك السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن القيمة العسكرية والسياسية لماء العينين ، بصفته مدافعا عن المغرب والإسلام في الصحراء . ولذلك فإنه قد عمل هو وكل السلاطين ورجال المخزن الذين أتوا من بعده على تذليل الصعاب وفتح الطريق أمام ماء العينين ليصبح أشهر رائد على المستوى الديني والفكري في البلاد .

أما الجانب الثاني الذي له دلالة خاصة لماء العينين في إطار علاقاته مع السلاطين المغاربة، فهو أنه قد نجح، إلى حدود سنة 1890، في إرساء قاعدة متينة لنفوذه ، ومكن نفسه من اكتساب شعبية كبيرة في الصحراء ، دون أن يعتمد في تحقيق ذلك على تكنولوجية الطباعة كعنصر مساعد[7]. ومن الأهمية بمكان معرفة الوسائل التي اعتمد عليها ماء العينين لإرساء نفوذه الديني في الصحراء ، لأنه كفيل بتقديم فكرة واضحة عن الأسس التي اعتمدها حتى جعل حركته تحتل المكانة السامية في عقول أتباعه في الصحراء وقلوبهم ، وفي الأوساط الدينية والسياسية داخل المغرب أيضا . كما أن معرفة تلك الوسائل ستمكننا أيضا من توضيح مدى قابلية الطباعة كأداة لنشر المعرفة وحفظها من الضياع .

يمكن الفحص الدقيق لكتابات ماء العينين وأنشطته المختلفة ، من رصد بعض العوامل المساهمة في النجاح الذي حققه هذا الرائد الديني والفكري في الأوساط الصحراوية . ومن هذه العوامل علاقاته الاجتماعية وصلاته الأسرية . فقد حظي ماء العينين إلى جانب المكانة السامية التي كان والده يحتلها بصفته زعيما دينيا معترفا به على نطاق واسع ، حظي بمساعدة إخوته السبعة والعشرين الذين بذلوا قصارى جهودهم لنشر نفوذه في ربوع الصحراء . ويعتقد أيضا أن ماء العينين اتخذ لنفسه أزيد من مائة زيجة[8]، وفقا للأسلوب الذي اتبعه النبي محمد عليه السلام . ويبدو أن الغاية من ذلك كانت توحيد القبائل الصحراوية العديدة، وجمع فصائلها المختلفة . وحسب النتائج التي توصل إليها الباحث محمد الظريف ، بعد الدراسة التي أنجزها في موضوع المعينية بالمغرب ، فإن عملية التوحيد تلك هي التي مكنت ماء

العينين من إخضاع القبائل الصحراوية لنفوذه ، والعمل بالتالي على كل ما من شأنه أن يصد الأوربيين عن الإقدام بأي مغامرة داخل المجال الصحراوي[9]. وبالفعل ، حينما حاول أحد شيوخ القبائل في منطقة أدرار الدخول في تسوية منفردة مع إسبانيا ، يسمح بموجبها للرعايا الإسبانيين بربط صلات تجارية مع المناطق الداخلية ، فإن ماء العينين لم يتردد في مهاجمة المحطة الإسبانية في منطقة أدرار[10]. كما وضع كتابا تحت عنوان : إرشاد الحيارى في أمر النصارى ، نصح فيه المسلمين بعدم وضع ثقتهم في المسيحيين ، بدعوى أنهم كلما تمكنوا من الدخول إلى بلد إسلامي سيطروا عليه وهيمنوا[11].

وكانت الأنشطة التعليمية والدينية هي العامل الثاني الذي ساهم في تمكين ماء العينين من تحقيق نجاحه في الصحراء . فقد استطاع ماء العينين – اعتمادا على ما حققه من نجاح في المضمار الإجتماعي ، وبفضل التعزيزات المادية التي لم يتوقف تدفقها من العاصمة مراكش[12] (ربما في نهاية السبعينيات أو عند مطلع الثمانينيات من القرن التاسع) – استطاع أن يقيم لنفسه مركزا دائما في السمارة[13]. وأنشأ هنالك خزانة كتب كبيرة، اكتفى بالاعتماد في تجهيزها على الإمكانات المحلية فقط . إذ كدست قرابة أربعة آلاف كتاب داخل مجموعة صناديق ، وضعت جميعها في خيمة كبيرة ، وأسند مهمة تدبير شؤونها إلى إحدى زوجاته[14]. ونتيجة لاطلاعه الواسع على مختلف العلوم الإسلامية ، وامتلاكه مجموعة خاصة من أمهات الكتب ، أصبح ماء العينين قبلة لجموع الطلبة الذين بدأوا يحجون إليه قادمين من مختلف أرجاء الصحراء . وكان أولئك الطلبة يحصلون خلال مدة إقامتهم

بالسمارة على السكن والطعام ، بالإضافة إلى تحصيلهم العلم وتدرجهم في مختلف المستويات التعليمية . وعندما يستكملون تكوينهم يعينون مساعدين للشيخ ماء العينين ، فيوزعون على المناطق الصحراوية كمدرسين يساهمون في نشر المعرفة بين سكانها ، أو كجواسيس يجمعون المعلومات عن تحركات الأوربيين الساعية إلى استكشاف خبايا المناطق الداخلية[15].

كان ماء العينين يقدم كل مستلزمات العيش من أكل وإيواء لأتباعه المقيمين معه في مخيمه بالسمارة ، والذين قدر عددهم بحوالي عشرة آلاف[16] . يضاف إلى ذلك بعض الخدمات الدينية ، على شكل تمائم وتعاويذ مكتوبة لأجلهم ، حماية لهم من المرض والفقر ، وتمكينا لهم بالتالي من التمتع بالرخاء والطمأنينة(17). وكان أتباع ماء العينين يرون في رائدهم قطبا حقيقيا ، ويعتقدون في قدراته الخارقة ، كمخاطبة الجن وكتابة الرسائل إلى أراض بعيدة لتأتيه منها القوافل محملة بالمؤونة والزاد . وكل هذه الأمور تعني شيئا واحدا في نظرنا، ألا وهو أن ماء العينين لم يكن بالفعل في حاجة إلى استعمال تكنولوجية الطباعة ، ولا إلى الكتب المطبوعة ، ليصبح أعلى سلطة حاكمة في الصحراء .

ولكن على الرغم من النجاح الذي حققه ماء العينين في ميدان التأليف ، إذ يعتقد أنه كتب أزيد من ثلاثمائة عنوان[18] فإن شهرته وكتاباته ظلت حبيسة الأوساط والجماعات الصحراوية إلى حدود سنة 1891 ، حين بدأت مؤلفاته تعرف رواجا في بقية أرجاء المغرب بفضل الطباعة . وكان على ماء العينين قضاء حوالي خمس وأربعين سنة في ممارسة أنشطته الدينية ، وتحرير المؤلفات

العلمية والتعليمية ، قبل أن تجد أعماله طريقها إلى فاس مركز الثقافة ، ومن ثم إلى بقية الحواضر المغربية . وفي الواقع ، لولا وجود الطباعة ، إلى جانب البيئة المناسبة التي ظهرت فيها تلك التكنولوجيا وقتئذ ، لما تمكنت كتابات ماء العينين من الوصول إلى الجمهور العريض من المغاربة ، ولكان الضياع مصير غالبيتها العظمى[19]. إلا أن كل مؤلفاته المطبوعة حوفظ عليها ، واتضحت أهميتها من حيث هي مصادر لا غنى عنها في تتبع الملابسات التي رافقت صعود نجمه وانتشار نفوذه ما بين 1891 و 1900 ، كزعيم ديني يحظى بشهرة واسعة ، وكواحد من كبار العلماء في المغرب .

حينما نفحص خواتم كتب ماء العينين المطبوعة فحصا دقيقا ومتأنيا ، نجد أن اسم أحمد بن موسى المعروف ببا احماد (والمتوفى سنة 1900) يرد فيها مرارا وتكرارا . ويستفاد منها أن هذا الشخص هو الذي أمر بطبعها ، وهو الذي تولى الإنفاق عليها في باديء الأمر[20]. ويمكننا البحث في العلاقة الموجودة بين ماء العينين وأحمد بن موسى ، من تسليط الأضواء على أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت ماء العينين والطباعة يكتسحان المغرب ، وينتشران بنجاح في مختلف أرجاء البلاد ، وذلك بدءا من سنة 1891 فما بعد.

كان أحمد بن موسى حاجبا للسلطان على عهد المولى الحسن (1873–1894) وإلى حدود سنة 1894 ، ثم أصبح صدرا أعظم في عهد السلطان المولى عبد العزيز (1894 – 1907) إلى حدود سنة 1900 تاريخ وفاته[21]. ومن القضايا المهمة بصدد شخصية بن موسى ،

أنه حين كان يشغل منصب الحاجب السلطاني ، تولدت بينه وبين الجامعي الذي كان وقتئذ صدرا أعظم ، وفي الوقت نفسه عما للسلطان المولى الحسن ، عداوة شديدة نشب صراع مرير بينهما على السلطة . وتعود أسباب ذلك الصراع في أصولها ، إلى السنوات الأولى من فترة حكم المولى الحسن ، أي إلى سبعينيات القرن التاسع عشر ، حين أبعد عم بن موسى ، وهو عبد الله بن أحمد البخاري[22]، من منصب قائد الفرقة العسكرية الجديدة التي كان قد أنشأها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن في مطلع ستينيات القرن التاسع عشر ، وأسندت مهمة الإشراف عليها إلى الأخ الأصغر للصدر الأعظم الجامعي . زد على ذلك ، أن محمد غريط الذي كان من الكتاب المعاصرين وأحد رجال المخزن ، يخبرنا أن الجامعي كان يضايق بن موسى باستمرار ويحمله مسؤولية كل المشاكل المطروحة كبيرها وصغيرها[23].

ونظرا لانحدار أحمد بن موسى من أصل إفريقي (ويحتمل أن يكون من سلالة العبيد)[24] ، فلن يسعه إلا النظر بعين الرضى والإعجاب إلى صعود نجم ماء العينين بصفته زعيما إفريقيا آخر ارتفعت درجة شعبيته وعلت مكانته ، في الدفاع عن الإسلام وعن المغرب . خاصة وأن ماء العينين كان من أقطاب العلماء ، وتبوأ درجة رفيعة في الريادة الدينية . وكل هذه العوامل جعلت بن موسى يجد في ماء العينين كل المقومات الضرورية والمطلوبة للتمكن من دعم مكانته عند السلطان من جهة ، وتحقيق طموحاته السياسية اعتمادا على المكانة الروحية لماء العينين من جهة ثانية . وحتى يحالفه النجاح في بلوغ أهدافه المسطرة ، يبدو أن بن موسى قد مد يد المساعدة إلى ماء العينين فمكنه من إنشاء هيئاته

التنظيمية التي اتخذت شكل شبكة تتكون من عدة زوايا تابعة لطريقته الدينية[25] . وكانت الزاوية المركزية في مدينة فاس ، بينما وزعت بقية فروعها على مختلف أرجاء البلاد ، من الصويرة إلى مراكش في الجنوب ، وبمدينتي سلا والرباط في الوسط ، وفي تطوان ومليلية بالشمال[26]. وكان أحمد بن الشمس (توفي سنة 1923) المنحدر من موريتانيا ، وأحد طلبة ماء العينين هو الذي يتولى الإشراف على تسيير شؤون الزاوية المركزية في فاس[27] . وتـ دنا خواتم كتب ماء العينين المطبوعة في فاس، بأن من بين المهام التي كان يقوم بها بن الشمس هي الترخيص لكل من يرغب في نشر كتابات ماء العينين بذلك. كما أنه تولى القيام في الفترة الممتدة ما بين 1891 و1912 بالنشر والتمويل المباشر لخمسة عشر عنوانا، على الأقل، من مؤلفات ماء العينين[28].

ومن الخدمات المهمة الأخرى التي قدمها أحمد بن موسى لشخص ماء العينين وللطباعة في المغرب ، إقدامه على كسر هيمنة الأخوين الأزرق اللذين كانا يحتكران جل أعمال الطباعة بفاس ، وذلك بتشجيعه لعناصر جديدة ، أمثال اليملاحي والذويب، على إنجاز مشاريعهم المطبعية الخاصة . وهنا أيضا ، كان هدف بن موسى هو الإسراع في تنفيذ حملته الدعائية ليكسب ماء العينين مزيدا من الشهرة والشعبية في الأوساط الغربية بوجه عام. ذلك بأن جزءاً كبيرا من الكتب التي طبعت في المغرب ما بين 1891 و1900 كانت من مؤلفات ماء العينين. وينقلنا السؤال عن نجاح أحمد بن موسى أو عدمه في إبراز مكانة ماء العينين من خلال استعماله للطباعة ، ينقلنا إلى الحديث عن عامل آخر له أهميته الخاصة . ويتعلق الأمر بالاستعداد الذي كان عند مختلف عناصر

تشكيلة المجتمع المغربي لاحتضان كتابات ماء العينين وتقدير قيمتها الكبيرة إلى حد الإعجاب بها .

كان من بين تلك العناصر أشخاص يحتلون أعلى مراتب السلم الاجتماعي ، سارعوا إلى المراهنة على الشعبية المتنامية لماء العينين . ومثالا على ذلك ، نجد إلى جانب أحمد بن موسى ، الذي أعلن عن انتمائه إلى الطريقة الدينية لماء العينين ، عناصر من أسمى موظفي المخزن ، كما هو حال مولاي عبد الحفيظ أخ السلطان مولاي عبد العزيز ، ومحتسب مدينة سلا محمد الصبيحي ، فضلا عن العديد من كبار العلماء أمثال ابن الخياط والمهدي الوزاني الذين حصلوا على إجازات علمية من ماء العينين[29].

نتيجة لهذا الاعتراف بمكانة ماء العينين وللدلالات الكثيرة التي أصبح شخصه يكتسيها في أعين الناس ، انهمك العديد من العلماء في نظم الأشعار وسخروها في تعداد خصاله وتمجيد قدراته الباهرة . وجمعت تلك الأشعار ، إلى جانب المعلومات الخاصة بحياته ، فنشرت جميعها في فاس وعرضت على جمهور القراء[30]. كما قضى بعض العلماء أمثال عبد الرحمن وجعفر الكتاني سنوات عديدة من حياتهم في نسخ مؤلفات ماء العينين وتصحيحها وتحضيرها للنشر[31]. وراهن الطابعون والناشرون ، أمثال العربي الأزرق[32] واليملاحي[33] والذويب[34]، على تنامي ظاهرة ماء العينين ، فتنافسوا على نشر مزيد من كتاباته وترويجها، حتى ان مؤلفاته بلغت حوالي الربع من مجموع الكتب التي نشرها أولئك الطابعون الثلاثة في فاس ما بين 1891 و1900[35].

وكان النداء السياسي القوي الذي وجهه ماء العينين إلى بقية الطرق الصوفية ، وخاصة منها الطريقة الكتانية التي يتميز

زعماؤها ، عبد الكبير وابناه محمد وعبد الحي ، بالحيوية والفعالية ، كان من العوامل الهامة الأخرى التي جعلت شعبيته تشيع بسرعة وتفرض وجودها على الساحة المغربية . ومن الأمور التي استهوت زعماء الطريقة الكتانية وجعلتهم يميلون إلى مشاطرة ماء العينين إيديولوجيته السياسية ، مناداته الأخيرة ، في كتابيه : «مفيد الراوي» و «مبصر المتشوف» ، بتعميم الأخوة بين كل الطرق الصوفية ، سواء على المستويات المحلية أم الدولية . ولتحقيق هدفه المنشود ، اقترح العمل بوسيلة فعالة وعملية ، ألا وهي إجماع كل الطرق الصوفية على استعمال حزب موحد يكون مستمدا في أساسه من جميع الأحزاب الرئيسية المعمول بها عند غالبية الطرق الصوفية[36] .

وتعني لفظة حزب ، جماعة أو تجمعا معينا . ومن الناحية الدينية ، تستعمل لفظة الحزب إشارة إلى الأقسام الستين التي يتكون منها القرآن الكريم[37]. غير أنها تعني شيئا آخر عند الطرق الصوفية ، إذ يقصدون بها أسطرا أو صفحات قليلة تتضمن جملا إنشائية تعبدية وضعها زعماء الطريقة الدينية ، قدماء كانوا أو معاصرين. وعليه ، فإن كل مجموعة طرقية يستظهر أتباعها الحزب الخاص بها وينشدونه فيكون بذلك رمزا لوحدتها ، وفي الوقت نفسه وسيلة للتمييز بين المجموعات ، لأن لكل مجموعة كتابها المختلفين الذين يضعون نصوص أحزابها ، ولأن هنالك تباينا في درجات القوة وفي مستويات الورع ، وأيضا في سمو المكانة الدينية لكل حزب .

وعلى الرغم من تحرير زعماء الطريقة الكتانية لأحزابهم الخاصة وتحديد حركات رقصهم بأنفسهم[38]، فقد تبنوا جميعا إيديولوجية

ماء العينين ، وأكسبوا مؤلفاته شهرة خاصة حين تمكنوا من طبعها في المؤسسة التي كان يدير أعمالها الذويب أحد أبرز أعضاء الطريقة الكتانية حيوية ونشاطا . وكما سبقت الإشارة إلى ذلك ، كان عبد الرحمن وجعفر ، وهما من العناصر الريادية داخل الأسرة الكتانية ، من العلماء الذين ساهموا في نشر العديد من أعمال ماء العينين[39].

وهناك سبب أساسي جعل الكتانيين يتبنون إيديولوجية ماء العينين ، ويتمثل في وجود فراغ سياسي في المغرب ما بين 1894 و1900، حين بادر الصدر الأعظم أحمد بن موسى إلى تركيز سلطة المخزن بكاملها في يديه ، إذ تعمد اختيار أصغر أبناء السلطان المتوفى ورشحه خلفا له على حكم البلاد عوضا عن أحد أخويه الكبيرين ، مولاي محمد ومولاي عبد الحفيظ[40]. وتجدر الإشارة إلى أن أحمد بن موسى عندما أحس بتنامي شعبية الطريقة الكتانية سنة 1897 وحاول معرفة النوايا السياسية التي كان محمد الكتاني يضمرها، لم يجد من يستشيره في تقرير مصير الكتانيين – ويا لسخرية الأقدار ! – غير ماء العينين . لكن هذا الأخير ، كان على علم تام بفضل الطريقة الكتانية عليه ، ومساهمتها الفعالة في نشر أفكاره ومؤلفاته ، فما كان منه إلا أن أخلى سبيلها وبرأ ساحتها من كل الشبهات . بل أصبح محمد الكتاني أكثر جرأة عما كان عليه من قبل في ممارسة أنشطته ، واستمر على ذلك النحو إلى أن قتل على يد السلطان مولاي عبد الحفيظ سنة 1910[41].

وكان زعماء الطريقة الكتانية يجدون عند ماء العينين شيئا ثمينا لا يمكنهم الاستغناء عنه لبلوغ أهدافهم ، ألا وهو عداوة

الشديد للأوربيين بالإضافة إلى النداء الذي وجهه إلى أتباعه المغاربة لتحقيق التعاون مع سلاطين العثمانيين والاستفادة من خبراتهم وتوجهاتهم الإصلاحية بدل الإعتماد في ذلك على الأوربيين. وقد تكرر مثل هذا النداء في كتابات ماء العينين ، كما في مؤلفه مبصر المتشوف الذي وصف فيه السلاطين العثمانيين بالعبارات التالية :

«فهم زبدة الملوك ، ودولتهم زبدة الدول ، حيث لا دولة بعدها لغيرهم . [لأنهم] يقاتلون مدهم مبادي الرجال من الكفرة الفجرة من الافرنج والأنكروس[42] وغيرهم . ولهم الجمعية الكبرى واليد الطولى والدولة العظمى»[43].

كانت مثل هذه الكتابات المشحونة بالإحساسات المعادية للأوربيين قوية بما يكفي لتمكين الزعماء الكتانيين من النجاح في إسماع صوتهم الذي لم يتوقف عن المطالبة بإحلال الخبراء العثمانيين محل الأوربيين في المغرب . وفي الواقع ، كانت لجل العناصر الريادية في الطريقة الكتانية - ومنهم جعفر الكتاني وولداه عبد الرحمن ومحمد ثم عبد الكبير الكتاني وولداه محمد وعبد الحي - علاقات متينة واتصالات مستمرة مع مختلف العلماء العرب في المشرق ، والذين كانوا في خدمة الدولة العثمانية . وكان من أولئك العلماء بافضل الحضرمي وأبو الهدى الصيادي اللذان كانا يشرفان على إدارة منظمة الجامعة الإسلامية في إستنبول والدعوة إلى التوحيد بين كل الطرق الصوفية[44]. وكانت أيضا لزعماء الطريقة الكتانية اتصالات قوية مع يوسف النبهاني الذي كان في خدمة العثمانيين مسؤولا عن إصدار

« الجوائب » صحيفتهم الرسمية[45] . وبناء على كل هاته المعطيات ، تتضح لنا كل الدوافع التي جعلت العناصر القيادية داخل الطريقة الكتانية تعتنق أفكار ماء العينين وتفسح المجال أمام كتاباته لتعرف انتشارا واسعا عبر وسيلة الطباعة .

وهناك نقطة أخيرة تتعلق بأدبيات الحزب عند ماء العينين ، وهي لجوء عامة الناس في المغرب إلى استعمال كتاباته تمائم لحمايتهم من مختلف الأمراض والأخطار التي كانت تهدد حياتهم اليومية وقتئذ[46]. وهذه نقطة أخرى تضاف إلى الأسس التي أقام عليها ماء العينين شعبيته في المغرب . وتعني هذه الأمور كلها أنه بقدر ما كانت تستعمل آلة الطباعة لتعميق شعبية ماء العينين في المغرب ، كان ماء العينين نفسه مُسْتَخدماً بطريقة أو بأخرى في تحقيق غايات متعددة ومتنوعة للمخزن والعلماء وحتى عامة الناس . معنى هذا أن أهمية الطباعة أصبحت واضحة داخل المجتمع المغربي ابتداء من ثمانينيات القرن التاسع عشر .

ويمكن القول بإيجاز ، إنه من الواضح جداً أن عالما على غرار ماء العينين لم يكن في حاجة إلى الطباعة ليتحول إلى زعيم ديني وسياسي له مكانته المهيمنة والمتحكمة في مصير المجموعات القبلية داخل مجاله الصحراوي . بل كان ذلك المجال بحكم بنياته السوسيواقتصادية والدينية والتعليمية القائمة كافيا لتمكينه من إدراك ما حققه من مكانة سامية . ومع ذلك ، فإنه على الرغم من المساندة المطلقة التي لقيها ماء العينين من إخوانه الصحراويين ، فما كان لشهرته الدينية ولا لكتاباته التي تجاوزت الثلاثمائة مؤلف أن تمكنه من التحول إلى شخصية تحظى

بشعبية كبيرة في المغرب ، لأن تزايد الأطماع الأوربية تجاه المغرب وتصاعد لهجة التهديدات له منذ أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، بالإضافة إلى النجاح الذي حالف ماء العينين في توحيده لسكان الصحراء ، كانت جميعها عوامل جعلت هذا الرجل يحظى باهتمام شخصيات المغرب البارزة التي كانت تتحكم آنذاك في مصير البلاد . إلا أن الطباعة شكلت مع تلك العناصر الحيوية إمكانية عظيمة سهلت من جعل ماء العينين أكثر الزعماء شهرة في زمانه.

*****

الاجساد حلة الارواح وينادي متلمثوا امثلموا الى الفلاح فللّه ما جمع
فأوعى واحسن فنفعا وتصدى لنا شر نفعا ويرجع الى الشريعة والحقيقة
اصلا وفرعا وبذل النصح للقريب والبعيد وانتفع بعلمه النجيب والبليد
وانتشرت انوار معرفته في جميع الاقطار انتشار الشمس لا بل انها زادت
في الارتفاع وكيف لا وهو القطب الشهير الشيخ سيدي ماء العينين
ابن شيخه القطب الرباني الشيخ محمد فاضل بن مامين ادام الله وجوده
للانام وجعلنا من زمرته ومن به في هذه الدار وفي دار السلام آمين
وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب السعيد يوم الاحد [illegible] ربيع السرور
والافراح لنا بيوم عيد فتح محرم الحرام عام اربعة عشر وثلاثمائة والف
من هجرته عليه السلام بمطبعة فاس المحروسة من كلا فاس الجزء الاول
وبعض الملازم الحاضر لنا في اوايل من سنة الجزء الثاني بمطبعة ابن عبد المولى
المذكور وما عدا ما ذكر من الجزء الثاني بمطبعة المعلم العربي الازرق
بتصحيح الفقيه العالم النجيب الخير المحتسب ابي العباس سيدي احمد ابن العربي
البوعزاوي جعله الله اينما كان فاعله في رضاه بجاه وذلك على يد الوزير
الاعظم والدستور الافخم من عمت سياسته ممالك الامام عزت
ثرياته شرايع شرايعه منع الاجاج الرويين الكامل والفارس البطل الاجمل
الناصح النافع الذي لم يزل حيثما في الصلاح ذو المجد الاثير ابو العباس
سيدي احمد بن الوزير المقدس السيد موسى بن احمد لا زال العز في جبينه
الرياسة ودولته في عز جميل الشهامة والكياسة وامير في ظل من
افتخر منزله جواد الملك الافخم ومجلا كل غار بالنعم ومتكلل
بتاج الفتح والنصر والكرم ونطق بتشييد العزم بحسن مناقبه مزايا وغرر
فملأ القلوب محبة فيه وشغل الالسن بشكر بره ولا تستنزيه السلطان
ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان الى سلم جم من سلسلة الذهب والعقيان
ابو بكر سيدي ... وابو سلطان امير المومنين مولانا عبد العزيز
ابن مولانا الحسن بن مولانا محمد بن مولانا عبد الرحمن خلد الله

خاتمة الجزء الأول

من كتاب «مبصر المتشوف» للشيخ ماء العينين.

بالنصر والكفاية وكمال السطوة، أمير المومنين درة العز الباهر، وتاج
العز القاهر، أجل من جلس على منصة التبريز، أيد سلطانها رواية رابع مولانا
عبد العزيز، أعز الله به بيضة الإسلام، وخلد ملكه غرة في جبين الليالي
والأيام، بجاه جده عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام، ومن مزج
الإنشا زهرا ابتسام طبعه، فيا قبيلة البكر من محاسن ما اشتمل عليه ومزجه
فجعلت مؤرخا لابتسام الطبع، ونشيدا بمرغب إليه من أنواع البديع

أزاهر في المحاسن قد تنامى ... أم الشمس المضيئة في سما [illegible]
أم الغيث الغزير له قد ترقى ... بجل [illegible] في خلاها
أم العذراء تبسم عن ثنايا ... وعرف المسك ينشق من شذاها
ومثل ثمر الزمان بطبع شرح ... [illegible]
بلى نعم [illegible] ... [illegible]
وحيز الزهر ترجمة عن نفيس ... [illegible]
ورصعه ورقعه بـ[illegible] ... [illegible]
فجاء رفيع زخرفه صنيع ... [illegible]
كثير النفع يزري بالمعالي ... [illegible]
فلا زال دارسه واحرص عليه ... [illegible]
فيا للشيخ ما العينين ماذا ... [illegible]
فكم جمل [illegible] بنبل نبيل ... [illegible]
وكم [illegible] أنار [illegible] قلوبنا ... [illegible]
بحرمته [illegible] ... [illegible]
وقد أرخته بشرى بطيب ... [illegible]

1313

الهوامش :

(1) B. G. Martin, Muslim Brotherhoods in Nineteenth-Century Africa, pp.125 - 151.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه .

(4) محمد الظريف ، الحياة الأدبية في الزاوية المعينية ، (ثلاثة أجزاء) ، دبلوم الدراسات العليا في الآداب ، نوقشت بكلية الآداب بالرباط سنة 1987، غير منشورة ، الجزء 1 ، ص 109 .

(5) عبد الحفيظ الفاسي ، معجم الشيوخ ، الجزء 2 ، ص 37 - 46 .

(6) عبد الوهاب ابن منصور ، حفريات صحراوية ، ص 69 ، 81 .

(7) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 82 . وتوجد بها نسخة مصورة لرسالة وجهها السلطان مولاي الحسن إلى أمناء الصويرة، يأمرهم فيها بإدراج إسم ماء العينين ضمن لائحة الحاصلين على الرواتب . وهي بتاريخ 29 أبريل 1887، وتعتبر – لحد الآن – أقدم وثيقة يظهر فيها اسم ماء العينين في المراسلات المخزنية .

(8) محمد المختار السوسي ، المعسول (عشرون جزءا) ، مطبعة النجاح ، 1960–1963 ، الجزء 4 ، ص 97 .

(9) الظريف، المرجع السابق، الجزء 1، ص 54، 75، 79، 105.

(10) الجزء 1 ، ص 46 .

(11) فوزي عبد الرزاق ، المطبوعات الحجرية في المغرب ، فهرس مع مقدمة تاريخية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1989 ، ص 173 - 174 .

(12) Martin, op. cit, p. 136.

(13) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 44 .

(14) المرجع نفسه ، الجزء 1 ، ص 124 - 126 ، 130 .

(15) المرجع نفسه ، الجزء 1 ، ص 12 .

(16) Martin,op.cit.

(17) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 238 .

(18) المرجع نفسه ، الجزء 1 ، ص 126 - 127 ، 155 .

(19) المرجع نفسه . ما تزال العديد من كتابات ماء العينين مجهولة إلى اليوم، إما لضياعها وإما لكونها موزعة على العديد من أحفاده وذريته في مختلف الجهات الصحراوية .

(20) عبد الرزاق ، المرجع السابق .

(21) محمد غريط ، فواصل الجمان ، ص 82 - 89 .

(22) وهو الشخص نفسه الذي مارس ضغوطه على الطابع المصري القباني ،

وجعله يغادر المغرب ليعود إلى بلده. انظر الروندة ، حديث مع الطيب الأزرق . وهو وثيقة غير منشورة تقع في صفحة واحدة .

(23) غريط ، المرجع السابق .

(24) يؤكد غريط ، المرجع السابق ، أن أسرة أحمد بن موسى تنحدر من الموالي ، أي أن أصله من العبيد البربر . ويشير مصطفى العلوي في كتابه الحسن الأول ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1986، ص 193 ، إلى أن والدة بن موسى كانت يهودية . غير أنه نتيجة لارتباط أفراد أسرة بن موسى بعبيد البخاري منذ أيام المولى سليمان (1820) ، وبما أن العادة قد جرت على تسميتهم بالبخاري ، فأرجح الظن أن تعود جذور أفراد أسرة بن موسى إلى أصل افريقي ، قد يكون موريتانيا أو غيرها من بلدان الغرب الإفريقي ، هذا على الرغم من أن بن موسى لم يكن أسود اللون .

(25) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1، ص 55 .

(26) المرجع نفسه .

(27) الفاسي ، المرجع السابق؛ الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 127–125 .

(28) عبد الرزاق ، المرجع السابق ؛ الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص12.

(29) الفاسي ، المرجع السابق ، الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 12 .

(30) مجموع اشتمل على سبع فضائل في مدح ماء العينين . وساهم فيه كل من عبد الرحمن الكتاني ، وعبد الله الفاسي ، ومحمد العلوي ، وعبد الواحد الفاسي ، وعبد الله القباج ، وأحمد الزعيمي .

(31) عبد الرزاق ، المرجع السابق ، ص 127 - 166.

(32) نفسه ، ص 127 - 129.

(33) نفسه ، 185 - 187.

(34) نفسه ، ص 144.

(35) المرجع نفسه ، ص 190 - 195.

(36) ماء العينين ، مفيد الراوي ، ص 4 . انظر أيضا ، أبو بكر بناني ، إتحاف العناية ، ص 110. ويشير فيه إلى أن الهدف الذي كان يسعى ماء العينين إلى تحقيقه هو التوحيد بين مختلف الطرق الدينية بالمغرب لتصبح هناك طريقة واحدة بديلة .

(37) Lane,Edward William. Madd al-qamus: an Arabic-English lexicon. 8 vols. London: William and Novgate, 1863.

انظر مادتي " حزب " و " حزابة " .

(38) عبد الكبير الكتاني ، نجوم المهتدين في دلائل الاجتماع للذكر على طريقة المشايخ المتأخرين برفع الأرجل من الأرض والاهتزاز شوقا إلى رب العالمين، فاس ، 1914 . يتضمن هذا النص الذي وضعه مؤسس الزاوية الكتانية وصفا للطريقة التي يجب أن يتم بها الرقص أثناء ممارسة الطقوس الدينية الخاصة بالكتانيين . إذ تضرب الأرض بالقدم اليمنى ، وبينما تكون الساق اليسرى مرتفعة إلى أعلى يحرك الشخص جسده بقوة، وتتكرر العملية إلى ما لا نهاية . والكتانيون لا يطرقون الأبواب قبل الدخول إلى البيوت ، بل يكبرون الله لإشعار الناس بحضورهم .

(39) انظر الهامش 41 فيما سيأتي .

(40) غريط ، المرجع السابق ؛ العلوي ، الحسن الأول ، ص 193 . ويحاول غريط إثارة الانتباه إلى أن بن موسى واثنين من قرابته كانا يحتلان مناصب سامية في الجهاز المخزني للسلطان مولاي عبد العزيز ، فارقوا الحياة في مدة زمنية متقاربة جداً ، دون أن يقدم أي تفسير لذلك . غير أن العلوي يشير إلى تسميمهم على يد أفراد من الأسرة السلطانية .

(41) عبد الحي الكتاني ، المظاهر ، الجزء 1 ، ص 788 - 793.

Burke, "Moroccan 'Ulama "in Keddie, Scholars, Saints and Sufis, p.111.

(42) ويعني بهم الفرنسيين والإنجليز .

(43) انظر الجزء الثاني من مبصر المتشوف ، ص 176 .

(44) كانت لجنة الجامعة الإسلامية في إستنبول تتكون من أربع شخصيات قيادية هي : بافضل الحضرمي ، والشيخ أسعد أفندي ، وأبو الهدى الصيادي، وظافر المدني . وكان كل واحد منهم مسؤولا عن طريقة واحدة أو عن عدة طرق في إحدى جهات العالم الإسلامي . وعلى سبيل المثال ، كان بافضل مسؤولا عن الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، وجهات الشرق الإفريقي وساحل مليبار الواقع في الهند التي كانت الطريقة العلوية منتشرة فيها. وكانت تلك اللجنة تدعو إلى المبادىء نفسها التي كان ماء العينين ورواد الطريقة الكتانية يتبنونها والتي تهدف إلى تحقيق الوحدة بين كل الطرق الصوفية عن طريق الاعتماد على أحزاب ذات نصوص موحدة المضامين. لقد كانت هناك علاقات متينة بين العلماء العثمانيين وكل من ماء العينين والعناصر القيادية في الطريقة الكتانية . وبالإضافة إلى المعلومات التي يقدمها لنا ماء العينين في كتابه مبصر المتشوف (انظر الهامش أعلاه رقم 43) ، يخبرنا في كتاب آخر تحت عنوان نعت البدايات ، ص 40 ، بأنه عندما وصل إلى مكة قابله المدعو عبد الرحمن أفندي الذي أعطاه هدايا ثمينة ، وأخبره بأنه رأى النبي صلى الله

عليه وسلم في منامه ، وأن النبي (ص) هو الذي أخبره عن ماء العينين ووالده وأن هذا الأخير خليفته في الأرض . وكان علماء العثمانيين يلجأون إلى استعمال أساليب مماثلة في مكة مع الزعماء الدينيين الوافدين من شرق إفريقيا ، والذين كانوا يشورون على الأوربيين بمجرد عودتهم إلى أوطانهم . انظر :

Martin, " Notes on some members of the learned class of Zanzibar and East Africa in the Nineteenth Century ", in African Historical Studies vol.IV, n°3 (1971),pp 525-545.

وفيما يتعلق بالعلاقات القائمة بين زعماء الطريقة الكتانية وأعضاء لجنة الجامعة الإسلامية ، يفيدنا كتاب المظاهر السامية لعبد الحي الكتاني بأن والده عبد الكبير قد حصل على إجازة من بافضل الحضرمي المنتمي إلى الطريقة العلوية . وأنه التقى في مكة ببافضل الحضرمي (انظر: فهرس الفهارس ، الجزء 2 ، ص 140) . وعلاوة على ذلك ، حسب ما جاء عند الفاسي في كتابه مجموع ، فإن أبا الهدى الصيادي قد وضع كتابا عن الأدارسة في المغرب تحت عنوان الإيضاح المطرب (غير منشور) ، كما حصل منه السلطان مولاي عبد الحفيظ على إجازة عن طريق المراسلة . للمزيد من المعلومات عن هذه النقطة من التاريخ المغربي والتي ما زال يكتنفها الكثير من الغموض ، انظر المنوني ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، الذي يحتوي على معطيات قيمة عن العلماء الذين زاروا البلاد المغربية في إطار موضوع الإصلاحات قبل سنة 1912 .

(45) الفاسي ، المرجع السابق ، الجزء 2 ، ص 161 - 162 ؛ يوسف النبهاني ، جامع كرامات الأولياء ، ص 226-229.

(46) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 155 - 158 . ويؤكد الباحث نفسه في الصفحة 160 من المرجع نفسه أن ماء العينين كتب حزبا خاصا لفائدة الوزير أحمد بن موسى بعنوان : منيلة القصد لكل جام وطاردة الآفات من كل ما مضى وما قد يأتي .

*****

الصحراء أرض الشعر ومهد التقاليد

محمد المختار ولدباه(*)

مضت الآن عشرون سنة على استرجاع المغرب للأقاليم الصحراوية، وهي مناسبة تستدعي التذكير بما كانت عليه الصحراء قبل هذا العهد.

في مستهل هذا القرن احتل المستعمر الاسباني الساقية الحمراء ووادي الذهب، وبقي فيها نحوا من سبعين سنة تخللتها حركات جهادية تحررية معروفة.

ثم لما أفل نجم الاستعمار حاول الاسبان الحفاظ عليها وادّعوا أنهم وجدوها أرضا خلاء لا أنيس بها، ودافعوا عن هذه الأطروحة في المحكمة الدولية بلاهاي، غير أن الواقع فند ادعاءاتهم واعترفت المحكمة أنها كانت مأهولة بقبائل تدين بالولاء والبيعة لملوك المغرب.

يومئذ قرر العاهل المغربي استعادة الصحراء بطريقة من أبدع ما استعمل ضد الاستعمار في هذا القرن. إنها المسيرة الخضراء التي صارت خط تحول في تاريخ الصحراء وتاريخ المغرب كله، إذ عرف قائدها كيف يقوم بأقوى هجوم بسلاح السلم وقدائف الحكمة والانضباط، ولقد كانت استجابة شعبه رائعة ومدهشة.

(*) أستاذ جامعي.

واليوم قد تبدلت أرض الصحراء غير أرضها، إذ بالأمس القريب ماكان فيها إلا قَريَّات يسكنها المستعمر وقبائل رحل تتبع مواقع القطر، فعبدت طرقها وشيدت فيها الجوامع الفخمة والمدارس المتنوعة والمطارات والموانئ الحديثة، ومدت فيها شبكات الماء العذب، وأقيمت المزارع والمروج، ودخلت في وتيرة النمو والتطور.

لقد قلنا إنها كانت كاسمها صحراء، غير أن هذا لا يعني على الاطلاق كونها قفارا بلا سكان. ان لها أهلا يحبونها ويثبتون أنها أرض الأدب والشعر ومعبرا للتبادل ومهد البطولات.

« جعلت كل أرض لأهلها شاما » انها قولة مشهورة جرت على ألسن الناس، ونماها بعضهم إلى الحديث الشريف، وإذا كانت غير موجودة في مدونات السنة النبوية، فإن معناها صحيح في التجربة المعيشة، فالناس قد جبلت على حب أوطانها، إذ بأماكن نشأتها ترتبط النفوس كارتباط أولي الأرحام، ويحق لكل أحد أن يقول مثل ما قال الشاعر القديم:

أحب بلاد الله مــــا بين منعج	عليَّ وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بهـــا نيطت علي تمائمي	وأول أرض مس جلدي ترابهـــا

وقد تكون هذه الأوطان أرضا خصبة جميلة كثيرة الأنهار والأشجار فيشيد الشاعر بمحاسنها حينما يفارقها، مثلما وقع لابن حمديس حين اغترب عن صقلية فجعل يبكيها قائلا:

ولولا ملوحـــة مـــاء العيـــون	حســـبت دموعي أنهـــارها

وقد تكون هذه الأوطان أراضي جرداء لا ماء فيها ولا شجر، بيد أن هذا لا يعوق الشاعر أن يحبها، وأن يشتاق أيامه فيها، وكأنه يبحث فيها عن قطع من ماضي حياته استودعها في تلك الأماكن،

ويحاول كلما مر بها أن يستعيد أيام سروره فيها. ومثالا لذلك، يقول الشاعر الشهير امحمد بن الطلبه اليعقوبي عن الصحراء:

منازل قد كان السرور محالفي بها فهي عندي بين سلمي ومنعج

فالصحراء عند الشعراء من ذويها لم تكن تلك المهامه التي قال فيها ذو الرمة:

يتيه قطا الفلاة بها أواما ويهلك في جوانبها النسيم

وليس كما يراها الجغرافيون والرحالة وكأنها ليست إلا كثبانا زاحفة تكتسح أمواجها كل ما اعترض طريقها، وبعضهم لا ينظر منها إلا أبحرا من رمال مخيفة يغمرها السراب ويتبارى فيها اللهيب والزمهرير، يترقب المار في مسالكها الوعرة أن تنقض عليه العواصف، فيعمي العجاج بصره، ويصم الأزيز مسمعه، ويذبل حر السموم لسانه.

إن هذه الصورة الموحشة لا تعبر في الحقيقة عن طبيعة الصحراء التي تعطي لمن كشف أسرارها مظاهر الجمال وفرص التحدي ونشوة النصر.

إنها صورة صحراء الجغرافيين والرحالة المهتمين بكل ما يثير، ولكنها ليست صحراء الشعراء ولا صحراء العارفين.

إن هؤلاء لا يرون في آفاقها الواسعة مجالا رحبا للحرية والانطلاق:

كأن لم ننتجع في الدهر مرعًى خصيبا ما به أثر انتجاع
ولم ننزل من الصحراء أرضًا بساطا كالسماء في الاتساع
ولم نسمع بها والليل داج هزيم القرم في الشول الرتاع

إنهم ينظرون إلى واحاتها التي تتركز فيها الحياة على أنها قطع من النعيم، كلما صعبت الحياة حولها ازداد شعور الانسان بالحياة

فيها، وكلما اضناه السير وأنهكه البحث عن مبتغاه، تعاظمت سعادته بالفوز واللقاء، كما يصور ابن الطلبه رحلته الليلية في طلب الأحبة.

بينا تقحّم في الظلماء جافلةً — لاحت لها النار بالعليا من الريع
إذا سجت هبَّ الريح يصفقها — صفقا وألوى بها ريح المبيديع
ياموقد النار أوقدها فلا شللا — لازال شملك مرسوما بتجميع
فدى لنار هدتني أنت توقدها — شُبَّتْ بأرطى وأطلاح ويَنْتُوع
نارٌ تُشَبُّ بغار في ذرى إهسم — هدت حميداً إلى حُور المداميع
والغار والنَّدُّ والعلياء من إهسم — تفدي اليتوع وعلياء المبيديع

وعن جمال الصحراء يتحدث ابن الشيخ سيديا، مشبها تربتها ببريق الفضة وقت الظهيرة وفي الليالي المقمرة، ويراها ذهبا في الصبيحة والعشي، وفي ذلك يقول:

يُفَضِّضُها الهجيرُ وكل بدرٍ — وتذهبها الغدايا والعشايا

إن هذا الشاعر قد زار الصحراء المغربية فلم يرض عن مياهها ولانباتها. وفضل عليها صحراء أوكار التي قال عنها إنها:

تنبت السرح والسيال وأرطى — حاكيا في الرمال وشم العذاري

غير أن هذا يخالف ما يقوله امحمد بن الطلبه وماء العينين بن العتيق إذا نحن اقتصرنا على هذين الشاعرين من بين الذين تغنوا بأباطح هذه الصحراء وأشادوا بها.

لقد نوه ابن الطلبه في شعره بأكثر من ثلاثين موضعا من الصحراء في قصيدته الجيمية المشهورة، نورد منها قوله:

وذكرة أظعان تربع باللوى — لوى الموج فالقَبْتَيْن من نعف دُوكَجِ
إلى البير فالحوأء فالفج فالصوى — صوى تشلّ فالأجواد فالنُّعْفِ من إج
تحل بأكناف الرقال فتيرس — إلى زيز فالأرويتين فالأعوج...

وبعد ابن الطلبه كان ماء العينين بن العتيق من الشعراء المبدعين الذين خلدوا في قصائدهم مجموعة من الأماكن الصحراوية، فنقرأ له قوله :

ألا من لعين مزّ وجداً هجودها ... وهان عليها بالمدامع جُودها
تفيض لذكرى الغيضتين بعبرة ... كأني إذا كفكفتها أستزيدها
سلا سلمات المهسر أين ترحلت ... مهاري اللواتي بارحتها وقودها
وهل ذكرت أيامها أم تنوسيت ... وهل رعيت أم هل أضيعت عهودها
وهل سمرات الدّيس غودرن ذُبّلاً ... أم اخضر لما أدبر الصيف عُودها
وهل جاد أرجاء المزرّب صيّبٌ ... فبثّ زرابيّ النبات مجودها

وبالاضافة إلى هذه الفكرة السائدة الخاطئة، فإن فكرة سائدة أخرى تقول إن الصحراء كانت بحرا عازلا بين الشمال والجنوب، وهي فكرة كأختها خاطئة. فهي بالرغم من وعورة اجتيازها لم تكن في التاريخ إلا معبرا للفاتحين والدعاة والتجار. ولقد حرص أولوا الحكم في بدء الفتح الإسلامي أن يؤمنوا سبلها وأن يوفروا لقوافلها محطات المياه ومعالم الطريق.

بدأ هذا العمل في عهد عبد الرحمن بن حبيب الفهري، واستمر فيما بعده. فازدهر تبادل البضائع بين حافتيها من صناعة الشمال وذهب الجنوب.

ومن الطريف أن نظام هذا التبادل لم يقتصر على مؤسسات الدول، بل كانت الشركات الخاصة تقوم فيه بدور متميز.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك، الشركة التي أسسها آل المقرى، فقد اشتهرت ذرية عبد الرحمن المقري بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتخذوا طبلا للرحيل وراية عند المسير، ويصف لنا المقرى في نفح الطيب أمر أسلافه هؤلاء

فيقول إن أبناء يحيى المقرى خمسة، عقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء. فكان عبد الرحمن وهو الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلى بأيوالاتن، فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار.

«وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان، يعرفهما بقدر الخسران والرجحان، ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم وارتفعت في الضخامة أحوالهم. ولما افتتح التكروركورة ايوالاتن وأعمالها أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها بعد أن جمع من كان منهم إلى نفسه الرجال ونصب دونها ودون مالهم القتال، ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحب والخلاصة الأقرب، ثم صار يكاتب من بتلمسان فيقتضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبئ عن ذلك»[1]

وقد استعمل ملوك المغرب الوسائل السياسية والدبلوماسية اللازمة لضمان حرية التجارة بين أطراف الصحراء، ومن ذلك إبرام العهود والاتفاقيات مع ملوك المناطق المتاخمة، كما وجهوا الرسائل التي تحمل نفس المضمون. ومن ذلك الرسالة التي كتبها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الموحدي إلى ملك السودان بغانة، لما بلغه تضييقه على التجار. فكتب إليه يقول :

«نحن نتجاور بالاحسان وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتآلف على الرفق بالرعية ومعلوم أن العدل من

(1) نفح الطيب، المقري، جـ5 : 205. تحقيق الدكتور إحسان عباس.

لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة. والجور لا تعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده. وتردد الجلاَّبة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لأحتبسنا من في جهاتها من أهل تلك الناحية - لكنا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي أن ننهي عن خلق ونأتي مثله»[2]..

وقد استمر هذا المجهود في عهد المنصور الذهبي صاحب الحملات المشهورة، وفي عهد المولى اسماعيل الذي أمن الطريق إلى تيشيت.

لقد بينا أن الصحراء ليست كما يدعي المستعمر، أرضا غير مأهولة، لكنها وطن قبائل شرف النسب والحسب، كان منها أبطال الجهاد وحماة الكرامة. وإنهم كسائر العشائر البدوية، يمتازون بطبائع خاصة، منها الصبر والمثابرة وإن لم تصحبهما دائما الأناة والتؤدة، وشجاعة تصل في أغلب الأحيان إلى طور المغامرة، وحرص على ممارسة الحرية ولو أدى ذلك إلى مخاطر الفوضى. ودفاع عن شرف القبيلة ولو أدى ذلك إلى مسالك الحيف، ومراعاة للعهود والتضحية في سبيل الوفاء بها، طالما شعر صاحبها بحرية الاختيار.

وليس بالبعيد إن شاء الله، ذلك اليوم الذي تختفي فيه أخر مظاهر التفرقة، وتلم الصحراء شمل جميع أبنائها في ظل دولة ترعى كرامتهم وتحفظ حقوقهم، وتوفر لهم حياة العز والحرية.

وتزول بذلك بعض العقبات التي تعوق طريق بناء مغرب عربي موحد الصفوف تجاه الاعداء والخصوم في الخارج، تتضافر فيه الجهود وتتسق الأعمال لصالح دولة ومواطنيها، وتستعيد به حضارة الاسلام مجدها ومكانتها في عالم اليوم.

(2) نفح الطيب، جـ3، ص 105، تحقيق إحسان عباس.

*****

اللغة الحسانية:
أساس التواصل بين الجنوب والشمال المغربيين

محمد عالي خنفر(*)

1- اللغة الحسانية جزء لا يتجزأ من الثقافة الوطنية المغربية:

تنبغي الاشارة، باديء ذي بدء، إلى أنه يستحيل الحديث عن ثقافة ما في إطار مغلق، بمعزل عن ثقافة، أو ثقافات، أخرى، ذلك أن أية ثقافة لا يمكن النظر إليها الا باعتبارها داخلة في علاقة جدلية مع غيرها، أي في علاقة تكامل وانسجام بين ما هو خاص وما هو عام، أو في علاقة تبادل بين أخذ وبذل، أو في علاقة توتر بين صراع واصطدام، أو في غير ذلك من العلاقات... وبعبارة أخرى أنها كائنة، لا محالة، في مجموعة من العلاقات المتفاعلة فيما بينها تفاعلا جدليا.

ومن هذا المنطلق نعتبر أن الثقافة الحسانية ليست إلا مكونا من مكونات ثقافتنا الوطنية، كالثقافة العربية والإسلامية، والأمازيغية، والشعبية وما إليها، مما يشكل بوتقة واحدة من المكونات الأساسية لثقافتنا الوطنية ولهويتها من جهة.

كما نعتبر أن ثقافتنا الوطنية ليست إلا مكونا من مكونات ثقافتنا القومية، بل نرى أنها حد من حدود هويتنا الإنسانية بصفة عامة من جهة أخرى.

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك سيدي عثمان، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء.

وفي هذا الصدد يقول العلامة محمد المختار السوسي: «... انني من الذين يرون المغرب جزءا لا يتجزأ، بل أرى العالم العربي كله من ضفاف الأطلسي إلى ضفاف الرافدين وطنا واحدا، بل أرى جميع بلاد الاسلام كتلة متراصة من غرب افريقيا إلى اندونيسية، لا يدين بدين الاسلام الحق من يراها بعين الوطنية الضيقة التي هي من بقايا الاستعمار الغربي في الشرق، بل لو شئت أن أقول - ويؤيدني ديني فيما أقول - انني أرى الانسانية جمعاء أسرة واحدة، لا فضل فيها لعربي على عجمي إلا بالتقوى، والناس من آدم، وآدم من تراب»[1].

وبمعنى أخر نرى أن كل هذه الثقافات الفردية / الخاصة، والمشتركة العامة، في أي زمان وفي أي مكان، جهويا وكونيا، تؤلف مجتمعة بالضرورة تركيبة ثقافية عامة، في نهاية المطاف، هي ما نصطلح عليها بالثقافة الوطنية، أو الثقافة القومية أو الإنسانية، حسب مناسبة المقال للمقام، وأن كل هذه الثقافات تترابط فيما بينها ترابطا جدليا لا تنفصم عراه، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتصور أن احداها تعيش وحيدة، بمعزل عن الأخرى، خاصة في وقتنا الحاضر الذي تضاءلت فيه الحدود بين المسافات الزمانية والمكانية، وتكاثفت فيه وسائل الاتصالات السمعية والبصرية بين الأفراد والجماعات، حتى أصبح العالم، بتعدد أمصاره، وتنوع أممه، يوصف بأنه قرية صغيرة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس، انا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات، 13).

2 – صحراء المغرب مجال الثقافة الحسانية :

إن الثقافة الحسانية، في الواقع، ما هي إلا نسيج من الثقافات الفردية والخصوصية المتنوعة: فكريا ويدويا، والمتعددة: كميا ونوعيا، التي أبدعها وأنتجها الانسان الحساني المغربي الكائن في صحراء المغرب بصفة خاصة، والموجود في مناطق صحراوية أخرى مجاورة: في موريتانيا، ومنطقة تيندوف بصفة عامة.

يمتد مجال هذه المناطق مجتمعة على مساحة مربعة يتوسطها مدار السرطان، وتصل أبعادها إلى حوالي ثلاث عشرة °13 درجة في كل حد منها، تبلغ مساحتها الاجمالية حوالي: مليونين ونصف 2.500.000 كيلو متر مربع، يحدها من جهة الجنوب: دائرة عرض: خمس عشرة: °15 درجة شمال خط الاستواء، ويمر خط هذه الدائرة من مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي غربا، إلى مدينة ولاته بموريتانيا شرقا. ويحدها من جهة الشمال : خط دائرة عرض ثمان وعشرين: °28 درجة، من خط الاستواء شمالا، وهو الخط الوهمي الرابط بين مدينتي تيزنيت على المحيط غربا، وتاكونيت بورززات على امتداد سلسلة جبال الأطلس شرقا. كما حدها من الشرق خط دائرة طول خمس: °5 درجات غرب خط دائرة الصفر درجة، وهو الخط الممتد من الشمال إلى الجنوب حاجزا بين كل من مدينتي تيندوف بالجزائر وولاته بموريتانيا من جهة، وبين مدينتي تاودني وأروان بمالي من جهة ثانية، يحدها أخيرا من الغرب خط دائرة طول: ثمان عشر °18 درجة غرب خط دائرة الصفر (خط جرينتش)، وهو الخط الرابط بين جزر الكناري إلى شاطيء مدينة الكويرة باقليم وادي الذهب المغربي.

هذا هو المجال الأصلي لصحراء المغرب، لكن تعرضت للاقتطاع بين الآونة والأخرى بفعل المناورات الاستعمارية التي لا تخفى على أحد وهي منسوبة تاريخيا إلى المغرب، ورابطة الانتساب بينهما لا يمكن التشكيك فيها، وهي أيضا مجال الثقافة الحسانية التي نحن بصدد الحديث عنها. وهي منطقة صحراوية شاسعة تشمل المناطق التالية:

أ - الأقاليم المغربية الواقعة جنوب سلسلة الأطلس، جزئيا أو كليا، وهي : الراشيدية، ورززات، طاطا، تيزنيت، كلميم، آسا، طنطان، العيون، السمارة، بوجدور، وادي الذهب.

ب - القطر الموريتاني بجميع أقاليمه.

ج - منطقة تيندوف وصحراء الحمادة بجنوب غرب الجزائر.

د - أجزاء من إقليمي تاودني وأروان بشمال غرب مالي.

غير أن هذا التحديد لا يمكن إلا أن يكون تقريبيا، وإلا فإن مجال هذه المنطقة المعنية قد يكون أوسع مما هو محدد أعلاه، وقد يضيق أيضا، تبعا لخصوصية كل منطقة على حدة، ولواقعها الاجتماعي المتغير حسب تقلبات الأوضاع وتعاقب الأزمان.

ومن ثم فإن مجموع أقاليمنا الصحراوية المغربية، البالغة أحد عشر حدا، المذكورة أعلاه، تدخل بصفة جزئية أو كلية ضمن مجال الثقافة الحسانية، بل تعتبر، بصفة خاصة، هي المنبع والقاعدة الأساسية التي انطلقت منها القبائل الصحراوية في التوسع والانتشار إلى المناطق الأخرى المجاورة، فمن المؤكد أن قيام الدولة المرابطية لم يتم إلا بعد أن تمكنت من القبض على أقاليمنا

الصحراوية الجنوبية، وبسط سيادتها عليها، وخاصة منطقة وادي نون (أو نول كما تسمى أيضا) التي أصبحت قاعدة الدولة المرابطية، ومنها تمكنت من بسط سيادتها على مختلف المناطق المغربية شمالا وجنوبا، كما هو الحال بالنسبة لغيرها من دول المغرب، ويكفي دليلا على هذا أن السلطان المولى عبد الله بن اسماعيل العلوي وهو الجد الأعلى لبقية سلاطين المغرب المعاصرين، كان قد التجأ إلى منطقة وادي نون عند خؤولته المغافرة، صحبة ولديه المولى أحمد المتوفى سنة 1164 هـ والمولى محمد الذي تولى الملك من بعد والده فيما بين سنتي: 1170-1204 هـ وكان ذلك أثناء إحدى محنه في شأن الملك، وأقام في وادي نون مدة تصل إلى ثلاث سنين، بين عامي: 1147-1150 هـ/1734-1737 م، ولم يخرج من هذه المنطقة إلا معززا مكرما على رأس جيش قوي بكامل عتاده وتجهيزاته مكنه من العودة إلى سدة ملكه بفاس[2].

ونحن نستطيع أن نتبين ذلك كله من خلال تتبع أهم مراحل الدولة المرابطية، وهي التي يمكن أن نحددها في المراحل الخمس التالية:

أ– مرحلة البحث عن الذات (427-430 هـ):

وهي التي قد تبلورت من خلال عمل الأمير يحيى بن ابراهيم الكدالي (427-441 هـ) الذي قام برحلة إلى الحج على رأس بعثة من قومه سنة 427 هـ فتمكن، أثناء عودته، من العمل على جلب الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي، قصد الاستعانة به في القيام بهذه المهمة الأساسية: التفقه في شؤون الدنيا والدين[3].

ب – مرحلة التفقه الديني/الدنيوي (430-434 هـ):

وهي التي تمت على يد الفقيه العالم: عبد الله بن ياسين الجزولي (430-451 هـ/1038-1059 م)، الذي قام بتأسيس مدرسة علمية سماها «الرباط»، ومن اسمها اكتسبت الدولة المرابطية اسمها، ومن ثم أخذت تطلق على مجموعة من الأماكن، منها (رباط ماسة، ورباط الفتح العاصمة الحالية للوطن)، وهي مدرسة قد جمعت بين الشؤون الدينية والدنيوية على حد سواء، تعتبر احدى مخترعاته العجيبة[4]. وبواسطتها تمكن من النجاح في تحقيق مهمته، على الرغم من صعوبتها، بعد أن كاد أن يصيبه الفشل، حيث انطلق من سبعة أفراد، لكنه انتهى إلى أكثر من ثلاثة آلاف مجاهد، وكان قبل ذلك قد خاطبهم لما بلغ تعدادهم الألف مجاهد بقوله: «ان ألفا لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه، وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك»[5]، فكان هذا الخطاب بمثابة إعلان لقيام الدولة المرابطية التي استطاعت أن توحد المغربين بعد تفرقهما إلى طوائف، وكان ابن ياسين قائدا روحيا وراء مختلف مراحل تطورها، بل كان مجاهدا في مقدمة المجاهدين، حيث استشهد بضواحي مدينة الرباط العاصمة المغربية الحالية.

ج– مرحلة الاعداد والامتداد (434-447 هـ):

وهي التي بدأها الأمير يحيى بن ابراهيم الكدالي، ثم طورها خليفته من بعده: يحيى بن عمر اللمتوني (نحو 441-447 هـ)، وتمثلت في العمل على تغيير المنكر، وتطويع القبائل المخالفة، من كدالة ولمتونة ومسوفة، حتى استقامت على الطريقة وأنابت إلى

الحق، وذلك ببعث ألف من المجاهدين إليهم سنة 434 هـ، ثم في عقد الحمى على القبائل والعشائر المجاورة من البربر والعرب على حد سواء، وأخيرا في إقامة النظام وتأسيس المرافق الحيوية التي تحكم الدولة والمجتمع معا، ثم في العمل على الامتداد إلى افتتاح بلاد درعة وسجلماسة وما إليها سنة 445 هـ[6].

د- مرحلة الامتزاج بين الجنوب والشمال (447-453 هـ):

وهي المرحلة التي تمت من خلال عمل الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني (447-480 هـ)، الذي ندب المرابطين إلى فتح المغرب فتوجه بهم للغزو سنة 448 هـ فافتتح أولا بلاد نون، ثم ماسة وتارودانت وما إليها من معاقل السوس، وبعد أن استتب له الأمر هناك توجه إلى مدينة أغمات فافتتحها سنة 449 هـ وقتل أميرها لقوط المغراوي، ثم تزوج امرأته السيدة زينب النفزاوية المشهورة بالجمال والرئاسة[7].

وكان هذا الزواج بمثابة الامتزاج بين الجنوب والشمال المغربيين امتزاج الدم بالنسب، بحيث لم تكد تمض بضع سنوات بعده حتى تمكن المرابطون من بسط نفوذهم على أغلب الأقاليم الشمالية المغربية باستثناء مدينة فاس والشريط الواقع شمالها من تلمسان إلى المحيط[8].

هـ- مرحلة الانشاء والتوحيد (453-500 هـ) :

وهي المرحلة التي تمثلت من خلال عمل الأمير يوسف بن تاشفين (453-500 هـ) الذي استخلفه أبو بكر اللمتوني على أمر المرابطين من بعده، فأتم عملية الامتزاج بتجديد عقد الزواج على السيدة زينب النفزاوية، وأسس مدينة مراكش عاصمة لدولة

المرابطين ثم أعاد تنظيم المرافق الأساسية لتطور الدولة، وعمد إلى توحيد أطراف البلاد: من نهر السنغال جنوبا إلى جبال البرانس شمالا ومن المحيط غربا إلى الجزائر شرقا، وجعلها تحت راية واحدة بعد أن كانت طوائف قددا، وكان كل أمير منها كالهر يحكي صولة الأسد.

أن تحليلنا لبعض مراحل تطور الدولة المرابطية لا نهدف من ورائه إلا الكشف عن بعض اللحظات المضيئة في الالتحام بين الجنوب والشمال، وفي الامتزاج بين الجنسين البربري والعربي، قديما وحديثا، حتى نستطيع فهم بعض الظواهر والقضايا التي ينبغي علينا التفكير في معالجتها بكيفية مناسبة وجدية، على مختلف المستويات الثقافية واللغوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما إليها مما نحن في حاجة إلى معالجته من أجل وحدتها الوطنية..

3 – الثقافة الحسانية ثقافة انسان صحراء المغرب:

إن الثقافة الحسانية هي ثقافة إنسان صحراء المغرب. الموصوفة أبعادها أعلاه، أي أن هذا الإنسان هو الذي أنتجها في السابق وينتجها في اللاحق، وهو الذي تداولها في الزمن الغابر، ومازال يتداولها في الحاضر.

وهي ثقافة فكرية ويدوية، غنية ومتنوعة، وذلك بحكم انتماء مبدعها وصانعها إلى عشائر ومجموعات قبلية متعددة ومتنوعة، ذات أصول عربية في معظمها، كانت قد وفدت إلى المنطقة على فترات متفاوتة، وخاصة بعد الطلائع الأولى للفتح الإسلامي، بقيادة عقبة بن نافع المتوفى سنة 63 هـ/683 م، التي وصلت إلى شاطيء

المحيط الأطلسي بسوس، وما أعقبها من حملات أخرى إلى قيام الدولة المرابطية وما بعده.

ربما يبدو هذا الرأي للبعض مستبعدا، لكننا، على الرغم من ذلك نستطيع إثباته انطلاقا من التراث الشعبي من جهة، ومن بعض الاشارات التاريخية التي لا يمكن الطعن فيها من ناحية أخرى، ولعلنا نكتفي بإشارة، في هذا الصدد، مأخوذة من ابن خلدون، أثناء حديثه عن دولة المرابطين، ودور شيخهم الجزولي عبد الله بن ياسين الذي «سماهم بالمرابطين، وجعل أمرهم في العرب إلى الأمير يحيى بن عمر، فتخطوا الرمال الصحراوية إلى بلاد درعة وسجلماسة فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا»[9]. ففي هذا النص حديث واضح على أن هناك مجموعة من العرب توجد بصحراء المغرب حاليا، وأن المرابطين توجهوا لمحاربتهم حوالي سنة 434 هـ، فتم التعاقد بين الطرفين على أن يعطي العرب الصدقات، وأن يلتزم المرابطين بحمايتهم، وقد أكد ابن خلدون نفسه مضمون هذا العقد بعد بضعة سطور مما كتبه عن «العرب»، حين قال: «فخرجوا (أي المرابطون) من الصحراء سنة خمس وأربعين وأربعمائة (445 هـ) في عدد ضخم ركبانا على المهارى أكثرهم، وعمدوا إلى درعة، لا بل كانت هناك بالحمى، وكانت تناهز خمسين ألفا ونحوها»[10]، فالعرب، إذن، كانوا موجودين في ذلك الوقت ببلاد درعة من صحراء المغرب، وقد تعاقدوا مع المرابطين على مسالمتهم بالدخول في حماهم وأعطائهم ما يلزمهم من مستحقات.

ثم جاء العرب بعد ذلك إلى المغرب، حيث «انتقل إليه، في أواسط المائة الخامسة أفاريق من بني هلال وسليم اختلطوا في

الدول هناك، فكانت أخبارهم من أخبارها فلذلك استوعبناها »[11]، ولما خلوا إلى شمال افريقيا تقارعوا على اقتسام البلاد في سنة 441هـ فحصل لسليم الشرق، ولهلال الغرب، وأقامت هيب من سليم وأحلافها رواحة وناصرة وغمرة بأرض برقة، وسارت قبائل ذياب وعوف وزغبة وجميع بطون هلال إلى افريقيا فوصولها سنة 443 هـ[12].

واقتسموا البلاد مرة ثالثة: فكان لهلال من تونس إلى المغرب، وهم رياح وزغبة، والعقل، وجشم، وقرة، والأثبج، والخلط وسفيان[14].

أما المعقل فقد كان «دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل يقال انهم لم يتجاوزوا المائتين، واعترضهم بنوا سليم فأعجزوهم، وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم، ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار الغربية، فعفوا وأنبتوا في صحاري المغرب الأقصى، فعمروا رماله، وتغلبوا في فيافيه »[15].

ثم أصبح بنو معقل فيما بعد «من أوفر قبائل العرب، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى، مجاورون لبني عامر بن زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب، وهم ثلاثة بطون: ذوي عبيد الله، وذوي منصور، وذوي حسان »[16].

فكان «ذوو عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة »[17].

«ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة، فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة، وعلى درعة، وعلى ما يحاذيها من التل مثل تازة وغساسة وتادلة »[18].

«ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم في بلد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من جدالة ومسوفة ولمتونة»[19].

هكذا وصف العلامة ابن خلدون دخول القبائل العربية إلى شمال إفريقيا وكيف تم اقتسامها فيما بينهم، ثم بين دخول بني المعقل منهم، في جملة بني هلال، إلى المغرب ومواطن استيطانهم به، خاصة في صحراء المغرب، ويقول زيادة في التوضيح: هكذا أقام هؤلاء «المعقل في القفار وتفردوا في البيداء، فنموا نموا لا كفاء له، وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر، مثل قصور السوس غربا، ثم توات وتيكوارين شرقا»[20].

وكانت بواعث دخول القبائل العربية إلى إفريقيا بصفة عامة، والى المغرب بصفة خاصة، متعددة ومتنوعة، ذاتية وموضوعية، منها ما يتعلق بتلبية الحاجيات الأساسية للحياة، ومنها ما يتعلق بالصراعات السياسية والعقدية القائمة بين الأفراد والجماعات، في مواطن وجودهم انذاك، تأييدا أو معارضة، لطرف دون آخر.

4 – التحام اجتماعي بين البربر والعرب في صحراء المغرب :

لقد نتج من دخول القبائل العربية، فرادى وجماعات، إلى صحراء المغرب بصفة خاصة، وإلى المغرب عامة، على فترات متعددة، أن تمكنت من التكيف مع الطبيعة المغربية، ومع البيئة الاجتماعية الموجودة من قبلها، ونظرا للتقارب بين الجنسين البربري والعربي، في مختلف المجالات، فقد تم الامتزاج بينهما بسهولة نسبيا، بحيث أصبح من المستحيل مع هذا الامتزاج

التمييز بين الجنسين، ذلك أن كلا منهما انقسم إلى فصلين متصارعين، وأن كل فصيل منهما قد تحالف مع الفصيل الآخر الذي يوافقه في توجهه ليكون معه حلفا ضد الآخر، ثم ليمتزج به في نهاية الأمر من حيث أراد ذلك أو لم يرده.

يقول ابن خلدون متحدثا عن أولية هذا التحالف بين الطرفين: «ولما تغلب المعقل على بسائط السوس اقتسموها مواطن فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن، وصارت قبائل لمطة من أحلافهم، وصار كزولة من أحلاف بني حسان »(21)، ومن خلال هذا النص نتبين طبيعة هذا التحالف وهي المتمثلة في الصراع حول المواطن، كما نتبين العناصر المكونة للتحالف وأنواعها، وهي التي نوردها فيما يلي:

إذا كانت جزولة تتصارع مع بني عمومتها لمطة من البربر، وإذا كانت الشبانات تتصارع مع بني حسان، وهم أبناء عمومة واحدة من العرب، فمن الطبيعي أن تتحالف جزولة مع بني حسان ضد بني عمومة كل منهما من لمطة والشبانات، من البربر والعرب كليهما، ومعنى هذا أن هناك عملية التحام قد تمت وفق مقتضيات ذاتية وموضوعية معا، بين كل من جزولة وبين حسان من جهة، وبين كل من لمطة والشبانات من ناحية ثانية، وذلك حسب المعادلة التالية:

أ- جزولة =/= لمطة = بربر =/= بربر.

ب - بنو حسان =/= الشبانات = عرب =/= عرب.

ج -جزولة+بنو حسان = لمطة+الشبانات = بربر+عرب = بربر+عرب.

هكذا تمت عملية الامتزاج والالتحام بين الجنسين: بإقامة التحالفات أولا، ثم بالنسب والمصاهرة، وأخيرا بالغلبة والسيادة، إلى درجة أصبح معها هذا الامتزاج وقد استعصى تفسيره على كثير من الدارسين، نظرا لتقادم العهد به، ولدرجة تمكنه في مختلف المستويات الاجتماعية واللغوية والحضارية في المنطقة.

وقد سقط بعض الأجانب، ممن درسوا بعض ما يتعلق بالمنطقة، في الخطإ عندما أخذوا يرجعون قبائل الصحراء المغربية إلى أصول بربرية قد استعربت في جملتها، متجاوزين طبيعة تطور سنن الحياة الاجتماعية نفسها التي يتذرعون بحجيتها، ولم يسمحوا لأنفسهم على العكس من ذلك، بالقول: ان تلك الأصول تعود إلى جذور عربية قد تبربرت، وزاد في الأمر أن تبعهم دارسون مغاربة في تبني تلك المقولات دون تمحيصها بما يلزم من الدقة العلمية الحقة..

والواقع أن مقولة هؤلاء الأجانب، في هذا الموضوع، غير صحيحة في كثير من جوانبها، ان لم تكن فاسدة بالمرة، لأن المسألة في جوهرها تتعلق بانصهار كبير بين الجنسين العربي والبربري اتخذ جملة من المظاهر، وكانت وراءه عدة بواعث وأسباب، ثم أصبح من المتعذر مع هذا الانصهار، فيما بعد التمييز بين هذين الجنسين على أساس عرقي محض.

وعلى الرغم من كل ما تقدم، يمكن القول، دون أية مبالغة، ان الانسان الحساني/المغربي -بتغليب هذا المصطلح : جنسا ومنطقة- يوجد في كل أقاليمنا الوطنية جملة وتفصيلا: إما بصفة فردية، وإما على شكل جماعات أسرية، أو فئات عشائرية، يمكن تقدير

عددهم الاجمالي تقديرا شخصيا، وذلك في غياب الاعتماد على إحصاء علمي دقيق، بحوالي اثني عشر مليون نسمة، يوجد منهم نحو: 60٪ في المغرب، بينما يوجد في موريتانيا نحو 30٪ وتتوزع نسبة الباقين 10٪ في الجزائر ومالي، كما يوجد في المهاجر الأجنبية نسبة من كل جهة منهم، وخاصة في المهاجر الغربية.

5- اللغة الحسانية عربية أصيلة:

ان الامتزاج، بين الجنسين البربري والعربي، المشار إليه أعلاه، هو حقيقة واقعية ملموسة لاشك فيها، وقد تم، في صحراء المغرب، شأنها في ذلك مثل غيرها من المناطق، على أكثر من مستوى: ثقافي، لغوي، اجتماعي، سياسي، إلخ.

فإذا كان أبو بكر بن عمر اللمتوني قد صعد من فيافي الصحراء إلى قمم جبال الأطلس، حيث التقى، في يوم من أيام سنة 449هـ/1056 م، بزينب بنت اسحاق النفزاوية[22]، فان لحظة التقائهما ليست حدثا عاديا، قد تم بين أميرين أو بين غالب ومغلوب، وانما هي لحظة من لحظات الاندماج بين جنسين متكافئين وبين منطقتين متكاملتين هما: الجنوب والشمال المغربيين، قد تمت في الزمن المغربي على التربة المغربية.

وإذا كان المولى اسماعيل بن الشريف العلوي قد انحدر من تخوم جبال الأطلس إلى رمال الصحراء، حيث التقى، في يوم من أيام سنة 1089 هـ/1677 م، بخناثة بنت بكار المغافرية[23]، فان لحظة التقائهما ليست حدثا شخصيا عابرا، تم بين أميرين، أو بين سيد ومسود، بل إنما هي لحظة من لحظات التفاعل والإنصهار بين الشمال والجنوب المغربيين، فوق الرمال الذهبية المغربية، وبالدماء الزكية المغربية أيضا.

مرت سبعة قرون تقريبا، من التواصل والاندماج، بين اللحظتين المنوه بهما، وإذا أضفنا إليها ما تقدمها من لحظات أخرى وما تأخر عنها، لوجدنا الحصيلة قد تجاوزت ثلاثة عشر قرنا، وذلك بدءا من اللحظة التي وطئت فيها أقدام المجاهدين، من طلائع المسلمين الفاتحين، بقيادة عقبة بن نافع الفهري (ت 63 هـ/683 م)، أرض المغرب، ثم ختموها قبل العودة بالتوضؤ بمياه المحيط وإقامة صلاة الجماعة بسوس ماسة، إلى اللحظة التي قام فيها الشعب المغربي بقيادة ملكه، ببناء المسجد المغربي العظيم «مسجد الحسن الثاني»، ثم دشنوه بإقامة صلاة الجماعة بعد التوضؤ بمياه المحيط بشاطيء الدار البيضاء آنفا.

أكثر من 13 قرنا، إذن، من الانصهار والتفاعل والتواصل بين البربر والعرب، وبين الشمال والجنوب المغربيين، وشمل ذلك البنيات كلها، وعلى مختلف مستوياتها.

وكان من بين تلك المستويات، المستوى اللغوي، حيث أصبح بعض الأفراد والفئات العربية يعرفون اللغة البربرية شيئا ما من جهة، كما أن بعض الأفراد والفئات البربرية يتقنون اللغة العربية إلى حد ما من ناحية أخرى.

وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على ان الامتزاج بين الجنسين قد بلغ من التمكن درجة بعيدة قد تصل إلى انعدام الحدود بينهما في مستقبل قريب من الأيام.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن اللغة ما زالت تعتبر هي المعيار الوحيد الذي بواسطته يمكن التمييز بين ما هو بربري وما هو عربي، أما المعايير الأخرى كالجنس واللون والسلوك وما إليها فهي

معايير مشتركة، ولذلك يصعب اعتمادها أدوات للتمييز بينهما بصفة مطلقة.

ومن هذا المنطلق أخذنا بالمعيار اللغوي، في الحديث عن الثقافة الحسانية وعن صحراء المغرب باعتبارها مجالا من مجالات هذه الثقافة، وعن الانسان الحساني مبدعها ومتداولها، محكمين في كل ذلك اللغة باعتبارها المعيار الوحيد السائد، وان كنا لم نهمل المعايير الأخرى مما له صلة بالموضوع.

ومن ثم يمكن القول: ان اللهجة الحسانية، باعتبارها هي السائدة في صحراء المغرب، عربية أصيلة، بحيث يمكن اعتبار أن نسبة تسعين بالمائة 90٪ تقريبا من مفردات معجمها اللغوي تعود إلى أصل عربي فصيح، بينما تتوزع نسبة عشرة بالماءة 10٪ على العناصر الأجنبية الدخيلة.

ان عروبة اللهجة الحسانية حقيقة لا مراء فيها، ولعل أصدق من صرح بها، وأفصح من عبر عنها الشاعر محمد فال ولد عينين، حينما قال من قصيدته المدحية الطويلة[24]:

انا بنو حسن دلت فصاحتنا	انا إلى العرب الأقحاح ننتسب
ان لم تقم بينات أننا عرب	ففي اللسان بيان أننا عرب
فانظر إلى مالنا من كل قافية	لها تذم شذور الزبرج القشب

وهو يشير في هذه الأبيات إلى مسألة الخلاف الحاصل بين المؤرخين في نسب بني المعقل، نظرا لصعوبة الوقوف على الدليل المادي الملموس، ولكن الشاعر قد وجد المخرج في اعتماده على حجة واحدة دامغة، وهي حجة «اللسان» أي اللغة الحسانية باعتبارها لهجة عربية حية ملموسة، من خلال الأحاديث اليومية، والروايات

الشفوية المتداولة بين ساكنة صحراء المغرب، ومن خلال الكتابات النثرية المختلفة، والقصائد الشعرية المتراكمة عبر الأزمنة، وفي مختلف الأمكنة، وفي غير ذلك من مكونات التراث الحساني، وهي كلها حجج حية ملموسة، لا يمكن دحضها، ولا سبيل إلى الطعن في صحتها.

وتبعا لذلك فان اللهجة الحسانية فرع مشتق عن اللغة العربية الفصيحة، لكنها قد تعرضت لنوع من الانحراف قد أصاب بنيتها كميا وكيفيا، ولذلك فهي تعتمد التنبير والتنغيم في النطق بمفرداتها اللغوية، من الناحية الكيفية، لكنها تلجأ إلى إحداث بعض التغيير في صيغها وأبنيتها الصرفية أحيانا، وفي نسقها التركيبي، وفي إعرابها، وهذا ما حاد بها قليلا عن فصاحتها الأصلية المعهودة.

غير أن هذا الانحراف يعتبر، في الواقع، ظاهرة طبيعية بالنسبة للغة العربية ولفروعها، مثلها في ذلك مثل سائر لغات الشعوب والأمم، في مختلف أنحاء المعمور، وليس شيئا مقتصرا على لغة دون غيرها.

وقد أشار إلى هذه الظاهرة في تطور اللغة العربية، العلامة ابن خلدون، أثناء حديثه عن «العرب المستعجمة»، في قوله: «... ان اللسان المصري الذي وقع به الاعجاز، ونزل به القرآن، فثوى فيهم، وتبدل اعرابه، فمالوا إلى العجمة، وان كانت الأوضاع في أصلها صحيحة، واستحقوا أن يوصفوا بالعجمة من أصل الاعراب، فلذلك قلنا فيهم العرب المستعجمة»[25]، وكان قد أشار إلى هذه الظاهرة مرة أخرى في مقدمته بقوله: «... ولما فسد لسان مضر، ولغتهم

التي دونت مقاييسها وقوانين اعرابها، وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة، فكان لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية، وبناء الكلمات..»[26].

من خلال هذين النصين يتبين أن هذه الظاهرة اللغوية التي حللها ابن خلدون بعمقه المعهود تنطبق على كل لغات العالم وعلى جميع فروعها، ولا تنطبق على لغة العرب وفروعها فقط، ومن خلالها يمكن أن نستخلص أهم العناصر التي ينبغي اعتمادها في نسبة لهجة متفرعة عن لغة ما، وفي وصف كيفية عملية التفريع، وهي العناصر التالية:

أ- صحة وضع بناء الكلمات الأصلية.

ب- مدى سلامة نسق إعرابها وتركيباتها.

ج- نسبة الدخيل فيها من لغات أجنبية أخرى.

وانطلاقا من هذه المعايير، والعمل بها في تحليل معجم اللهجة الحسانية، سنتأكد بكيفية لا مجال للشك فيها، أنها فرع مشتق عن اللغة العربية الفصيحة، مثلها في ذلك مثل بقية الفروع، وهي لهجة تشبه إلى حد كبير اللهجات المنتشرة في شبه الجزيرة العربية، خاصة منها اللهجة العراقية والدارجة المغربية.

6- اللهجتان : الدارجة والحسانية المغربيتان شقيقتان:

في الواقع يمكن القول: ان اللهجتين المغربيتين: الدارجة والحسانية لا تختلفان كثيرا - هذا اذا أمكن الحديث عن لهجة دارجة مغربية موحدة، والا فان هناك دوارج أخرى لا سبيل إلى الحديث

عنها في هذا المقام - بل انهما شقيقتان لكونهما تتكونان بصفة أساسية، من نسيج يتركب سداه ولحمته، من تراث لغوي وديني واجتماعي ينبع من مصادر واحدة موحدة.

غير أن هذا التقارب بينهما لا يمكن أن يتأتى للناظر من أول وهلة، ولابد من تحليل مقارن يهتم بإبراز أهم الخصائص المشتركة بينهما، ولعلنا نستطيع أن نقرر من خلال تحليل أولي، ان تلك الخصائص المشتركة بينهما يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أ- نسبة المعجم اللغوي إلى اللغة العربية.

ب- صحة نسق بعض التركيبات النحوية.

ج- تغيير نسق بعض التركيبات النحوية.

د- تصوير البيئة الخصوصية.

ه- اعتماد نسبة متقاربة من الدخيل من مصادر واحدة.

و- الكتابة بالخط المغربي.

ز- اعتماد الترقيم المغربي.

هذه هي أهم الخصائص المشتركة، من وجهة نظرنا، بين اللهجتين المغربيتين الدارجة والحسانية، وهي التي تجعل منهما أن تكونا شقيقتين، لأنهما عبارة عن مزيج لغوي واجتماعي يتكون من عناصر عربية وأمازيغية وزنجية وافرنجية، بنسب معينة وبكيفية منسجمة ومتقاربة، تبعا للطبيعة اللغوية، ووفقا للخصوصية البيئية.

7- خصائص اللهجة الحسانية:

لعل اللهجة الحسانية أفصح اللهجات العربية على مستوى الوطن العربي عموما، وربما كانت أقرب لهجات المغرب العربي إلى أصلها العربي خصوصا، وذلك باستثناء بعض الأعلام البشرية والجغرافية والنباتية، وبعض المصطلحات العلمية، التي تعود إلى أصول أجنبية متعددة.

ويستدل بعض الباحثين على فصاحة اللهجة الحسانية بالدلائل التالية:

أ - إثبات التثنية كما يثبتها النحاة، ولو بالتزام ياء في المثنى.

ب - إثبات الاضافة دون استعمال أي وسيط.

ج - إثبات بعض أوزان الفعل المزيد.

د - الاحتفاظ بجميع الحروف المعروفة في الفصحى.

هـ - عدم التباس الحروف ببعضها ولو تم قلبها.

و - سهولة فهمها في جميع الأقطار العربية[27].

وتبقى، مع ذلك كله، بعض الخصائص التي تميز الحسانية عن العربية، وعن غيرها من الفروع الأخرى، وهي التي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

أ - كثرة إسكان المتحركات.

ب - إبدال حرف بآخر قريب من مخرجه أحيانا.

ج - الاستغناء عن أداة التعريف.

د - حذف هاء التأنيث.

هـ - اختصار بعض الحروف والأسماء[28].

انطلاقا مما سبق تبدو اللهجة الحسانية نسيجا لغويا متكونا من معجم لغوي ذي أصول عربية محضة، ومن عناصر أخرى متعددة المشارب: أمازيغية، وزنجية، وافرنجية بنسب معينة، وبصفة منسجمة مع طبيعتها الاجتماعية وخصوصية بيئتها من جهة، ومن ناحية ثانية، فان اللهجة الحسانية، بدورها قد تفرعت، فيما بعد، إلى مجموعة من الفروع - مثلها في ذلك مثل غيرها - لكنها فروع لا تبتعد عنها كثيرا، ويعود سبب ذلك إلى تنوع الفئات الاجتماعية التي تتحدث بها، والى تعدد البيئات الطبيعية التي تعيش فيها.

وكيفما كان نوع الاختلاف الحاصل بين تلك الفروع - وهو اختلاف محدود ونسبي على أية حال - فهي جميعا متقاربة فيما بينها، ومترابطة ترابطا جدليا، يوحد بينها الأصل العربي الحساني المنصهر في إنسان المغرب، وفي الوطن والتاريخ المغربيين.

II - اللغة الحسانية مفتاح بوابة المغرب إلى إفريقيا:

نستخلص من كل ما تقدم أن اللغة /اللهجة الحسانية هي لغة الثقافة الحسانية، وهي لغة الانسان الحساني في صحراء المغرب، وحيثما وجد في أي مكان من الوطن الأم، ومن خارجه في الدول المجاورة، خاصة في موريتانيا، وفي الدول الأجنبية، في المهاجر الأوروبية بصفة أخص، هي لغة هؤلاء جميعا وان بتفاوت بينهم قليلا.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن اللغة الحسانية تعتبر عاملا هاما، وأساسيا في التواصل بين مختلف الشرائح الاجتماعية لساكنة صحراء المغرب، على اختلاف انتماءاتهم العشائرية والقبلية من جهة، كما أنها تعتبر أداة أساسية للترابط

الوثيق الحاصل بين مختلف أقاليمنا الجنوبية فيما بينها من ناحية ثانية، وبينها وبين الأقاليم الموريتانية من جهة ثالثة.

وبمعنى آخر، ان اللغة الحسانية عامل أساسي في الحفاظ على الوحدة الوطنية وفي استمرار الترابط بين الشمال والجنوب المغربيين، وهي بالتالي المفتاح الأساسي لبوابة المغرب - ومن خلاله بوابة أوروبا - إلى إفريقيا.

وبما أن العناية معقودة على إنجاز مشروعي: أنبوب الغاز، وقناة الربط القار، بين شمال القارة الافريقية وجنوب القارة الأوربية، مما سيعود بفوائد عظمى على بلدانهما فانه يتعين على مسؤولينا قبل كل شيء التعجيل بإنجاز مشروع النهوض بثقافتنا الشعبية الحسانية بصفة خاصة، وذلك بالحفاظ على بعض مكوناتها من الاندثار والاسراع بنقلها من المشافهة إلى التدوين، والعمل على تطويرها بما يتماشى مع مقتضيات العصر.

*****

الهوامش :

(1) المختار السوسي، سوس العالمة، ص ج.
(2) أحمد الناصري، الإستقصا، ج 7، ص 137.
(3) عبد الوهاب بنمنصور، حفريات صحراوية مغربية، ج 11، ص 12.
(4) نفسه، ص 12.
(5) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج 11، ص 375.
(6) نفسه، ج 11، ص 375.
(7) نفسه، ج 11، ص 375-376.
(8) عبد الوهاب بنمنصور، حفريات صحراوية مغربية، ص 17.
(9) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج 11، ص 375.
(10) نفسه، ج 11، ص 375.
(11) نفسه، ج 11، ص 8.

(12) نفسه، ج 11، ص 31.
(13) نفسه، ج 11، ص 33-34.
(14) نفسه، ج 11، ص 33-34.
(15) نفسه، ج 11، ص 119.
(16) نفسه، ج 11، ص 118-119.
(17) نفسه، ج 11، ص 119.
(18) نفسه، ج 11، ص 119.
(19) نفسه، ج 11، ص 119.
(20) نفسه، ج 11، ص 120.
(21) نفسه، ج 12، ص 575-577.
(22) نفسه، ج 11، ص 475-477.
(23) عبد الوهاب بنمنصور، حفريات صحراوية مغربية، ص 56-58.
أحمد الناصري، الإستقصا، ج 7، ص 58-158.
(24) محمد يوسف مقلد، شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ج 3، ص 167
(25) عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر، ج 11، ص 8.
(26) نفسه، ج 2، ص 1124.
(27) محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، المقدمة.
خليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص 41-42.
(28) أنظر، النعمة باه، المقاييس النقدية في الشعر الحساني.
الشعر الحساني: المجال النقدي والمرجع.

*****

المصادر والمراجع :

1) ابن أبي زرع علي : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، المغرب، 1972.
2) ابن حامد المختار : ملامح الوجه التاريخي والثقافي لموريتانيا، مجلة الفكر، تونس، 1977، ع 2.
3) ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1981.
4) ابن عبد الجليل عبد العزيز : الموسيقى الأندلسية المغربية، مطابع الأنباء الكويت، 1988.

5) أبو ضيف أحمد : أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب 1982.
6) الأخضر محمد : الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء المغرب 1977.
7) الأسفي محمد الوديع : منطقة أيت باعمران: ملحمة البطولة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب 1982.
8) اطويف حمادي : التناص في الشعر الحساني، بحث للاجازة، كلية الآداب، أكادير 1988.
9) وزارة الاعلام : من أجل تحرير أراضينا المغتصبة، الرباط، المغرب 1975.
10) أكفو علي : ديوان شعر حساني، مخطوط، العيون، المغرب.
11) باه النعمة : أ- المقاييس النقدية في الشعر الحساني، بحث للاجازة كلية الآداب، مراكش، المغرب 1986.
ب- الشعر الحساني: المجال النقدي والمرجع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب 1986.
12) البعقيلي محمد : مناقب البعقيلي، تحقيق محمد المختار السوسي، مطبعة الساحل، الرباط، المغرب 1987.
13) البلغيثي لطيفة : خروف منتوف من ضيوف تيندوف، مسرحية مرقونة، الدار البيضاء 1995.
14) بنتاويت محمد : الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1982-1984.
15) بنعبد الله عبد العزيز : الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب 1977.
16) بنمنصور عبد الوهاب : حفريات صحراوية مغربية، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب 1975.
17) بوعلام عبد المولى : فتاح سبيل النجاة شاطئ المحيط في نسب قبيلة أزوافيط، مخطوط، كلميم المغرب.
18) بوكريشة محمد مولود : مدخل للحكاية الشعبية في التراث الحساني، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/07/01.
19) بويس محمد : دراسة في الشعر الحساني، بحث للاجازة، كلية الآداب، الرباط المغرب 1980.

20) الجراري عباس : أ- الزجل في المغرب: القصيدة، مطبعة الأمنية، الرباط، المغرب 1970.
ب- النضال في الشعر العربي بالمغرب، دار الثقافة، البيضاء، المغرب 1978.
ج- ثقافة الصحراء، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب 1978.
21) جماعة : أ- باقة شعر من أقاليم الجنوب، وزارة الثقافة، الرباط، المغرب 1985.
ب- باقة شعر. باللهجة الحسانية، وزارة الثقافة، الرباط، 1985.
22) جماعة : الجمهورية الاسلامية الموريتانية، معهد البحوث والدراسات العربية، دار نافع، القاهرة، مصر 1978.
23) الجوماني محمد : أسئلة حول الأدب الحساني، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/02/04.
24) حجي محمد : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب 1977-1978.
25) حكيم محمد : السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية، بنشرة، الدار البيضاء ، المغرب 1981.
26) خنفر علي : تقييدات شرط قبيلة أيت ياسين، مخطوط، أسرير، المغرب 1925-1934.
27) خنفر محمد علي : أ- كتاب الوسيط للشنقيطي: منهجا وموضوعا، بحث جامعي، كلية الآداب، فاس، المغرب 1985.
ب- الأدب الحساني يحتاج إلى جهود للنهوض به، جريدة البيان الثقافي، الدار البيضاء، المغرب 1988/01/10.
ج- الحسانية أقرب لهجة إلى الفصحى، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء 1993/10/01.
د- تافلويت بين التنوع والوحدة، جريدة بيان اليوم. 95/08/05.
هـ- ابن تيفلويت: مرحلة تأسيس عروض الشعر الحساني، جريدة بيان اليوم 95/02/05.
28) خنفر محمد فال : الموسيقى الحسانية بين الأمس واليوم، بيان اليوم 1994/06/05.
29) الديمانج حامد : تحقيق في حرف الجيم، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب 1974.
30) الديه فاطمة العزيزة : ملاحظات حول اللهجة الحسانية، بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 7-1995/02/8.

31) الرباني محمد عبد الرحمن : أ- مدخل إلى الشعر الحساني، مجلة رياض الصحراء، الدار البيضاء، المغرب 1993.
32) الرصافي محمد معروف : الأدب الحساني، ندوة الأدب والوحدة الوطنية، العيون، المغرب 1991 .
33) الركيبي محمد سالم : أ- جوامع المهمات في أمور الرقيبات، مخطوط الزويرات، موريتانيا 1940.
ب- جوامع المهمات في أمور الرقيبات تحقيق مصطفى ناعمي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب 1992.
34) السباعي عبد الله : الدفاع وقطع النزاع عن نسب الشرفاء أبناء أبي السباع، (د. ط/م.) 1986.
35) السباعي محمد : تهذيب الأفكار في أدب الشعر الحساني المختار، المطبعة الجديدة، انواكشوط موريتانيا 1992.
36) السوسي محمد المختار : أ- الالغيات، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب 1963.
ب- ايليغ قديما وحديثا، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب 1966.
ج- خلال جزولة، المطبعة المهدية، تطوان، المغرب 1961.
د- سوس العالمة، بنشرة الدار البيضاء، المغرب 1984.
هـ- معتقل الصحراء، مطبعة الساحل، الرباط، المغرب 1982.
و- المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب 1961.
ز- من أفواه الرجال، المطبعة المهدية تطوان، المغرب 1962-1963.
ح- منية المتطلعين إلى من في الزاوية الالغية من الفقراء المنقطعين، المطبعة المهدية، تطوان، المغرب 1961.
37) السولامي ابراهيم : الشعر الوطني في عهد الحماية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب 1974.
38) الشامي علي : الصحراء الغربية: عقدة التجزئة في المغرب العربي، دار الكلمة، بيروت، لبنان 1980.
39) الشنقيطي أحمد : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء المغرب 1961.
40) الطالب بويا لعتيك ماء العينين : أ- دراسة الشعر الحساني، وزنه وعروضه، مخطوط، كلميم، المغرب، (قبل 1986).
ب- الحسانية والشعر الحساني: لهجة عربية، وشعر له أوزانه وضوابطه، جريدة البيان الثقافي، الدار البيضاء، المغرب 1987/12/16.

ج- الأدب الحساني بين القديم والحديث، محاضرة مرقونة، كلية الآداب، آگادير، المغرب 1993.
41) عبد ربه محمد : أ- بنية السرد في الحكاية الشعبية الحسانية، بحث للاجازة، كلية الآداب، مراكش المغرب 1988.
ب- ملاحظات حول الثقافة الشعبية الحسانية، بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/03/06.
ج- الحكاية الشعبية الحسانية، جريدة بيان اليوم،، 1995/07/19.
42) عناني محمد زكريا : الموشحات الأندلسية، مطابع الأنباء، الكويت 1980.
43) عيديد الحبيب : الشعر الحساني علاقة الكلمة بالانسان، بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1993/12/03.
44) الغربي محمد : الساقية الحمراء ووادي الذهب، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب 1974.
45) الغزواني محمد : أ- لن يفصل المغرب عن جذوره الصحراوية العريقة، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء 1993/06/16.
ب- المناورات الاستعمارية واحتلال الصحراء المغربية، جريدة بيان اليوم 1993/06/19.
46) الفاسي علال : دفاعا عن وحدة البلاد، مطبعة الرسالة، الرباط، المغرب (د. ت.)
47) الفاسي محمد : معلمة الملحون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب 86-87.
48) فكيح عياد : دراسة حول قبائل تكنة، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب :94/4/1
49) كريدية ابراهيم : ثورة الهيبة بن ماء العينين، شركة الطبع، الدار البيضاء، المغرب 87.
50) الكوناني ماء العينين : صورة المرأة في الشعر الحساني، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/10/06.
51) المدسم الوافي : أ- أمثال شعبية حسانية، مخطوط، كلميم، المغرب.
ب- الحكاية والشعر في التراث الحساني، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1993/10/01.
ج- التقويم الزمني الحساني، جريدة بيان اليوم 1995/02/03.
د- يقول المثل، سلسلة أمثال من نحو 50 مثلا، جريدة بيان اليوم، بين سنتي 93-1995.

52) ماء العينين ماء العينين : صاحب الجاش الربيط، دار الفرقان، الدار البيضاء، المغرب 1985.
53) المامي محمد : السلطانية (في مناقب الملوك العلويين)، قصيدة مطولة في 350 بيتا، مخطوط العيون، المغرب قبل 1875.
54) مسكة أحمد باب : أ- Al WasiT, Tableau de la Mauritanie au debut de XXème siècle, Librairie C. Klincksieck, Paris, France 1970.
ب- الوسط صورة موريتانيا في بداية القرن العشرين، ترجمة الفتاحي حسن، بحث للاجازة، كلية الآداب، فاس، المغرب 1973.
55) مقلد محمد يوسف : شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، المغرب 1962.
56) المنوني محمد : المصادر العربية لتاريخ المغرب، بنشرة، الدار البيضاء، المغرب 1983.
57) الناصري أحمد : كتاب الاستقصا، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب 1956.
58) ناعمي مصطفى : الصحراء من خلال بلاد تكنة، عكاظ، الرباط، المغرب 1988.
59) النحوي خليل : بلاد شنقيط: المنارة والرباط، تونس 1987.
60) النص باهي العربي : من التفرقة القبلية إلى مجتمع عصري موحد، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/06/05.
61) نوريس (هـ) : الموسيقى والغناء والرقص الموريتاني، ترجمة كاظم سعد الدين، مجلة التراث الشعبي، بغداد، العراق، ع 1979/12.
62) همام فال : نزهة الأيام ومصباح الظلام، مطبعة الشركة الموريتانية، انواكشوط موريتانيا 1980.
63) الوزان الحسن : وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، المغرب 1980-1982.
64) ولد أحمد ومحمد : الوزن والقافية في الشعر الحساني، بحث للاجازة، كلية الآداب، الرباط، المغرب 1983.
65) ولد أباه محمد المختار : الشعر والشعراء في موريتانيا، تونس، 1987.
66) يعتة علي : موريطانيا إقليم مغربي أصيل، مطبعة الاتحاد، الدار البيضاء، المغرب 1960.

*****

الشعر الحساني وكيفية صناعته

محمد عبد الرحمان الرباني(*)

التعريف بالشعر الحساني، لغة هو تعبير كل قوم عن أغراض بأصوات هي اللغة. وأما حد الفن فهو علم يبحث فيه عن مفردات الالفاظ الموضوعة من حيث دلالتها. قال بعض المحققين إن مفردات اللغة نصف العلم. والشعر الحساني لايختلف في شكله ومضمونه عن الشعر العربي الا بقليل.

لقد تأسس هذا الشعر سنة 250 هجرية في هذه البلاد باللهجة الحسانية التي يتداولها أهل هذه المنطقة، وأسسوه على أغراض مختلفة منها : المدح والوعظ والتوحيد، والغزل والنسيب، والوصف، والهجاء، والرثاء، والقصة واللغز.

أما البحور فهي كالتالي : بتْ امْرَ يْمِيدَ، وبَتْ بُوعْمْرانْ، وبت السفير، وبت : لِبْيِر، وبت لِبْتَيت التام. وهي موزعة على الفن الموسيقي حسب التوزيع التالي : امْر يْميد، مع اكْحَال : كَرْ، وبوعمران مع سَيْنِ، والسْفيَرْ مع : اكْحَالْ هيبَ ولبير، مع لبْيَاظْ ولْبِتَيت مع أمظال بيك.

كيفية صناعة البت :

فلنبدأ ببت امر يميد، إن هذا البت يتزلف من سبع حركات هي كالآتي : (للأستاذ محمد عبد الرحمان الرباني) :

(*) شاعر الوحدة الوطنية، من أبناء الصحراء المغربية

مـــــا گَطْ ولأدَمْ خَـــــصنْـــــر	بالـشْــــزْ وسَـــــرتْ وخْـــدتْنَ
ألاَ گَـط نـظام اتْـبَـــــمنْــــــزْ	بالْـمَـک يحـــــذَفْ بَيْــــعـــــتْنَ

نظرة على ترتيب حركات شطر هذا البت :

o 7 o 6 o 5 | 4 o 3 o 2 1

7 o 6 o 5 o 4 o 3 o 2 o 1

o 7 o 6 o o | 5 4 o 3 | 2 1

7 o 6 o 5 o 4 o 3 o 2 o 1

أما عن بت بعُمران فيتألف شطره الواحد من سبعة حركات.

يقول الشيخ محمد المامي :

يالـرَّب أمـل بـتـــــر شـْـــــريش	كـــــيفْ مـليك نَـوْبَـتْ عِـــــلاَّمْ
لَـيْـن يْـبْـک بَـرْبِـيـع فَــــــيَـشْ	بَّـيْـن يَـفْـــــــرَفْ هـو والـدَّامْ

o o 7 o 6 o 5 4 o 3 o 2 o | 1

o | 7 o 6 o 5 o 4 o 3 o 2 o 1

o o 7 6 o 5 o 4 o 3 o 2 o o 1

o | 7 o 6 5 o 4 o 3 o 2 o o 1

أما بتْ السُّفيرْ فكما يلي :

بـفـى امْـــــــــبِــيـن ذي زْكَـيرّ	فــــــــيْـــــــــان تـلادْ
ورجَـــــــــــيْـتْ إخْـلـوه فَـي	لـــــــولاد الــــــلـــــــوْلاَدْ

7 o 6 o o 5 4 o 3 o 2 1	o 5 | 4 3 | 2 o 1
7 o 6 o o 5 o 4 3 o o 2 o 1	o 5 o 4 o 3 o | 2 o 1

أما بتْ لِبْيَرْ فكما يلي (للاستاذ محمد عبد الرحمان الرباني) :

لَاشْ الْمَـــــا بَايِعْ مَنْطِفَنْ   بِيـــــهْ إِنْ گَلْتْ إِنْ ضَـــايَعْ
رَاجِلْ مَـــابَايِعْ حَكّ عَنْ   ضَـــايِعْ رَاجَلْ مَـــابَايِعْ

أما بت لِبتيْت فأنواعه خمسة :

1. البتْ لكبير
2. بتْ اثماني : كامل
3. بتْ ست : ناقص
4. بتْ خمس : ناقص
5. بتْ أربع : ناقص

ويتضح للقارئ الكريم بادئ ذي بدء، الفرق بين الشاعر الفصيح والشاعر الحساني، لأن الشاعر الفصيح يعد رساماً تجريديا، بينما يظهر الشاعر الحساني وكأنه نحات مجسد، كما يتضح لك في هذه الصورة التي أحدث الفراق لهذين الشاعرين عند ارتحال الأحبة الذي أسال دموع العين وأذكى نار الشوق في قلب كل منهما، فأصبح كل منهما وكأنه الغصن الناعم، الذي يرشح أحد جانبيه عندما يتحرق جانبه الآخر باللهيب، فأنشأ العربي يقول : (من البسيط)

كـان عـيـني وقلبي بعـدكم طرفـا   غـصـن من البـانة الخـضـراء فـينان
يسـيل جـانبـه مـاء اذا اشـتـعلت   نار مـوجـجـة بالجـانب الثـاني

ثم يقول الشاعر الحساني وكأنه يجسد نفس الصورة : (من بت لبْيْر)

كَـلْـب بـالـبَـيْـع يَـتْـنَـكَّـرْ وارْمَسَاكْ اجْـفُـون كَـاصْ
كِـيفْ الْعُـودْ الِّي يَـنْـشَـرْ رَاصْ وانْـزَنْـزْ رَاصْ

إن الشعر العربي ينشد في أي مقام موسيقي، والشعر الحساني : كلبتيت، التام ومَوْمَابِيتْ البتْ لكبِيرْ. والبتْ لكْبِيرْ نفسه، كل هذه لبْتُوتْ، كثيرا ماتَنْشد في اكحال : كَرْ، وسَيْنِ كَرْ اللّذين هما : مقام فاغْ والتحرار.

ونورد في هذا السياق نموذجا من (البت لكبير) في صفات الله:

التكسر، للشاعر أحمد بَنب
صِفَاتْ يَنْكَرَا وْمِنْ فَاسْ إلَـا ابْسَرِيرْ
والذَّاتْ اصْ إلِى ذَاكْ ألاَّ يكْصَرْ
خَلفْ اتْرَابْ افْرَاشْ ماتشُوف فيهَ سَيرْ
وبْنَ اسْمَ بْلاَعْمَدْ وَنْشَاهْ بْلاَ أوجَرْ
والزَّوَاتْ صَمْرَهَ دُونْ لَمْسَامِيرْ
وافْطَنْ شِ صَمَرْ مُلاَنَ أصَمَرْ

ومن لبتيت التام (بت 8) :

عَـاكْبْ شَـوْقْ اتْرَابْ إفْـلاَنْ والتَّـيْـدُومْ أصَـرْزْ اكْنَـاتْ
شَـوْفَـنِ يَـبْ لِـمْـزَانْ وادْ الْـمَطْـفْ الغَـشَـارِيَّـاتْ

شَــــوْقُن يَالْحَيْ الْقَـــدِيرْ عَـــاكِبْ شَــوْقْ اتراب ابْسَـــرِيرْ
لِتَــشِيْ وَانْكَابْ الْبِــــيــرْ والْـوَادْ إلْ نَـاحْـــــر لِــكْـلاتْ
وَمُـــزَانْ أمْنُحَـــرْ تَكْجِــيـــرْ والزَّمْلْ والكِزْمَـــيْــــرِيَاتْ

ومن ابتيت : (6) من الموشحات للأناشيد :

انْـمِنُـــــرْ لِمَــــسُلْكِنْ يَـلْ مَــــــالَكْ ثَـانْ
جَــــــلالِـتْ مَـلِـكْنْ الْحَــــسَنْ الـثّـــانْ

ونسوق كنموذج من بت : (5) حَذْو اجْرادْ (للأستاذ الرباني)

اخْــــنَ يَـــالاَغْــلَ تَـعْلَمْ صِـــيـــفْــــتِنَ
وخـــــمــــــدْنَاك اعْلَ مَـــــعْــــرِيْــــتِنَ

وهذا موشح من الأناشيد من بت : (4) احْويويصْ : (موشح من الأناشيد، للأستاذ الرباني) :

طَــــانْ عِــــــلْــــمْ رَبِّــــــى انْــــــتْ
وحَــــمَـــــدت الم لانْ حَــــــــــتْ

*****

إشراقات من الشعر الحساني

الطالب بوي لعتيك(*)

إن الحديث عن الأدب الصحراوي المغربي يقود قبل كل شيء إلى الحديث عن البيئة الصحراوية التي نما فيها هذا الأدب وترعرع حيث الإنسان الصحراوي في بداوته الأولى قبل أن تمتد به السنين، وتتعاقب عليه دوالب الأيام، فتعيضه عن خيمته قصرا أو ڤيلا أو منزلا أو كوخا، وعن جمله سيارة أو دراجة أو طائرة...، فلقد كان الصحراوي في باديته يسكن خيمة من الشعر تنسجها امرأته بمساعدة جاراتها وتشيدها بمساعدته لتحتوي كافة مستلزمات البيت من (تيزيّاتن) الاكياس الجلدية المعدة للخزن و(صرامي) وسائد جلدية و(الرحلة) عيدان حمل القرب وتصفيف المتاع داخل الخيمة.. وتأوي الأسرة بجميع أفرادها حيث تعيش في وئام وانسجام. ويسكن أهل الصحراء على شكل مجموعات تسمى (الفرگان) ج فريگ، أي الفريق، لأن الحياة في الصحراء، تتطلب نوعا من الأنس والتعاون، ولو أن البعض يرجع سبب ذلك إلى أسباب أمنية، لكن الحياة في الصحراء آمنة مطمئنة في غالب الأحيان، تطبعها روح التعاون والصدق في المعاملة، أما وسيلة النقل التي تجوب أطراف الصحراء المترامية بكل صبر وبأقل وقود، فهي الجمل ويسمى (أزوزال) ج (آزوازيل) ونعني به الجمل

(*) باحث في أدب الصحراء المغربية، مندوب وزارة الشؤون الثقافية بگلميم.

المغصي، ويستعمل للركوب وحمل الراحلة والمتاع. وكلما دربت الأنثى على القيام بنفس المهام، إلاوسميت (الصيدح)، وقد كان للجمل أسماء عديدة تبعا لسنه واستعمالاته منذ ولادته إلى أن يبلغ سن الشيخوخة، لا مجال لذكرها الآن، وإنما اقتصر على أن كلمة الجمل، بصريح العبارة، تعني الفحل الذي تقتصر مهمته داخل القطيع على تعشير النوق، وللإشارة أيضا، فإن فحلا واحدا، يكون لقطيع إبل، فمن المستحيل بتاتا أن يوجد فحلان في مجموعة إبل واحدة، نظرا لشراسة طباعه. وفي عرف أهل الصحراء، يقال باللهجة الحسانية (فَحْلَيْن ما يِنْهَدُ وافْدَوْلَةْ)، أي ان فحلين لا يتركان في دولة إبل، أي قطيعها. ومن المسميات الأخرى، هناك أوسْراطْ وأداريفْ، وهناك أراجْ وأشْنَانْ، وهناك لكْعُودْ كناية عن الفحل أيضا.. وكلها أسماء تطلق على الجمل في مراحل تدريبه على الاستعمال منذ أن يجتاز فترة الرضيع، التي يسمى خلالها (لِحْوَارْ) أي الفصيل، إلى أن يبلغ سن الشيخوخة كما قلت.

إلى جانب هذين العنصرين الأساسيين في الصحراء، أي الإنسان والبيئة الصحراويين، نما الأدب الحساني وكان بمثابة الرابط الأساسي بين مكونات الحياة الصحراوية من الإنسان إلى الجمل إلى الخيمة إلى عناصر البيئة الأخرى بما في ذلك المطر والربيع والليل والنهار والبرودة والهاجرة والأشجار والتلال الرملية، وغير ذلك، فجاء مرآة صادقة، عكست الحياة الصحراوية بكل حالاتها الإجتماعية والسياسية والإقتصادية. فصورها تصويرا دقيقا، شفافا، صادقا، حيث حفل بالفخر والهجاء والرثاء والبكاء على الأطلال والحماسة والفخر بالعشيرة، وتغنى بالمرأة والجمل، فأنشد شعرا وتلي تعبيرا منمقا، يصف أماكن السكن والأرض

المعشوشبة والغدران الطافحة والعرصات الفيحاء. ثم أمضى الصحراوي وقته في النكات والأحاجي، فكان حديثه نثرا بليغا طيبا، حسن السبك والتعبير، أما ما أنشد شعرا، فقد تغنى به الصحراوي حاديا وراء قطعانه على جنبات الغدران وبين عرصات الربيع تحت أشعة القمر المتلألئ أو أثناء جلسات الشاي ذي الكؤوس المترعة الطافحة بالبساطة واللين والعفاف ودماثة الاخلاق وكرم الضيافة.

والشعر الحساني منسوب إلى أولاد حسان، وهم - كما في بعض كتب التاريخ - من بطون معقل، استوطنوا المغرب من جنوب السوس إلى نهر السينغال، وهو الجزء الذي يضم الصحراء المغربية والقطر الموريتاني الشقيق، الموطن الأصلي للهجة الحسانية أداة هذا الأدب شعره ونثره.

واللهجة الحسانية لهجة عربية، يكثر فيها تسكين الحرف الأخير غالبا، وتكثر فيها السواكن بتداخل مع المتحركات، وهي في غالبها عربية ظاهرة، إلا أنها تحتوي أحيانا بعض الكلمات القليلة التي لا أصل لها في العربية. والشعر الحساني شعر منظوم له أبحر وأوزان بسواكن ومتحركات، لا يمكن تجاوزها في النظم، ويتكون البيت فيه من أربعة أشطار، يسمى الواحد منها تافلويت ويسمى البيت كله (بالگاف) بحيث يكون لشطريه الأول والثالث نفس الروي ونفس الحركة، ولشطريه الثاني والرابع أيضا رويا وحركة واحدة. وإذا اتفقت الأشطر الأربعة في الروي، وجب اختلاف الحركة على النحو المذكور سابقا. يقول الشاعر:

يالعكل امْنَلْ تَرْجــــــاه   مَـا ثَلْيَتْ امـحـمَلْكْ شِـيْ
گَـــــــايِـتْ امْ تَـوعْ وَرَاه   مَـــــاذْ يُوهْ امْنَلْ وَعْـــــاي

وأقل بيت في الشعر الحساني يتكون من أربعة أشطر ولا حصر لأكثره، لكن إذا زاد على الستة أشطر، يرقى إلى درجة (طلعة) أي القصيدة، ولهذه الأخيرة أيضا نظام خاص يختلف عن نظام الگاف (البيت) فانطلاقتها تكون بثلاث تيفلواتن (أشطر) لها نفس الروي ونفس الحركة، وتسمى (حُمُرُ الطلعة) أي مطيتها للإنطلاقة، أما الشطر الرابع فيختلف عن الثلاثة الأولى ويسمى الكسرة، وبعد الحمر والكسرة تأخذ الطلعة نظام الگاف في التركيب، أي شطر على غرار الحمر وآخر على غرار الكسرة ولا حصر لأكثرها وأقلها ستة أشطار.

يقول الشاعر:

بيْ هذْ الشـيْـبَـات   كَـارهْ عنْ الغَـيَـاة
ْعنْ انْشُـوفْ امْلَيْـحَـات   لسْـتَـغْـفَـارَاتْ امْـسَـات
مَلْهَـا هُمْ وامْرُوْيَـات   مِـنْ تُوكُـمَـات

وقد تطول الطلعة فتأخذ مسميات عدة فهي الكرزة (بترقيق الراء) أواتهيدينة إذا ما تزامنت عمليتي الابداع الشعري والغناء لدى الشاعر، وعند ذلك تثير حماسا أو مدحا ملفتا. وقد يبدع المبدع عدة قصائد يختتمها ببيت واحد (گاف) وعندئذ تسمى (مِظَّايْراتْ اعْلى گاف) أي كأنهن ضرات لبيت واحد، وكلما ختمت القصيدة الحسانية بكلمة تدعو إلى التساؤل والبحث عن جواب، تجده في الكلمة الأولى التي ابتدأتها بها فهذه تسمى (عاظْ اسْبِيبْه) أي حلقة مغلقة، وهي من جيد الابداع، ولا توجد إلا عند ذوي الخبرة على غرار المثال السابق، فالشاعر يقول إنه أصبح يرى فتيات صغيرات السن يتأتى ملهاهن ولا يستطيع ذلك لهروبهن منه، والسبب ما بدأ به القصيدة بِيْ هَذْ الشيبَاتْ، ونجد ذلك في

البيت العربي القائل:

قالت بنات العم: ياسلمى وإن　　　كان فقيرا معدما قالت وإن

وللإشارة فان الشعر الحساني له منتجان: منتج مغني شاعر، ومنتج شاعر فقط، والشاعر المغني يسمى (إيگيوْ) ج (إيگاوُنْ) وهم المطربون، وتسمى أنثاه (تيگّيويت) ج (تيگّوَاتِنْ) أما الشاعر فهو الذي ينتج الشعر الجيد ولا يغنيه، ويجيد نقد الغناء، وله خبرة بالمقام المغني فيه أو الذي سينتج على منواله، ويتمتع (إيگيو) بصوت جميل وخبرة واسعة في شد الأوتار ودوزنتها، وله إلمام تام ببحور الشعر وأنماط الغناء، وله آلة يعزف عليها تسمى (تيدِنيتْ) ولأنثاه آلة تسمى (آرْدِينْ) ويسمى الشاعر بالحسانية (لِمْغَنِّ) ولا تعني المطرب بتاتا وإنما هي قياس المبدع المجيد للشعر الحساني.

وللشعر الحساني أبحر يغنى عليها، كما له أوزان يوزن على منوالها، وأثناء وزن البيت أو الطلعة، يجب الاعتداد بالمتحركات ولا حصر للسواكن، وأكثر المتحركات ثمانية، وقد تكون عشرة لكنها نادرة، وتسمى الأبحر عند أهل الحسانية (لبتوت) ج (بتٌّ) وتعتبر الميزان الحقيقي للشعر الحساني، وهو بمنزلة العروض للشعر العربي، ولكل (بَتٌّ) إسم وعدد من المتحركات يجب أن تتوفر في الشطر الواحد ويقاس عليه بقية الأشطر، وكمثال على ذلك هناك البت الكبير من سبعة إلى عشرة متحركات ولبتَيْت (تصغير البت) التام وهو ثماني متحركات، ويليه ما نسميه التيدوم وهو سبعة متحركات، ويليه لبتيت الناقص ستة متحركات، ويليه ما يسمى عند المغنين حثُّوُ الجراد كناية عن سرعته وهو من خمسة متحركات، ويليه المختطف من أربعة

متحركات، وهناك أيضا بَتْ متحركين ومتحرك واحد وهو نادر، وللشعر الحساني – بصفته شعرا غنائيا – أبحر يغني عليها مقسمة أول الأمر إلى أربعة هي: سَيْنِي – فاغُو – سِنْيمَة – لِبْتَيْتْ. ومالبث المغنون ان طوروها إلى ثمانية، حيث قسموا البحر إلى بحرين قياسا على شد الأوتار وارتخائها، وأطلقوا على كلتا الحالتين إسما من خلال صفتين بيضاء وسوداء، فكلما تم شد الأوتار وأحكم وتعالت أصوات المغنين، إلا وكان لون الجانب المغنى فيه أسود، ويكون عكس ذلك أبيض في المقام المغنى فيه نفسه، ولا أستطيع الخوض في هذا الميدان لأنه يتطلب أمثلة وقياسات كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، ورغم ذلك فسأعطي صورة لانطلاقة المغني الذي يبدأ بدوزنة آلته ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ما نسميه المديح، ثم ما يلبث أن ينتقل منه إلى بحر سيني وكأنه ركب راحلته ويمم صوب الأحبة وأنشد من روائع الشعر غير آبه بما يعترضه من مسافات وأهوال كأن يقول مثلا:

يالْعَكْلْ امْنِلْ تَرْجَاهْ	مَا ثَلَيْتْ امْحَمَّلْكْ شَايْ
كَانَتْ امُّ تَوْعَ وَرَاهْ	عَادْ بُوهْ امْلْ وعْشَايْ

المعنى انه فقد الأمل ممن كان يرجو لقاءها وقت السرى، فقد كان يتحاشا يقظة أمها التي لا تنام كثيرا، فإذا بالأب أيضا أصبح يقظا هو الآخر، فما العمل يا ترى؟

ولا يلبث المغني أن يحسن شد أوتاره ويستعد لتشجيع سيد العشيرة لمواجهة العدو أو مدحه بشتى الخصال الحميدة، وذلك ما يسمى فاغو، بعد ذلك يحاول ان يتخلص من هذا الجهد ويتحرر بكلمات شعرية وئيدة، من الحماسة وإظهار القوة، إلى الهدوء والرتابة، وهو ما نسميه اكْحالْ سنيمة ثم بياضها، ويلي ذلك أخر

البحور الحسانية وهو لبتيت وله أيضا بياض وسواد، قياسا على ما سبق ذكره من شد الأوتار وارتخائها. ومن خصائص هذا البحر الهدوء والسكينة، تنشد فيه المطولات الغزلية والطللية، ويقوم خلاله المغني بسرد بعض الحكايات الغرامية، يقطعها من حين لآخر بعزف مرير وإنشاد خفيف، فلا تسمع الا تأوها من طرف الحاضرين ينم عن الترنم والإعجاب، وأكثر الوقت ملاءمة لهذا البحر، سكون الليل ويقظة السمار وهمس الندامى وحشرجة الأوتار...

أما عن أغراض الشعر الحساني، فلم يترك غرضا عالجه الشعر العربي الا جاء به وأجاد بل ان فن المساجلات على غرار نقائض جرير والفرزدق مثلا، لترى في الشعر الحساني على مستوى عال من الجودة، مع انها تعالج هي الأخرى جل الأغراض من مدح وهجاء ورثاء وشؤون اجتماعية وفخر وغير ذلك، وعموما فقد كان الشعر الحساني لسانا ناطقا أمينا على ما أودع فيه من صور صحراوية مختلفة أملتها البيئة الهادئة المطمئنة التي عانقها الصحراوي وعانقته، وسأكتفي بإعطاء بعض النماذج من هذه الأغراض مع إلقاء الضوء على بعض الصور الجميلة التي جاء بها خياله المتقد يقظة وذكاء وفطنة. يقول الشاعر الحساني في المدح:

أحْمَدْ للدِّيدْ إلى تِذْكَرْ — لِعْدْ تِنْـطْ فجْمَرْ
وُالْكَلْبْ إخْفْ أيشْتَمْ — مِنْ ذكْرُ بِلْفَيَاف
لَيْثْ اسْلِيطْ أحْمَدْ مِشْتْهَرْ — بِرَجْلَ حَساف شَاف
واثْرْ الرجْلْ مَسْفَاتْ مَرْ — ألا رِدْمْ فَاتْ السْاف
يغْط للطْرْبْ أمُولْ هَوْلْ — وَدِيبْ ألاهْ حَاف
واعْلْ اللّه شَاكِلْ وارْسُولْ — وَدِيبْ ألاهْ حَاف

يصف الشاعر ممدوحه بشتى الأوصاف البطولية المستقاة من البيئة الصحراوية، فعند ذكر الممدوح «أحمد للديد» ترتعد فرائص

العدو ولو كان ذكره في الفلوات، حتى لكأنها تطأ اللظى وتخف القلوب وكأنها ستفر من أقفاصها الصدرية لماذ إذن؟ لأن احمد للديد أسد هصور، سليط اليد، اشتهر بالرجولة، يشفي الغليل فيها وأثر خطاه فيها لم تمحه الرياح المحملة بالحصى (السّافِ)، يعطي لأهل الطرب، صاحب دعابة وطرب، أديب مؤنس (ماهْ حَافِ) يتكل على الله ورسوله وينفي ما سواهما. فمن خلال هذه الأوصاف التي نعت بها الشاعر ممدوحه، نستشف حركية أخذتها القصيدة ارتفعت بها عن الركود، فهناك قوة واندفاع تعبيرا عن القوة والصرامة إلى جانب الظرافة والطرب والاعتماد على الله.

أما المرأة فقد حازت أكبر قدر في حياة الانسان الصحراوي الشعرية لأنها ألفته في جل أوقاتها، ساندته وساندها وملأ كل منهما فراغ الآخر، فجاء فيها بشعر بارع مصورا لمواقفه معها بكل رقة وعذوبة وشفافية، انساب من بين أضلعه رقيقا، فقطرته الشفاه زلالا صافيا، وعانقته الآذان رطبا لينا، وانساقت له النفوس طيعة نشوى، وذلك لما ابتكره من صور خيالية صيغت بإحكام حتى لكأنها واقعية تماما. وكنموذج، نستمع لهذه الرائعة:

يَا مسْ يَقْلَ مِّيدْ النُّهَار   انْقَضُولْتْ انْتُومَ مِظَار
خَظْتْ امْنَحْذَاكُمْ لَصْفِرَار   هَلْتَكْ هَوْفَ بَاتَ بِي
وَالْرِبِي كَثْرِتْ لَغْبَارْ   اِلْمَزْتِكْ غَمْزِي حِي
وَاظُلْل صَنْبِدْكْ فَاتْ اشْكَارْ   نْجَه وَاخْتَارْ عِينِي
وَاسْكَنْتْ اهْلْ ذَاكْ التُطْلُوا   وَاتْهَمْ عَنْهْ حَالْ فِي
أمْتْ الأكّدْ امْنَيْنْ الْيَمْ   انْشُوفْكْ خَوْفْ الْمَشْلِي
الرّمْشْ عِينِي وَانْتَمْ   فَمْزِي تَغْكَبْ غَمْزِي

إن شاعرنا لسوء حظه مر بجانب من أوقعته في شراكها وقد أوشكت الشمس على المغيب (الإصفرار) وهي آنذاك بجانب زوجها،

ولشدة الهيام بها، لم يتمالك نفسه وبعث إليها رسالة بطرف عينه، ومن سوء طالعه صادفت رسالته عيني زوجها وقد حملقتا كالشهب، فاصفر وجه شاعرنا المتيم المسكين واحمرت عيناه من الخوف، لكنه انقذ الموقف لشدة ذكائه وسكن على حالته وبدأ يرسل سيلا من الغمزات متلاحقا وكأن به مرض غمز مستديم....

هذه الصورة الأدبية الرائعة تنم عن خيال واسع، وذكاء حاد وتصوير دقيق، لموقف متميز حتى لكأنه واقعي.

وفي خيال آخر ولتصوير حالة مختلفة يقول شاعر آخر:

اظْحَكْتْ الْــــبَيْلْ أرَاك ... مِنْ غَيْرتْ صَيْدكْ ذَاك
هُوْ كَانْ اثْرْ شَاكْ ... إنَّ خَالفْ بَانْ
مَا تَظْحَكْ كُونْ امْعَاك ... واثْرْ خَاظْ اخْذَانْ
واسْتَنْهُمْ يَلْعَرْه ... مَنْكْ فَمْ أجْـــــانْ
ألاَّ جَسْبِرِكْ وابْكْ شَاه ... لَغْبَارْ امْعَيَانْ

لقد ضحكت من زوجك ومن غيرته عليك كثيرا، ذلك انه كان يظن أني لا أسلو بغيرك أبدا، ولما مر بجانبنا ظن أنك معنا فلم يتمالك ان دخل، ولما لم يجدك أخذ يتجاذب معي أطراف الحديث الذي لم يكن هدفه الحقيقي ولكن صيانة لماء الوجه...

أما الهجاء في الأدب الحساني فلم يكن فاحشا بذيئا ولكنه اقتصر على التلميح والاشارة وهو قليل نسبيا، وكمثال على ذلك ما تحاور به الشاعران في المساجلة التالية: قال الأول:

اشْرُوطَكْ يَحْمَدْ مَا هُمْ كيفْ ... اشْرُوطْ البِكْم بالتَّخْفِيفْ
عَنْدَكْ طُوبتْ شَبيبْ اظْرِيفْ ... تمْسِيشْ تَكْمَرْ عَيْنْ الْعَارْ
بَيْتَكْ زَيْنْ أصِرْمَكْ نَظِيفْ ... فَيْسرْ ازْنَادَكْ مَا فِيهْ النَّار

فأجابه الثاني:

أزْنَادْ لِمْـعَلَّمْ بَنْـيِـهْ ... نَكّـولْ واخْلَفْ مَـا يِسْكِيـهْ
بِيـهْ الحَقْ انَ مَـا نَعْطِيـهْ ... فَـيْـسَرْ امْ لِمْـعَلَّمْ نَكَّـار
امْشْ بِكْرَاعَكْ لَيْنْ اتْجِيـه ... واحْكِيلْ هَذَا مَلْخَـبَّـا
ابْفُـمْكْ عَنْ شَـيْنْ اعْلِيـه ... نَكّـولْ لِزْنَادْ ابْلاَ نَارْ

في القصيدة الأولى يلمح الشاعر إلى أن مخاطبه يملك أدوات تدخين جميلة (الشروط) بما في ذلك عود الثقاب (تمّيشة) وعظم التدخين الأنبوب المسمى (الطوبة) إلا أنه قال في معرض مدحه إياه (تمّيشَة تكصر عين العار) وكسر العين كناية عن عور بعين المخاطب، وعند الحسانيين فلان يكسر في عينه أي به عور، وهنا أجابه الثاني بما يلمح للمعايب التي به هو أيضا مبتدءاً بقوله (الحق أن ما نعطيه) ويعني إعطاء الغرامة ثم قال له (امش بكراعك) وهي إشارة إلى ان به عرج، وفي قوله له و(احكيلُ هذا ملخبار ابفمك..) كناية عن أسنان فمه الساقطة... كل ذلك تم بطريقة لا يستطيع إدراكها إلا من له معرفة بالمخاطبين مع الذكاء الحاد.

أما البكاء على الأطلال فقد أجاده الشاعر الحساني أيما إجادة، بكى على الطلل بقلب كليم وذرف دمعا مدرارا ونفث من كبد حرى حيث قال مثلا:

حَـدْ اكْـصَـرْ لِ ذَ الدَّهْرْ الْكَطَّار ... الدَّمْعْ اعْلَ دَارْ امْـبَـطَّارْ
حَكْ انْذَاكْ اعْلَ مِـثْلِ عَـارْ ... يَكْصَـرْ حَـدْ اتْوَاسِـيـهْ
فَـيْـسَرْ اكْطَارْ الدَّمْعْ اعْلَ دَارْ ... امْـبَطَّارْ ابْلاَ غَـرَظْ فِـيـهْ
فَـالْحَكْ انْ مِـتْـفَكْدَشْ ... فَمْ امْـسَـيْـبْتْ اتْرَاهْ أبْدِيـهْ
وَتْـمْ الـدَّمْـعْ الأَبْـيَـضْ ... مَـاهُ كَّـاعْ انْ لِمْـشِـبْـهْ

لئن عاب علي أحد كوني ذرفت الدموع على (دار امبطار) قد يكون ذلك صحيحا نظرا لأن مثلي يعاب عليه ذرف الدموع، لكن

تقطير دموعي على دار امبطار لا دخل لي فيه، إنما تذكرت شيئا في هذا الحي كنت أجده فلم أعد فينسكب الدمع مدرارا من تلقاء نفسه..

ويلوم الشاعر الحساني الدهر ويشكو قساوته متألما منكسرا فيقول:

هَذَا الدَّهْرْ أتْفُ بِيـــهْ ... مَـــارِتْ عَنْ غَـدَّارْ
مَـــلاَهْ ثُورَ فِـــيـــهْ ... حَـــلاَوْ مَــا تِمْــرَارْ
خَطْـتْ اعْـلَ دَارْ الْيُـــو ... اهْلْ أيّْ يَالْقَيُّـــومْ
شُـــفْتْ أكُـــومْ التَّيْـــدُومْ ... لِنْ سَـــهْـــوْ كَـــانْ الدَّارْ
مَـحْـرُوكْ أعْـلاَ اخْمُـومْ ... مْسُبْـحَـانَكْ يَالْقَهَّــارْ
مَـغْـوَدْ حَـرَاكْ اكُــومْ ... مَــاهْ فَـاهِمْ لَخْـبَارْ

اف لهذا الدهر ما أغدره، فكلما حلت أيامه إلا وأعقبها مرارة حنظل، لقد مررت اليوم على دار (أهل أيّ) وكان بمؤخرتها شجر التيدوم فوجدته قد أصبح فحما قاتما بعدما كان يانع الإخضرار، وارف الظلال! سبحانك اللهم! ألا يعلم محرقه الخير؟ ألم نكن نستظل به بعيدا عن أعين الرقباء، ألم يكن حفيفه يوصل همسنا لبعضنا البعض والغباوة الفاعل! اف لهذا الدهر ما أغدره.

أما البيئة ببقية مكوناتها، فقد حازت على قسط وافر من مناجاة الشاعر الصحراوي، وحصل الجمل على القسط الأوفر لأنه أنيس الوحشة، رفيق الفلاة، صديق المعاناة.. فخاطبه الصحراوي حميما، وحثه مطية، وشكره مساعدا، كما كان شأن الشاعر الجاهلي مع فرسه وجمله ورمحه وقوسه.. يقول أحدهم:

عَـاكِبْ تِمْـدَارِ فَـاوْكَار   وَكْـدَ تِيـرِسْ وَكْـدَ آدْرَار
وَمْسَمْنَـاكْ وَعْـلاَبْ شَـار   وَابْعِـمْنَتْ الْ يِلْهِين
هَذَانْ جَيْـنْتْ اعْـلاَ يْدَار   وَفْـزِنِيـهْ أَرَاعِينِ
رَاعِ فَـاللّهْ أَنَّكْ جَـادْ   افْـزِيـن لاَ يِـرْزِينِ
فَـزْوُزَالِ فِـمْنَيْنْ عَـادْ   يِـرْكِبْ وَكْـطْ افْـزِينِ

يسأل الشاعر الله سبحانه أن لا يريه مرزية في جمله (ازوزال) عندما، أصبح يعلو ويهبط في شعاب المكان المسمى زيني، بعدما قطع أرض تيرس كلها بسلام، ويقول أخر:

اعْلَ اللَّوَادَ لاَ نْصَبْتْ   رَاحِلَةْ عَنْ لِمْحَالِ
كَـافِينِ كَـاعْ إِلَى ارْكَبْتْ   وَاعْطَيْتْ أَعْشَرْ لَيَالِ

(اللّوادة) هو الإسم الذي أطلقه الشاعر على ناقته الأنثى وفي هذا البيت فإن أمنيته الوحيدة ان ينصب راحلته عليها ويمضي عشر ليال، وكان الصحراوي يطلق على جمله أحسن الأسماء ويخاطبه بأطيب التعابير، يحثه على السير أو الصبر ويعده بحسن الجزاء والمكافأة إذا هو أوصله إلى خيام العشيرة أو مكان إقامة الأحبة..

وبما أن الشعر الحساني تأثر هو الآخر بالبيئة، فقد تغيرت مضامينه وتعابيره وصوره بحلول الانسان الصحراوي بالمدن وتأثره بالظروف الاجتماعية والسياسية الجديدة، فلئن صور الخيمة وازوزال والعرصات أنذاك، فقد صور اليوم القصر والفيلا والسيارة والعلاقات السياسية والحروب الآنية والمؤتمرات وغير ذلك.. وشغل الشعر الوطني حيزا هاما من الرصيد الشعري الحساني، وفي النموذجين المواليين نجد الأول يصور التحالفات القبلية في حقب من الزمن كانت القبائل تكون الأحلاف من أجل

الدفاع عن النفس، وتدعو ما استطاعت من القبائل للوقوف إلى جانبها، لكن الشاعر يرى أن ابتسامة بريئة من فتاة تتهجى الأحرف، كفيلة بإرجاع الإخاء إلى المتناحرين فيقول:

اذْلَيْمْ أغْـيْـلاَنْ أمَـشْظُوفْ ... گَـعْـدُ فَـالشَّرْ أفِـيهْ أگْـوفْ
وابْنَيْـيْـرِ واسْـبَـاعْ الأشَـوْفْ ... يَعْگَبْ شَـوْفْ أمْـوَتْ الفِلْيَـانْ
واجْـوَاكِينْ اتْگَرْنْ لْلُوفْ ... الدُّوْرْهُمْ لِلشَّـرْ اعْـوَانْ
هَـذْ لَشَـافْ يَـالرّْذُوفْ ... تِتْـفَـانْ المُقَـيْلْ هَوْنْ اتْبَـانْ
تِتْـبَـسَّمْ والدَّمْكْ لِغْـرُوفْ ... يِتْـخَـلَ مِنْ ذَاكْ الشَّـتْـفَـانْ
اذْلَيْمْ أغَـيْـلاَنْ أمَـشْظُوفْ ... وَأبْنَيْـيْـرِ وسْـبَـاعْ أجْكَانْ

وشاعر البيئة الجديدة ينظر نفس النظرة إلى الحروب المشتعلة في البوسنة والهرسك والتي دارت في الخليج، يقول:

هَذَا العَـصْـرْ الْيَـومْ الْ بَانْ ... فِـيهْ الگْدَاتْ اتْبَـانْ النّْيـرَانْ
رَاهْ اعْلِيـهْ الحَيْ المَنْثَانْ ... فِـيهْ الگْدَاتْ اتْبَـانْ النّْيـرَانْ
فَـاتْ العْـرَاقْ اضْـغَـاهْ إيرَانْ ... فَلْمْـرُوبْ الگْـبَـيْلْ انْهَـانْ
وَالخَلِيجْ ألْ فَـاتْ اشْـيَـانْ ... وانْهَـانْ فَـاتْ سُگَّانْ
وَالبُوسْنَةْ والهِـرْسِكْ لَمَّـانْ ... اعْلِيـهُمْ بِعْـدْ شُطَّانْ
هَـذْ لَـرَاوْ الرّيمْ أمْـيْـتْ ... الشَّرْ إطْلَبْ تُخَانُومُودْ لِلكِيفِتْ گَانْ
وَالعْـرَاقْ إخَـاوِ لِگْوَيِّتْ ... وِعُـودْ لِلْكِيـفِتْ گَـانْ

ولكن هذا التطور الذي عرفه الشعر الحساني أفقده بعض السمات، رغم أن المبنى ظل كما هو، الا انه طبع بطابع السرعة والحداثة فغابت بعض العبارات الحسانية ذات الدلالة والرنة والموسيقى الشعرية الجذابة، وحلت محلها عبارات سطحية قاصرة، وبات الأسلوب ضيقا، وكثر النظامون والمتكسبون بالشعر بما في ذلك شعراء (البظان) وهذه التسمية هي التي كانت تفصل بينهم وبين المغنين (إيگاون).

وعلى كل حال فقد جاء الشعر الوطني بصور جميلة لا تخلو من جودة في الابداع ودقة في الوصف والتعبير، فصور الأحداث التاريخية الوطنية الهامة كالمسيرة الخضراء ومسجد الحسن الثاني، ومؤتمر فاس والمناسبات الوطنية... كما صور أيضا بعض الأحداث الدولية الهامة كمعاناة الفلسطينيين والبوسنة والهرسك وغيرها.. يقول الشاعر في عيد العرش:

عَـيـدُ الْعَـرْشْ الْبَـانِ لمِهَـاد   مَنْ وَصْف مَـاجِـزْ رَسَّـامْ
يَمْسُودْ عَـدلْ لِبْـحَـرْ مِـدَاد   وِعَـدلْ لَشْـجَـارْ اقْلَامْ

هكذا ظل الشعر الحساني حاضرا في شتى المناسبات رغم معاناته المتمثلة في عدم التدوين، إذ تحفظه الذاكرة وتلوكه الألسن، ويموت العديد من المسنين نواري تحت الثرى سجلات دسمة منه، تحتوي عادات وتقاليد شعبية صحراوية، تعتبر جانبا من حضارتنا وقيمنا وأخلاقنا... ونتمنى أن يعرف طريقه للتدوين في الوقت المناسب قبل أن يندثر.

*****

علاقة أدباء الصحراء بالملوك العلويين

أبوبكر أولياس(*)

من المعلوم أن بلاد شنقيط أو بلاد البيضان كما يسميها أيضا بعض الباحثين(**)، تضم إلى جانب منطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مناطق أخرى تشمل مجموع أراضي موريتانيا، وحوض السنغال، والجزء الشمالي الغربي من مالي، ويعرف هذا الجزء بمنطقة «أَزَوَادْ».

يقول المرحوم الأستاذ عبد الله الجراري في تعريفه لبلاد شنقيط: «هي عبارة عن مدينة بالصحراء الكبرى من المغرب، بيد أنه صار يطلق عرفا على إقليم كبير يمتد ما بين الساقية الحمراء وبلاد السنغال وسكانه الأصليون من قبائل الملثمين كلمتونة وگدالة ومسوفة من قبيلة صنهاجة وهي من البربر على ما صحح»[1].

ولمن أراد التعرف على بلاد شنقيط عامة، وما يتعلق بالمنطقة جغرافيا وتاريخيا واجتماعيا وأدبيا، فلينظر إلى مؤلف أحمد ابن الأمين الشنقيطي «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط»، وهو ديوان الشعر الذي قاله معاصرو المؤلف. فالكتاب فعلا لم يترك شيئا

(*) من الباحثين المهتمين بأدب الصحراء المغربية، أنجز رسالة جامعية في موضوع: (الصورة الفنية في شعر الصحراء المغربية من منتصف القرن 19 إلى أواخر 20) تحت إشراف الدكتور عباس الجراري ونال بها دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب، شعبة اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، الرباط.

يتعلق بالصحراء إلا ذكره وعرف به، ومن كلامه على شنقيط هل هي من السودان أو من المغرب، يقول: «شنقيط من المغرب على ما كنا نعهد، وذلك معروف عند أهل شنقيط، وأهل المغرب»[2].

أما عن الأدب في بلاد شنقيط، فهو جزء من أدبنا في المغرب، بل إن مصدر الثقافة والمعرفة في شنقيط هي جامعة القرويين، التي تعتبر معاهد شنقيط امتدادا لها وفروعا تابعة لها، ويشهد بذلك ماضينا الثقافي والأدبي.

وقبل الحديث عن علاقة أدباء الصحراء بالملوك العلويين لابأس أن نعطي لمحة خاطفة عن ذلك الفتح الثقافي الذي صاحب الفتح الإسلامي. فمن المعروف أن الاسلام قد دخل إلى الجنوب المغربي منذ أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني من الهجرة، إلا أن تلك المنطقة ظلت ذات حظ قليل من الفقه الاسلامي وبعيدة عن روح الحضارة الإسلامية، الأمر الذي دعا الأمير يحيى بن ابراهيم الكدالي أن يصحب معه أحد زعماء الوحدة المغربية وأحد ناشري الثقافة العربية الاسلامية، وهو عبد الله بن ياسين الجزولي الذي كون أعظم مدرسة عرفتها شنقيط، وعلى منهجه قامت قبائل الزوايا والمرابطين، فاهتمت بنشر تعاليم الدين الاسلامي، داعية إلى الجهاد في سبيل الله.

وفي هذا المجال، عرف عبد الله بن ياسين الجزولي بأنه زعيم الوحدة الثقافية وشيخ الزوايا، ومن بعده جاء الامام الحضرمي الذي تسلم القيادة الروحية، وعمل على نشر تعاليم الدين الاسلامي، وبث علوم الآداب العربية. وهو الذي كان يرافق الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني في فتوحاته، وعلى يد هذين الزعيمين الروحيين، كان الفتح العلمي والأدبي لبلاد شنقيط.

ورغم ما وصلت إليه العهود السابقة لقيام الدولة العلوية من تقدم حضاري وازدهار أدبي وعلمي، فإننا لا نكاد نعثر اليوم إلا على بعض أسمــــاء الكتب، أو بعض المخطوطات الأثرية التي تحتضنها الخزانات ذلك أن الحروب القبلية والتطاحن بين عرب المعقل وقبائل صنهاجة والغزو الذي استهدفته المنطقة عدة أجيال، كل ذلك قد أدى إلى ضياع الثورة الأدبية، فانصرفت القبائل إلى الحرب والدفاع عن النفس وحلت المنافسات والمفاخرات بالبطولة والشجاعة، محل التسابق والتنافس في العلم والأدب.

بناءً على هذه العوامل، أهمل مؤرخو الأدب الشنقيطي فترة ما قبل قيام الدولة العلوية، وجاء العهد الذهبي بقيام دولة العلويين الذين غذوا الحركة الأدبية وأنعشوها، وأغدقوا مواهبهم، فاستعاد الأدب قيمته وازدهر ازدهاراً.

ففي عهد الملوك العلويين، كتب للشعراء والعلماء أن يعيشوا عصرا ذهبيا، وتهيأت لهم ظروف الاستقرار في ظل دولة جعلت من أدباء الجنوب وعلمائه رعايا مخلصين للعرش، ورسل ثقافة ودين، ويرشدون إلى طريق الهدى والاستقامة، وينشرون العلم والمعرفة. فنمت في ظل هذه الدولة نهضة أدبية ناجحة. وقامت تحت رعايتها حركة علمية واسعة تجاوزت بلاد شنقيط إلى ما وراء السنغال ومالي والنيجر، حاملة تعاليم الدين الاسلامي وناشرة الثقافة العربية بين الشعوب الافريقية السوداء.

في هذه الظروف، نشأ هذا الأدب الفني، حيث كثرت المقامات والرسائل المطولة، وانكب الشعراء على الاراجيز والسجع، وتعددت أغراض الشعر، وتنوعت أساليبه، وتوفرت له من عناصر

الإبداع مالم يتوفر لغيره عاطفة ومعنى وأسلوبا وخيالا، وهو في كل ذلك شعر مطبوع لا تكلف فيه، يغلب الطبع فيه على الصنعة فيكاد يخفيها.

وسأقتصر في هذا العرض على مجموعة من الشعراء الشناقطة الذين كانت لهم صلات وثيقة بسلاطين الدولة العلوية الشريفة، فأمامنا – على حد تعبير أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري(*)– تراث هائل يحتاج إلى أن نعنى به ونهتم، ويتمثل في مدح الملوك والأمراء،وما يرتبط به من قضايا وطنية، عبر شعراء الصحراء المغربية بصفة خاصة وشعراء شنقيط بصفة عامة عنها في تجاوب معها والتحام نادرين.

وأضاف أستاذنا منبها، أننا لا نستغرب إذا وجدنا شعراء الصحراء يتصلون ببلاطات المغرب في عهود مختلفة، ويقولون قصائد في الملوك والأمراء يعربون بها عن التعلق بالوطن، والولاء لقادته وولاة الأمر فيه. ولدينا نموذج يرجع إلى العصر الموحدي يمثله الشاعر أبو إسحاق بن يعقوب الكانمي الذي مدح المنصور، ومن قوله فيه:

أزال حجابه عني وعيني	تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن	بَعُدْتُ مهابة عند اقترابي(3)

ومما أعطى لعلاقة شعراء شنقيط بالملوك العلويين أبعادا عميقة، تلك القصائد التي أبدعها هؤلاء، من أمثال الشاعر عبد الله بن رازكة العلوي الذي كان معاصرا للسلطان مولاي إسماعيل وإبنه محمد العالم، وله قصائد في مدحهما.

وعنه يقول أحمد بن الأمين الشنقيطي:

«ثم طمحت نفسه إلى الأعتاب السلطانية، وكان ذلك في إقبال الدولة العلوية، فاتصل بأمير المومنين مولاي إسماعيل رحمه الله، وكان ذلك وقت نبوغ المولى محمد بن مولاي إسماعيل المعروف بالعالم»[4].

ومن أجمل ما قال شاعرنا، قصيدته الحائية التي اصطفى فيها لممدوحه أجمل الصفات وأروعها، وخصه بمثل ما خص به المتنبي ممدوحيه وخاصة الأمير الحمداني سيف الدولة. يقول في مقدمة هذه القصيدة:

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا ... وسمها بحور الآل تسبحها سبحا
ولا ترعها إلا الذميل فطالما ... رعت ناضر القيصوم والشيح والطلحا[5]

وفيها يقول عن الأمير محمد العالم:

وأم بساط بن الشريف محمد ... مبيد العدا ذكرى ومبدي الهدى صبحا
فتى يسع الدنيا كما هي صدره ... فأصحابه صدر الديانة منحا
ومن هو غيث أخضل الأرض روضه ... فلا يظمأ الآوي إليه ولا يضحى
فتى يستقل البحر جود بنانه ... على حالة استكثار حاتم الرشحا
تزيد على الفاقات فيضات كفه ... فيغرق في التيار من يأمل النضحا
ومن هديه ساوى النهار وليله ... فأمسى بنير الخافقين كما أضحى
أمير ملوك الأرض أضحت بسيفه ... كما تبتغي الذبح في عيدها الأضحى[6]

وفيها يقول عن المولى إسماعيل:

أبوك لحكم الشرع ولاك عهده ... فلم تلق كداً للسؤال ولا كدحا
مهيب مخوف بطشه تحت حلمه ... عفو يرى إلا عن الباطل الصفحا
فهل كان معزوا إلى العلم قبله ... نعم أو كريم يدعي غيره السمحا[7]

ويستطرد ابن الأمين الشنقيطي، فيذكر علاقة الشاعر ابن رازكة بالمولى محمد بن المولى اسماعيل ما يستفاد منه أن العلاقة كانت بينهما أشبه بالصداقة الشخصية الأدبية.

وقد قال ابن رازكة هذا أشعارا كثيرة في المولى محمد، كما أن المولى محمد قال شعرا أورده ابن الأمين في الوسيط، يرحب فيه بالشاعر الشنقيطي في مكناسة الزيتون

ومن الشعراء الشناقطة الذين نالوا حظوة كبيرة عند السلطان مولاي عبد الرحمن، الشاعر محمد بن محمد العلوي الشنقيطي ومن أشهر قصائده، السينية التي يمدح بها السلطان المذكور ومنها قوله.

إني كفيل تبيل السؤال لي ولكم	إما بمراكش المحروس أو فاس
إمامنا في كلا المصرين نورهما	إمامنا المستماح المطعم الكاسي
خليفة الله في نيل الوصول لمن	هو الوسيلة بين الله والناس
خليفة المصطفى وهو ابن بضعته	ثوبا من المجد لم يعلق بأدناس(8)

ويحدثنا ابن الأمين عن مقابلة السلطان مولاي عبد الرحمن لهذا الشاعر، فيقول:

«ولما أبلغ ابن أبي ستة خبرهما إلى السلطان، أمر بإحضارهما، فلما سلما عليه واستقصى خبر الجهة التي قدما منها، وانشده قصيدته، وكان السلطان رحمه الله شديد الاهتمام بأقصى المسلمين من أهل مملكته حتى أنه يعلم أهل الخير من كبار أهلها وأهل الشر»(9).

كما نجد أيضا الشاعر محمد المجيدري بن حبيب الله الذي كانت له حظوة عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، والشاعر المختار

بن الهيب الإبيري الذي كان كاتبا للمولى عبد الرحمن، وهو والد العلامة الشاعر سيديا بن المختار.

ونجد كذلك الشاعر المغمور محمد الأمين الشنقيطي الذي كانت له وجاهة عند السلاطين العلويين، وقد عاصر هذا الشاعر ثلاثة ملوك علويين، المولى عبد الرحمن، وسيدي محمد ابن عبد الرحمن، والسلطان المولى الحسن الأول.

وقد كانت لسيدي محمد بن عبد الرحمن محبة كبيرة في الشاعر محمد الأمين الشنقيطي منذ كان وليا للعهد. ومن لزومياته في ختم صحيح البخاري، المذيلة بمدح المولى محمد بن عبد الرحمن:

هذا حادي حديث من حذام ... فدمعي مرسل قد سح دامي

فيا حادي ادر بين الندامى ... حديثهم الذي عندي مدام[10]

ومنها:

شريف من شريف من شريف ... تسلسل مجده العالي السنام

إمامته مكملة شروطا ... بشرع نبينا وعلى التمام

ليهنيك اختتامك للبخاري ... بشهر الصوم يا حسن اختتام[11]

وله من قصيدة مخمسة في مدح سيدي محمد بن عبد الرحمن:

يا طلعة البدر حسنا في كواكبه ... وطالع السعد في نادي مواكبه

بسط البسيطة وهب من مواهبه ... تجري ركائبها مجرى سحائبه

يجود جودا له بالبذل إكثار

امــامنا العلوي في مـــراتبــه | قد فاق للمشترى الدري وكاتبه
نصـر من الله في لوا كـتـائبـه | وأصبح الفتح بعضا من مراكبه

سيف من الله للعداة تبار (12)

وله في تهنئة مولاي عثمان بقدوم أخيه مولاي الحسن الأول سنة 1293 هـ قصيدة أعجبته غاية الاعجاب منها:

زارت بطلعتها الحسناء وسننا | بسامة بنضيد الدر أسنانا
كأنما الشمس شيء من محاسنها | والبدر تحسبه رقالها كانا
بالله يا طلعة الإشراق هل قمرا | قد كنت أو كنت قد خلقت إنسانا
مولانا سيدنا عثمان نخبة أبـ | ناء الهاشمي أسنى الناس رجحانا
يهنيك شهر صيامك وعيدكم | مبارك حزت من مولاك رضوانا
نعم ويهنيك إن جاء البشير بما | قرت به العين من قدوم مولانا
أيده الله قد لاحت بشائره | في بسط وجهك للأنام إعلانا
ذاك الشريف الذي أوطان مغربنا | غدت به لغريب الدار أوطانا
تاج السلاطين من عرب ومن عجم | أخوك من خاره الله سلطانا
الحسن الإسم والأفعال سيدنا | من في سياسته قد فاق ساسانا(13)

وهناك أيضا الشاعر أجدود بن محمد أكتوشن، الذي كان ممن تشرفوا بتقديم البيعة والولاء للسلطان مولاي عبد العزيز، وله فيه قصيدتان، يقول في مقدمة إحداهما:

تذكرت أيام المريفق والبترا | وهاجت لي الأحزان والهم والذكرى

وفيها يقول:

أمولاي يا عبد العزيز تقدمت | إليك جيوش العرب طائعة أمرا
تبايعك العربان شرقا ومغربا | وترجو لك التوفيق والحفظ والنصرا(14)

أما القصيدة الثانية، فسنكتفي منها بذكر هذين البيتين:

فدع ذكر أيام الشبيبة والصبا | فحبل وصال الغانيات قد انصرم
وأم الإمام الأعظم الفرد سيدي | ومولاي سلطان الفضائل والكرم(15)

كما نجد أيضا الشاعر محمد المامي اليعقوبي الذي عني في كثير من مؤلفاته بذكر السلاطين العلويين. كما كان للشاعر محمد بن سالم حب في آل البيت، وتعلق خاص بالملوك العلويين.

وقد قدر للشيخ ماء العينين مؤسس الزاوية المعينية بالسمارة أن يتصل بالعديد من ملوك المغرب الذين أعجبوا بعلمه وثقافته. ويؤكد مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في ترجمة هذا الشاعر، في مؤلفه «مناقب أهل الصحراء» أنه حين سافر إلى الحج، مرّ في طريقه بوادي نون والصويرة ومراكش، حيث أكرمه سيدي محمد بن عبد الرحمن ولي العهد، ثم سافر إلى مكناس وتلقاه السلطان مولاي عبد الرحمن بكل إجلال وإكبار. كما استدعاه السلطان مولاي الحسن لما زار وادي نون سنة 1303 هـ من قصيدة له في بيعة السلطان مولاي عبد العزيز:

وبيعة أسلاف من المهمة القفر تجوب الفيافي بالسماحة والنصر
تزف إلى نجل الملوك عهودنا تصان مدى الأيام في السر والجهر(16)

ومن الذين بايعوا السلطان مولاي عبد الحفيظ، الشاعر محمد المامون الذي أصبحت له بعد ذلك صلة وثيقة بسائر سلاطين الدولة، وله عدة قصائد في مدح المغفور له محمد الخامس.

ومن الشعراء الذين انتهت إليهم عمادة الأدب في بلاد شنقيط الشاعر العتيق ماء العينين الذي نال شهرة جاوزت حدود الوطن حيث أصبح له في غرب افريقيا رواة يحفظون شعره، ويرددونه في المحافل والأندية.

ومن أجو د قصائده، تلك التي ألقاها بين يدي المغفور له محمد الخامس حينما قدمت لبلاطه الوفود الشنقيطية لتقدم ولاءها، بعد رجوعه من المنفى، يقول:

تتابعت البشائر والفيور ... بحمد الله واتصل السرور
وصبح السعد لاح له ضياء ... وروض الفوز فاح له عبير
ونهج الرشد عان له سلوك ... ووجه الحق حان له سفور
بمشهد طلعة الملك المفدى ... من ازدانت بدولته الدهور
ومن يحلي جلالته توالت ... لنا بالأفراح وانتشر السرور
ومن طود السعادة مستقر ... بأسرته وناظرها قرير
إمام العصر محمود السجايا ... محمدنا ابن يوسف الشهير
مزاياه الأصم بها سميع ... لشهرتها ويبصرها الضرير
من أولى الشعب بعد الذل عزا ... وبعد العز ذل به الكفور(17)

وهناك العديد من الشعراء الشناقطة الذين مدحوا المغفور له محمد الخامس كالشاعر الأمين بن عبد الله الديماني، وعبد الله ابن سيدي أحمد أبوه الشنقيطي، ومحمد الأمين بن خطاري، ومحمد الأغضف، ومصطفى فال أحمد بن محمد الأمين، وهو من قبيلة «إدَيْقُبْ» بجنوب موريتانيا. يقول هذا الأخير من قصيدة نظمها بمناسبة عودة المغفور له محمد الخامس من المنفى:

بشرى لنا معشر الاسلام بشرانا ... أماتتنا الله أحيانا فأحيانا
بطلعة الغوث محيي الدين سيدنا ... جم المحامد مولانا ابن مولانا
من ذبَّ عن ذمة الاسلام محتسبا ... بالعزم جلدا وعند الكرب مالانا
تجري مقادير نصر لا مردَّ لها ... تأتي بتأييده سرا وإعلانا
دلت براهين حكم الله ظاهرة ... فأذعنت عندها الاعداء إذعانا
فالحق إن جال لا تيأس بجولته ... سيستقل ولو قد كان من كانا
يا من تأثّل إرث المجد منصبه ... بين الأماجد سلطانا فسلطانا
لازال حكمك محروسا بَعين رضى ... وأنت دمت لتلك العين إنسانا(18)

ومن قصيدة أخرى يمدح فيها المغفور له محمد الخامس:

يبني على الحق لا ينفك متبعا ... متن الشريعة من عرف وقانون
وانما بيعة الرضوان بيعته ... كن غابنا لا تكن فيها بمغبون
بارك له في ولي العهد والوزراء ... وكل قاض وعمال ومفتون(19)

وقد نبغ عدد من العلماء والأدباء خلال هذا العصر من مختلف قبائل شنقيط ومناطقه، ومن هؤلاء الشاعر محمد البيضاوي الشنقيطي الذي يمكن اعتباره «من أوائل الشعراء المغاربة الذين هنّأوا المغفور له محمد الخامس بتولية العرش، فقد دخل عليه في جملة المهنئين، وقال قصيدة هي مزيج من التهنئة له والرثاء لوالده المولى يوسف رحمه الله، وقد جاءت مليئة بالمعاني التي تدل على الالتحام وعلى الروح الوطني الذي كان يشد شعراء الصحراء إلى المغرب وملكهم في وقت كان الاستعمار يشدد الخناق ليس فقط في الصحراء ولكن في كل المناطق المغربية»[20].

وفي هذه القصيدة، يقول الشاعر محمد البيضاوي الشنقيطي:

نهب الامام أبو المحاسن سيدا ... ومحمد كفؤ الامام السيد
التاج أقسم لا يفارق هامكم ... ويا آل حيدر وآل محمد
امحمدا يا بن الحلائل يوسف ... جدد عهود محمد ومحمد
وارع الامامة والرعية مشفقا ... بسياسة وروية وتعهد
واكشف عن الأبصار كل غشاوة ... وغباوة فالجهل أعظم مفسد[21].

وقد ازداد تعلق أدباء وشعراء شنقيط بملوك الدولة العلوية في عهد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، ونوّهوا بأمجاده وجلائل أعماله، وعظائم مآثره ومكارمه، وما تحقق للشعب المغربي والأمة العربية والإسلامية على يديه.

ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال، شاعر موريتانيا ومؤرخها المختار بن حامد يمدح ملك المغرب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله بقصيدة رائعة، عنوانها «ضمن السعادة والصعود لأرضه» يقول في مقدمتها:

في المغرب العدل الوطيد عتيد … والمجد فيه طارف وتليد
والأمن منسرح عليه وافر … والخير فيه كامل ومديد
يا حبذا هاد ومهدي وما … مون ومنصور هناك رشيد
ضمن السعادة والصعود لأرضه … فالشعب فيها صامد وسعيد[22]

ومنها:

حسن جلال منه فيه هيبة … تعنو لروعتها الملوك الصيد
حسن على أسس الجدود سلوكه … وبناؤه للمجد والتشييد
حسن لدولته وشعب بلاده … سعي حميد من لدنه مفيد
حسن على تلك الرعية عطفه … وبيانه للعدل والتوكيد
حسن كذاك وقاره وسكينة … فيه على عز مداه بعيد
حسن سخاء منه لم ين في الندى … والجود يبدي دائما ويعيد
حسن كذلك طبعه وخلاقه … كل الأنام له بذلك شهيد[23]

وفي نهاية القصيدة يقول:

لكن لعيد العرش تنفتح اللها … فرحا بهذا العيد نعم العيد
فيثور مدح جلالة الحسن الرضى … منثوره ويثور منه قصيد
ويسوغ في أفكارنا إنشاؤه … ويسوغ في الآذان منه نشيد[24]

ويستهل الشاعر نفسه قصيدة أخرى بعنوان «جئنا لنشهد من ذا العيد عيد هدى»، يقول:

أهلا وسهلا بعيد العرش من عيد … لطاقة الدين فيه أي توليد
عيد إذا عاد، عاد البشر يشفعه … وإن تجدد يشفعه بتجديد
عيد اعتلاء أمير المومنين على … عرش الجدود السراة القادة الصيد[25]

وفيها يقول:

جاءت جماهير من عرب ومن عجم … من القرى وزرافات من البيد
يستبشرون بعيد جاء موعده … يسابقون لذكرى ذاته العيد[26]

ومنها أيضا:

في ليلة جذبت ضوء النهار لنا فكان في (منوي) منها الضوء في (ميد)
وكان ما كان من فضل ومن كرم يجل على كل تحديد وتعديد [27]

وفي آخر هذه القصيدة، يتوسل بالدعاء الصالح لأمير المومنين صاحب الجلالة الحسن الثاني أيده الله قائلا:

والله نسأل تعميرا لسيدنا في ظل نصر وتمكين وتأييد
أن الدعاء له من لب واجبنا وأعرق العاد فينا والتقاليد [28]

وهناك أيضا الشاعر محمد عبد الرحمن الرباني الذي أبان في العديد من قصائده على العلاقة والمحبة التي تربطه بالعرش العلوي المجيد، وله عدة قصائد في مدح جلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله. يقول في مقدمة قصيدة بعنوان «أجب داعي الرحمن».

أجب داعي الرحمن واستنشق العطرا وثق بالهدى واصدع ببيعتك الكبرى
وجاوز عراض البيد متجها له اذا جزت قطرا منه أرنفته قطرا
إلى الكهف كهف المسلمين وذخرهم ومن يفعال الخير يستوجب الإطرا
إليك أمير المومنين توجهت ركابي تجوب الجو والبر والبحرا
إليك أمير المومنين يقودني سنيح ولاء يحمل الحب والبشرا [29]

ومنها:

ووجهت للقدس العناية فانثني عن القدس من ساموا منا سكنا قسرا
وأودعت في الإبن المبارك سيدي محمد عهدا لا تزال به البشرى
وأبناؤك الغر الميامين صفوة لأمتنا طرا وعالمنا طرا
فمن يجهل التاريخ يسأله إنه عن الصفوة الأبنا سينبؤه الأمرا
سلالة بيت المصطفى خير خلقه فهم بجميع الفضل من خلقه أحرى [30]

وله من قصيدة أخرى بعنوان «وحدة المغرب اكتمال عهود»

رب قوم كانوا هناك وجاؤوا ... قد هداهم نحو المليك رجاء
رأوا فيه عن سواه عزاء ... فهو عن كل من سواه عزاء
وهو مأوى المريد من كل أرض ... شاء ذاك الاعداء أم لم يشاؤوا
وهو هدي وحنكة ورشاد ... وعلى ذاك تشهد الصحراء
وحدة المغرب اكتمال عهود ... وشجتها الملوك والآباء
دولة المغرب الكبير نجاح ... جسدته المسيرة الخضراء[31]

كما نجد شاعر الوحدة محمد الكبير العلوي الذي لم تفته أية مناسبة إلا ونظم فيها قصيدة أو أكثر. ومن قصيدة له بعنوان «مكرمات ومعجزات» يخاطب فيها جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، قوله:

كل أعمالك العظيمة آيا ... ت تبدت مرئية للعيان
شهد الحال والمقال عليها ... وهما الصادقان والعدلان
مكرمات معجزات جسام ... واضحات الدليل والبرهان
لو سألنا الحدود عنها أجابت ... ببيان ومنطق مستبان
وتعالى دويها وصداها ... في رياض ملتفة الأفنان[32]

ومن قصيدة أخرى بعنوان «مسيرتك الأبية خير زحف» يقول مخاطبا أمير المومنين الحسن الثاني نصره الله:

وهبت المغرب الأقصى نعيما ... وقد أبدلت شدته رخاء
بلغت بنا السما فخرا ومجدا ... فساميْنا بك الأفق اعتلاء
أمغرب فزت بالملك المفدى ... فأحرزت السعادة والهناء
إمام قد فدى وطنا وشعبا ... وقد أضحى الجميع له فداء
أمير المومنين لأنت أحرى ... وأجدر أن نزف لك الثناء
تقبل مدحنا في كل وقت ... وحزمنا التهاني والولاء
ودم للشعب سيدنا ملاذا ... تقيم الوحدة الكبرى بناء[33]

ونجد أيضا الشاعر المجيد محمد عبد الرحمن الدرجاوي الذي برز بشكل كبير في الساحة الشعرية المغربية، وله قصيدة طريفة في رثاء المغفور له محمد الخامس بعنوان «لا هول أكبر من رحيل محمد»

لا تسألي إن الصوائت تظلم	رحل المليك وكل بيت مُظْلِمُ
ودعي جفون العين تذرف دمعها	فالدمع أهون ما يصان ويُخْتَمُ
وذري البواكي لا عزاء لرزئها	تبكي وتَخْمِشُ في الوجوه وتَلْطِمُ
يا عينُ جودي بالدُّموع لراحل	برحيله دارُ السياسة تكرم
كيف العزاء وكيف نصبر بعده	لا صبر كلا، فالمصيبة أعظم
لا هول أكبر من رحيل محمد	فالنوم بعد رحيله قد يحرم[34]

ومنها:

أبقى لنا ملكا نقر بقربه	عينا كما كنا نقروا مُـرْغَمُ
ما الشبل إلا ابن الغضنفر خالصا	يحمي كما يحمي أبوه ويَهْجِمِ
والمزن من ماء البحور أصوله	يسقي ويغدق كالبحور وينعم
مولاي هذا الشعب جاء مبايعا	كيما يطاوع ما تقول وتبرم
خفت لبيعتك القلوب جميعها	بَيعا ينال به الرضى والمغنم[35]

ومن قصيدة له بعنوان «لنا الأيام نحسبها جميعا»، وهي قصيدة قيلت في بطولات جيش التحرير المغربي، والمعارك التي كان يخوضها لطرد الاستعمار عن وطنه وفرض السيادة المغربية. يقول في مقدمتها:

متى وإلى متى هذا التغابي	والاستعمار يكرع في السراب؟
ويزرع في العداء بلا رشاد	ويخرق في الجوار بلا صواب
أليس يرى جموع الشعب تهفو	وتفرح بالمليك والخطاب؟
تسير وراء قائدها مسيرا	يهون به العسير من الصعاب[36]

ومنها:

لنا الأيام نحصيها جميعا على رغم العدو مع الحساب
فيوم أبي الجفوع(*) وما فعلها من الرمي المسدد والضراب[37]

ومن قصيدة أخرى للشاعر الدرجاوي يمدح فيها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله:

لك الخير كل الخير يا حسن الذكرى وما حزت من خير فأنت به أحرى
وأحرى بشعر الشاعرين منقحا وأحرى به حرا وأحرى به نثرا
ومنّا لك البشرى بعزك في الورى وبشرى من الرحمن ما فوقها بشرى
وبشرى لشعب في يديك شؤونه تسير به يمناك سيرا إلى اليسرى
ويسراك واليمن سواء بيمنها وكلتاهما يمنى فمالك من يسرى
وعسرك يسر من وجوه كثيرة بها العسر يغدو من سهولته يسرا[38]

ومنها

فلله كم رأي مصيب رأيته ربحنا به الدنيا ولم نخسر الأخرى
وذلك جمع قل في الناس مثله فكم ربحوا تجرا ولم يربحوا تجرا
وكم من قال قلته فأجدته وكم عمل زين شرحت به صدرا

من خلا ل ما تقدم، يمكن أن نستنتج مجموعة من الملاحظات وسألخصها في مايلي:

1- ان علاقة شعراء شنقيط بالملوك العلويين ظلت علاقة وطيدة ومتينة بحكم ولائهم وبيعتهم لهؤلاء الملوك.

2- أن هؤلاء الشعراء سجلوا كل ما عاشته الصحراء من حروب وصراع وكل ما مرّت به من تاريخ، ووصفوا وتغزلوا ونسبوا ومدحوا، وعالجوا مشاكل مجتمعهم، بحيث كان شعرهم تعبيرا صادقا، وصورة واضحة عن ذلك المجتمع.

3- أن هذا الشعر الشنقيطي حافظ منذ نشأته على ذلك الطابع العربي المحضر، وعلى الجزالة والقوة، وعلى تلك الصنعة الفنية البديعة.

نعم، يأخذ بعض النقاد على هؤلاء الشعراء أنهم لم يجددوا ولم يتخلوا عن الأسلوب العربي القديم، إلا أن هؤلاء النقاد فاتهم أن ظروف الحياة وتقاليد المجتمع الصحراوي، تفرض على الشاعر الصادق أن يعبر عنها كشاعر بدوي، يعيش في مجتمع بدوي.

ولا عيب أن ينحو الشعراء هذا النحو، ولا سيما إذا كان همهم هو تحريك التراث، وتوظيف ما يستحق التوظيف منه وجعله سلوكا في حياتهم العلمية والعملية.

فالميل إلى القديم ناتج عن ثقافة الشاعر المعتمدة على القاموس الجاهلي، وما تولد عنه من قدرة الاستحضار الناشئ عن كثرة الحفظ والاختزان «دون أن نغفل ملاءمة البيئة وانعكاسها على حال النفس والوجدان والذوق»[39].

*****

الهوامش:

(**) من هؤلاء خليل النحوي في مؤلفه «بلاد شنقيط المنارة والرباط» ص24. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987. وبهذا الاسم - أي بلاد البيضان - عنون يوسف مقلد كتابه «موريتانيا أو العرب البيضان في إفريقيا السوداء»، كما عرفت بلاد شنقيط باسم «بلاد التكرور» وقد اعتمد الطالب محمد بن أبي بكر البرتلي هذه التسمية في تأليفه عن أعيان المنطقة «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور». كما استعصى على بابا بن الشيخ سيديا إسم جامع مانع فتحدث عن هذه «البلاد المغربية الصحراوية البيضانية».

(1) الأستاذ عبد الله الجراري «شنقيط عبر التاريخ» مجلة الوحدة الصادرة عن وزارة الشؤون الثقافية الموريتانية، والصحراء المغربية، العدد 17، السنة: 1969.

(2) محمد الأمين الشنقيطي «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» ص: 423–422.

الطبعة الثانية، مطبعة السنة المحمدية-القاهرة 1958 م.

(*) أنظر «معالم مغربية» للدكتور عباس الجراري ص: 130 وما بعدها.

الطبعة الأولى، فبراير 1991.

(3) نفس المرجع ص: 134.

(4) «الوسيط» لأحمد بن الأمين الشنقيطي، ص: 110، تحقيق محمد بن ماء العينين، تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، رسالة لنيل د.د.ع. مرقونة بخزانة كلية الآداب – الرباط.

(5) نفسه، ص: 143.

(6) نفس المصدر السابق، ص: 143-144.

(7) نفسه، ص 145.

(8) المصدر السابق، ص: 199.

(9) نفسه، ص: 199.

(10) «المجد الطارف والتالد» لمحمد بن الأمين الشنقيطي، ورقة: 421 مخطوط بقسم الوثائق والمخطوطات، الخزانة العامة بالرباط مسجل تحت رقم: 588 ك.

(11) نفسه، الورقة: 424.

(12) المجد الطارف والتالد ورقة: 446، انظر كذلك الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج 7، ص 25، 26. لعباس بن ابراهيم المراكشي، المطبعة الملكية 1977.

(13) نفسه، ورقة: 412-413.

(14) مجلة «ندوة البيعة والخلافة في الاسلام»، مقال بعنوان «شعراء الصحراء وبيعة الملوك العلويين» لمحمد الكبير العلوي، ج 2، ص: 474–476. مطبوعات وزارة الأوقاف، العيون، 1985.

(15) نفسه، ص: 477.

(16) نفس المقال السابق، ص 471.

(17) جريدة صحراؤنا، العدد 30 و1 دجنبر 1967، ص: 5.

(18) بارك الله حبيب الله «تأملات حول تاريخ الصحراء المغربية» ص: 20.

تصنيف وإخراج الشركة المغربية للطباعة والنشر-الرباط، 1993.

(19) من قصيدة أمدني بها محمد معروف الرصافي أثناء زيارتي له بالعيون صيف 1991.

(20) الدكتور عباس الجراري «معالم مغربية» ص 130، الطبعة الأولى فبراير 1991 م.

(21) نفس المرجع، ص 135.

(22) ديوان دعوة الحق «وفاء وولاء» ج 1، ص: 228.

(23) نفسه، ص: 228.

(24) نفسه، ص: 229:

(25) الديوان السابق، ص: 263.

(26) نفسه، والصفحة نفسها.

(27) نفسه، نفس الصفحة.

(28) نفسه، ص: 264.

(29) ديوان «دواء داء الغربة وإطفاء الجحيم» للشاعر محمد عبد الرحمن الرباني ص: 15 وهو مخطوط بحوزة صاحبه بالداخلة.

(30) نفسه، ص: 16.

(31) الديوان السابق، ص: 18.

(32) ديوان دعوة الحق «وفاء وولاء»، ص: 215.

(33) الديوان السابق، ص: 295.

(34) من قصيدة أمدني بها الشاعر مشكورا أثناء زيارتي له بمدينة العيون صيف 1991 م.

(35) من القصيدة نفسها.

(36) من قصيدة أمدني الشاعر بها في العيون صيف 91.

(37) القصيدة نفسها.

(*) أبو الجدوع: هو (بوجدور) الذي أصبح اليوم عمالة مغربية من عمالات الصحراء المغربية بعدما تم انضمامها للوطن.

(38) من قصيدة أخرى أمدني بها الشاعر.

(39) معالم مغربية، ص: 141.

*****

شعر الصحراء المغربية: النشأة والريادة

محمد المختار المداح(*)

لا يسعني في البداية إلا أن أزجي عظيم الشكر وخالص الاكبار إلى وزارة الشؤون الثقافية بتخصيصها عددا خاصا من مجلة (المناهل) لشؤون الصحراء المغربية بمناسبة مرور عشرين سنة على استرجاعها بفضل الحكمة السامقة السامية لعاهلنا المفدى، صاحب الجلالة الملك المعظم المجاهد الباني الحسن الثاني المؤيد بنصر من الله. ولاشك أن لهذا العدد مزايا وخصالا لأنه يروم نفض غبار النسيان عن بعض الكنوز الأثرية والتراثية والأدبية عند أهل الصحراء لاستكناه خفاياها وسبر أغوار خباياها.

فمن المسلمات الثابتة أن الأمم تقاس في رقيها وأصالتها بقدر حفاظها على تراثها وتطويره وغربلته لتنمية جوانبه الوضيئة وتخطي رواسبه التي تقف حجر عثر في وجه أي إبداع إنساني، ذلك أن أي تراث يعتبر بحق ملهم عقلية الأمة التي أنتجته، محددا عبقريتها وموضحا قدرة إرادتها إذ هو شاهد على طابعها الحضاري الأثيل.

(*) باحث في الأدب المغربي بالصحراء، أعد رسالة جامعية تحت عنوان «ديوان الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية»، لمحمد الغيث النعمة، الجزء الثاني، تحقيق وتقديم، تحت إشراف الدكتور محمد بنشريفة، ونال بها دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

وقد تكون لتراث الغرب الاسلامي عامة كل هذه الخصال والخصائص وإن هي ما زالت بحاجة إلى تضافر جهود النقاد والباحثين لتنزيله المنزلة اللائقة به إذا ما قورن بتراث أهل المشرق.

ويندرج في هذا الإطار أدب الصحراء المغربية الذي ما التفت إليه حتى فصلت العير، إذ ظل عرضة للكثير من الانتهاكات الجائرة من طرف الإستعمار الأجنبي إن بالتهميش والمحاربة سريا أو التنكيل بالعلماء وإحراق ذخائرهم المعرفية علنيا كما وقع لمكتبة الشيخ ماء العينين بالعاصمة العلمية أنذاك للأقاليم الجنوبية المسترجعة السمارة، حيث أحرقتها طائرات العقيد مورى عام 1913 م مما دفع الشاعر مربيه ربه إلى رثائها بقصيدة مؤثرة، منها[1]:

هذه السمارة في أنبائها العبر	منها تحيرت الألباب والفكر
دار بصحراء من رأى عمارتها	فيما مضى أو رآها اليوم يعتبر

لقد عانى التراث الصحراوي المغربي أكثر من غيره من الاستبداد الاستعماري استيلابا وتهميشا وعوادي الدهر محوا واندثارا.

فماذا عن نشأة هذا الأدب؟

وكيف هي مظاهر الانبعاث فيه؟

وهل يمثل فعلا سمة أدبية متميزة في مهاء الصحراء؟

لقد ظل أدب الصحراء المغربية على مر الدهور وسيلة مثلى للتواصل الثقافي والحضاري بين شعوب كثيرة، وإشعاعا حضاريا

متميزا بخصوصيات ذاتية وموضوعية، ولم يكن في يوم من الأيام متفوقعا على نفسه يلعق جراحا أدمتها الحياة، بل كان دائما مرفوع الرأس فضيلة روح وجسد وشمم أنف يأبى الرغام وإن كره الكارهون «يمد يده إلى أطراف الوطن ليندمج فيه وينصهر داخل بوتقته في عملية أخذ وعطاء مستمرين توسل فيهما بكل الممكنات المتاحة لاثبات الوحدة وتأكيد التواصل على الرغم من الظروف التي كانت في معظمها صعبة»[2] لأنها محفوفة بالمزالق والمخاطر مما قد يوهم باستحالة أي تفتق شعري أو إبداع فكري أو سموق إنشائي. وأول معضلة قد تواجه الباحث في أدب الصحراء المغربية تتمثل في إشكالية التأريخ للنشأة، نشأة هذا الأدب، نتيجة شح المراجع وندرة المصادر التي تسعف بأخبار «تجمع وتمنع» أو قل إن شئت: أخبار تستقيم على النظر المعرفي وتطرء على المعايير العلمية.

إن المصدر الوحيد الذي نملكه – حتى الآن على الأقل – هو كتاب «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» لأحمد بن الأمين، ورغم حسنات هذا الكتاب الجمة إذ سد فراغا ثقافيا وفكريا ظل مظلما فإنه لم يخل من مآخذ النقاد عليه المتمثلة أساسا في اعتماده المقياس القبلي إجراءا منهجيا ومصادرة عمل، والتعصب القبلي الذي طبع الكتاب بطابع انتقائي، فابن الأمين كان يسهب في إعطاء بعض الأمثلة من شعراء بعض القبائل، بينما يتقشف اتجاه البعض الآخر إن لم يهمله إهمالا مجحفا، فلم يورد في كتابه من شعر أهل الصحراء سوى (4030) بيتا مقسمة على (77) شاعرا ينتمون إلى تسع (09) قبائل صحراوية مغربية فقط.

وتؤكد النصوص التي نتوفر عليها من هذا الأدب، أصالته عتقا وجدته حداثة وقوة سبكه تعبيرا عن البيئة الصحراوية التي تشبه إلى حد ما البيئة الجاهلية تشاكلا خارجيا وإن اختلفتا، مما جعل جل الشعراء الصحراويين يحاكون في البداية الشعراء الجاهليين محاكاة استيحاء أو إحياء أو معارضة بغية الإبداع والتجديد ببعث الشعر من مرقده.

ورغم أننا لا نعرف أخبارا كثيرة عن الارهاصات الأولى لشعر الصحراء إذ هناك حلقات من تاريخها الأدبي مازالت مظلمة لم تبح بعد بسرها المكنون، فيمكن القول إن بلاد الصحراء عرفت دخول الاسلام مبكرا بداية من القرن الثاني للهجرة[3]. كما أن هناك عنصرين بارزين أثرا في شتى مناحي الحياة خاصة الناحية الثقافية:

I – توافد القبائل الحسانية المهاجرة بداية من القرن السابع للهجرة حيث بسطت سلطانها سياسيا وعسكريا على السكان الأصليين الذين هم عبارة عن مجموعات بشرية تتكلم البربرية وتعتنق إسلاما سنيا ورثته عن دولة المرابطين وتتابعت هذه الهجرات تترى مدة أربعة قرون.

II – نجاح دولة المرابطين في نشر تعاليم الدين الإسلامي القائم على فقه سني أشعري، فعض علماؤها على فضيلة العلم بالنواجد تبجيلا وتكريما للعلم والعلماء، وفي هذا المضمار لابد كذلك من التنبيه إلى مسألتين هامتين ذواتا خطب جلل في التاريخ الثقافي لبلاد الصحراء المغربية، هما:

1 – التواصل المثمر الذي ظل قائما بين الصحراء وسائر الأقاليم الأخرى من المغرب وذلك منذ قيام الدولة المرابطية.

فالكثرة الكاثرة من علماء الصحراء قامت برحلات علمية إلى الأقاليم الشمالية كمراكش وفاس وتطوان بغية الدراسة أوالتدريس بها أوالتوجه إلى الديار المقدسة عبرها. وحرصوا حرصا شديدا على اقتناء الكتب واستنساخها، مقيمين روابط متينة مع بعض الزوايا الصوفية، فنجد على سبيل التمثيل لا الحصر سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم (ت 1233 هـ) يفوز بهدية ثمينة من طرف السلطان العالم مولاي اسماعيل، تتمثل في خزانة نفيسة من الكتب النادرة، وتكالب الناس على اقتناء الكتب وجمعها حتى بيع القاموس بعشرين بعيرا، وأهدى السلطان محمد العالم إلى الشاعر ولد رازكه خزانة ثمينة فيها مئات المؤلفات النفيسة أسهمت في تأصيل الثقافة الأدبية ازدهارا وتفتقا، فامتلك على إثرها هذا الشاعر ناصية الشعر[4].

2 – وجود بعض المحطات الثقافية التي كانت عبارة عن جامعات بدوية متنقلة عرفت بالمحاظر تدرس فيها جميع العلوم، فكانت معبرا تجاريا تمر به القوافل التي تسافر بين المغرب وبلاد السودان.

إن الحديث عن نشأة شعر الصحراء «حديثا مانعا جامعا» يقتضي وقفة تأمل وتدبر في عدد هائل من العناصر والمعطيات لتشابك خيوط الموضوع وغياب بعضها وعدم توفرنا على كثير من النصوص الشعرية، ذلك أن هناك إشكالين تطرحهما قضية النشأة:

– إشكال زماني : ونستشفه من لفظ «النشأة» التي قد تدل على الميلاد الذي يحيل بدوره على البداية الأولى لدخول التاريخ.

– إشكال مكاني : يقتضي تحديد المجال الجغرافي وحصره لأنه احتضن هذا الشعر.

فما هي دلالة كلمة الصحراء جغرافيا؟

إن مجال شعر الصحراء لا يقتصر على ما يعرف اليوم بالصحراء المغربية المسترجعة وإنما يتجاوز ذلك إلى بلاد شنقيط جنوبا حتى نهر السينغال نتيجة الروابط السياسية والثقافية التي ظلت تربط أهل الصحراء بملوك الدولة المغربية والمتمثلة في رباط البيعة الشرعية التي ظلت تطوق أعناق الرعية، ولم تكن البتة الحدود السياسية المتعارف عليها اليوم كمصادرات إجرائية خلفها الاستعمار موجودة[5].

إن عنصر القرابة الوحيد الذي نتوفر عليه حتى الآن لتحديد المجال الذي نبحث فيه هو اللهجة الحسانية التي هي لغة القوم أو قل: قنطرتهم إلى اللغة العربية على حد تعبير الشاعر محمد اليدالي.

ولكي يتسنى لنا استيعاب نشأة هذا الشعر وريادته، لابد من بسط نظرة وإن كانت عجلى عن التركيبة الاجتماعية لسكان الصحراء. إن المجتمع الصحراوي القديم تشرذم إلى فئات متمايزة في الوظائف وإن تواشجت في المصالح:

1- الزوايا : وهم أهل القلم يمتهنون الثقافة تعلما وتعليما باعتبارهم أهل العلم والأدب، يمارسون الفتوى والقضاء بين الناس، كما يتعاطون سائر النشاطات الاقتصادية المتوفرة ولهم كلمتهم في مجال السلطة من الناحية الدينية. وبلغوا من تقديس العلم درجات عليا إذ عضوا عليه بالنواجد أسوة بالقرآن والسنة، فالولي الصالح ناصر الدين الذي كان صاحب سيف وقلم وقائدا محنكا يقول مخاطبا قومه: «من ركب منكم فرسه فليجعل لوحه بينه

وبين سرجه فإن الجهل هو أقبح ما يأتي به المرء الآخرة[6]». وأفتى بعض علماء المنطقة بأفضلية تعلم اللغة على التفرغ للعبادة، يقول:

تعلم اللغة شرعا فضل	على التخلي لعبادة الجلي
يؤخذ ذا من قوله وعلما	آدم الاسما ألزم التعلما

2- حسان : وهم أهل السلطة التنفيذية عسكريا وسياسيا، فهم أهل السيف يخوضون الغارات والبطولات ذبا عن الحمى وشيمتهم: «اقتناء السلاح ومداومة الكفاح وامتلاك الرقاب، أموالهم سلاحهم وحصونهم ظهور خيلهم، عيشهم الصيد وما يأخذونه من المغارم أو ما ينهبون من الأعداء»[7]. وتأتي بعدها تين الفئتين القطبين، فئات أخرى تابعة عاشت في ظل حماية الزوايا دينيا وروحيا وكنف حسان أمنيا وسياسيا تحت ظل الدوحة العلوية. ومع إطلالة القرن الهجري الثالث عشر بلغت النهضة الثقافية أوجها إذ كثرت المحاظر والمكتبات وأصبحت للعلم مكانة متميزة إذ ما يظهر كتاب حتى ينسخ ويقرظ ويتبادل بين العلماء، ويكمن مرد هذه النهضة الثقافية إلى عوامل، منها:

1 - تراكم الثقافة وتخمرها في الصحراء منذ حقب وعصور.

2 - تأصيل تخصص الفئات الاجتماعية مما نتج عنه أن تمحض الزوايا للعلم دراسة وتدريسا.

3 - وحدة المذهب: أسهمت وحدة المذهب في تقوية الروابط بين علماء المنطقة إذ ظل السفر طلبا للعلم سلعة رابحة، فيذهب الطلاب بحثا عن التحصيل واقتناء الكتب ويؤوبون محملين بالنفائس والدرر من كتب غالية في شتى التخصصات، إلى غير ذلك من العوامل التي أسهمت في إثراء نهضة ثقافية تجلت في مستويات كثيرة كالمستوى الفكري والمستوى الأدبي.

فعلى المستوى الفكري، شهدت المنطقة مشادات فكرية ساخنة من سماتها الجدل والحوار المستمران بين أطراف الصراع في البلد، يقول الشاعر المامون بن الصوفي (ت 1233 هـ) مصورا الواقع المعيش:

حرب الزوايا جدال أو مناظرة	أقلامهم كقسي النبع والسمر
لابد أن تشهدوا يوم الجدال بها	إن المدار على ما خط في الزبر

وحمي وطيس حرب كلامية حول العقيدة فهما وشرحا، فبرزت اتجاهات رئيسية:

1 – الاتجاه الصوفي : يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الإيمان بالعقيدة القائم على النظر العقلي والاستدلال المنطقي إيمان جاف، والإيمان الصحيح في نظر هذا الإتجاه هو إيمان العارفين بالله المتصوفة ويمثله الشيخ سيدي المختار الكنتي

2 – الاتجاه السلفي: ارتأى التمسك بالكتاب والسنة في كل ما يتعلق بالعقيدة، منكر الجدل في الأمور العقدية بالعقل ويمثله المجيدري بن حبيب الله

3 – الاتجاه الأشعري العقلاني: يروم استعمال الحجة والبرهان في العقيدة ويمثله المختار بن بون الجكني[8].

ولقد بلغ هذا الصراع درجة التضليل والتكفير، يقول المختار بن بون عند سماعه بوفاة خصمه المجيدري بن حبيب الله:

أودى الضلال ألا فليفرح الجذلا	من عاش ضلا مضلا شاقق الرسلا

فيجيبه تلميذ المجيدري وابن عمه مولود بن أحمد الجواء:

أودى الكمال ألا فليفرح الجذلا	من لا يموت ومن لا ينقضي أجلا

إن هذا التفتق الثقافي والفكري الذي عرفته الصحراء المغربية البدوية قد يضع علامة استفهام أمام قولة ابن خلدون الشهيرة:

«إن العلم إنتاج حضري لا يقوم إلا حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة لأنه من جملة الصنائع»(9).

وقد يبدو من هذا النمط أن استيطان المدن قد لا يكون شرطا بالضرورة في ازدهار ثقافي، ذلك أن هؤلاء القوم البدو تمكنوا من تحقيق نهضة ثقافية نموذجية على ظهور العيس وتحت الخيام وفي قفار الصحراء حيث الطبيعة لا ترحم، بل إن العلماء وطلبتهم ظلوا يزاوجون بين فضيلة تعلم العلم ونكهة التجوال طلبا للسياحة، فلا تثنيهم الدراسة عن البحث عن المرعى والكلإ وتتبع مساقط الغيث للعيش عيشة كريمة في بيئة امتازت بشح الموارد لترامي أطرافها وتباعد نقط التعمير فيها، يقول المختار بن بون مفتخرا بهذا النهج الجهادي المتميز:

ونحن ركب من الأشراف منتظم ... أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة ... بها نبين دين الله تبيانا

إننا نجد بعض الإرهاصات الشعرية ابتداءا من القرن السابع للهجرة عند بعض علماء المنطقة. من ذلك قصيدة دالية على بحر البسيط للشاعر محمد الغالي اشتهرت بقصيدة «القمح»، منها(10):

الحمد لله ما دام الوجود له ... حمدا يبلغنا منه الرضى أبدا
يا رب هيئ لنا من أمرنا رشدا ... وانشر علينا من الستر الجميل ردا

وقد يدعم هذا الرأي ما عرف عن الامام المفتي الحضرمي المعلم الثاني في بلاد الصحراء الذي اشتهر بقرضه الشعر إذ نجد الكثير من أشعاره مبثوثا في كتابه «السياسة».

لقد ظل أهل الصحراء يعيشون بالشعر وللشعر إذ كان حديثهم اليومي في شكل ألغاز ومساجلات وأسمار، مطوعينه تطويعا لشؤونهم وشجونهم حتى كأنهم يرضعونه من ثدي أمهاتهم على السجية والفطرة البدوية، يقول محمد فال بن عينين مفتخرا بهذه السمة المتميزة:

الطفل يولد فينا كابن ساعته منقبضا درر أصدافها ذهب
أنظر إلى ما لنا من كل قافية لها تذم شذور الزبرج القشب

ومما يدل على تأصل الشعر في البيئة الصحراوية ما تذهب إليه الروايات الشعبية من أن القائد ناصر الدين جلد الحبيب بن بلا اليعقوبي وأمر أن يطاف به مصفدا لقرضه هذين البيتين الغزليين:

رب حوراء من بني سعد أوس حبها عالق بذات النفوس
جعلت بيننا وبين الغواني والكرى والجفون حرب البسوس

لقد كان الشعر الديني أسبق من حيث الظهور من سائر الأغراض الأخرى نتيجة الطابع الصوفي الفقهي عند المجتمع الصحراوي وسهولة مخاطبة الشعر العقل وتطويعه في خدمة أحكام المعاملات وتلقين الفقه السني. وقرض الشعراء في سائر البحور الخليلية، فتفننوا في زركشتها وتنميقها صنعة وتصنعا مما أجج لهيب شياطينهم الشعرية وصقل قرائحهم ومواهبهم خيالا وتخيلا وتخييلا، فاكتسبوا بذلك ذوقا أدبيا رائقا حصيفا، فحفظوا ذخائره وأطاييبه وعارضوه معارضة استلهام واحتذاء وإيحاء واستيحاء.

ويذكر أحمد بن الأمين الشنقيطي في كتابه «الوسيط» اعتداد الشاعر امحمد بن الطلبة بنفسه وشعره إذ كان يعتبر نفسه

متفوقا على الشعراء الجاهليين، يقول: «أرجو من الله أن أقعد أنا والشماخ بن ضرار في ناد من أهل الجنة فننشد بين أيديهم قصيدتينا لنعلم أيهما أحسن»[11].

ويعني احمد بن الطلبة بقصيدتيهما جيمية الشماخ بن ضرار الغطفاني التي مطلعها:(طويل)

ألا ناديا أظعان ليلى تعرج ... فقد هجن شوقا لم يهيج

وقد عارضها ابن الطلبة بجيميته ومطلعها:

تطاول ليل النازح المتهيج ... أما لضياء الصبح من متبلج

وقال يوما في مجلس أنشد فيه ميميته التي مطلعها:

تأوبه طيف الخيال بمريما ... فبات معنى مستجنا متيما

«أرجو من الله أني أنا وحميد بن ثور ننشد قصيدتينا في ناد من أهل الجنة فيحكمون بيننا»[12]، ومطلع قصيدة حميد بن ثور:

ألا هيما مما لقيت وهيما ... وويحا لمن لم ألق منهن ويحما

وعارض بلاميته التي مطلعها:

صاح قف واستلع على صحن جال ... سبخة النيش هل ترى من جمال

لامية أعشى قيس (ميمون بن قيس) التي مطلعها:

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالي وما ترد سؤالي

وبما أن ابن الطلبة ممتعض من أحكام أهل الدنيا في مجال الشعر فلقد أرجأ لذلك نتائج هذه المسابقة إلى يوم القيامة وأسند تحكيمها إلى فريق من حكام أهل الجنة، فتمنى الإلتقاء بالشماخ بن ضرار وحميد بن ثور في ملإ من أهل الجنة ليتنا شدوا قصائدهم فيحكموا بينهم.

ونجد كذلك الشاعر سيدي عبد الله بن محمدي يجعل من الشعر الأندلسي مثلا أعلى يحتذى رونقا وطلاوة وأسلوبا، يتضح ذلك في قصيدته الموشية الطنانة الرائعة معنى ومبنى في مدح السلطان محمد بن المولى إسماعيل - رضي الله تعالى عنه -:

عـــروب عـــروس الزي أندلســيـــة ⁂ من الأيب الغض الذي روضـــه ندي

ونجده كذلك يمدح (مسك) بن بارك الله بن أحمد بزيد مدحا سهلا ممتنعا:

(تيـجـريت) ذاك النيل بالله خبـرى ⁂ بجـود غـمـام أم بجـود يدي مـسكا
همـا تعطيـان النوق قـبل سـؤاله ⁂ والأبحر بعد الغوص إعطاؤها السمكا
فـــمـــا (مـسك) إلا جنة بنيـــوية ⁂ به أضـحك الله الورى وبه أبكى[13]

وكثرت الألغاز والتوريات والكنايات الطريفة، يقول فتى بن سيد آمين بن الشيخ محمد المامي:

أبى الدهر إلا أن يكون مـسروعـــا ⁂ بجلب الذي يخشى الفتى وهو ينظر
إذا مــا توقى جـانب الخـوف جـاءه ⁂ من الجـانب المأمـون مـا كـان يحـذر

فالمأمون المورى به في شطر البيت الأخير إسم رجل معين تزوج قريبة لفتى بغير رضى منه، فلم يجد مندوحة لذلك من التعبير عن شعور استيائه تلميحا لا تصريحا عن طريق الرموز الشعرية.

ويقول الشاعر الذيب الحسني في تجريح قوم شهدوا عليه لصالح زوجته، مكنيا عن ذلك :

إن الشهـود الألى للخـود قـد شـهدوا ⁂ شهـادة سوف منها يسألون غدا[14]
لا يشـهـدون لدى الأضـياف قـسمتنا ⁂ وفي النوائب إن حلت بنا شـــهـــدا
وليس منهم سـعـيـد في ديانتـه ⁂ لكنهم خطهم من سـوئه سـعـــدا

فكلمة (شهداء) في عجز البيت الثاني تدل على أنهم لا يسألون لبخلهم وجهلهم، وفي هذا تلميح إلى أن شهيد المعركة لا يسأل في قبره، أما قوله في البيت الأخير (سعدا) فالمراد بها إشارة إلى قول مأثور عند أهل الصحراء (من سعادة المرء سوء خطه).

ونجد الشاعر الفحل المقل صلاحي بن الشيخ محمد المامي عندما نشب خلاف بينه وإخوته بسبب زكاة مال (أزناكه) وهو في الغربة مع محمد فال بن متالي[15]:

مالي أراني كلتى في هوى مسكه ... مالي إلى الفيد من بشر ولا حركه
مذ قيل إن ضياء الدين أسلمني ... للمعتدين وفيما قاله بركه
عندي لهم كلما جاؤوا بغائلة ... خمس وفيها لنفس المعتدى هلكه
سمر الحديد وعون الله جل وما ... جاء البشير به من مسلك سلكه
وشيمة الغوث لي من دونهم تبع ... ولي عليهم أبو الزغما وما ملكه

وهذا الشاعر الفحل ماء العينين بن العتيق يبتدع صورة شعرية لا تجد لها مثيلا في الشعر العربي تتمثل في صورة صنع ردف المرأة لإزارها من لحوق ساقها، في أسلوب حواري ممتع:

ألمت فولت بالحجا من تشوقه ... ولم يدر طعم الشوق من لا يذوقه
غداة التقينا للوداع فأدبرت ... وجمر الجوى في الصدر يذكي حريقه
فأتبعتها عيني نظرة مشفق ... من البين لاقى منه مالا يطيقه
فصادفتها تدلى إلى الساق مئزرا ... أبى الردف إلا أن يعاق لحوقه
فقلت لها والقلب من حسن ساقها ... مسوق إليها كيف شاءت تسوقه
أمجبا بحسن الساق منك تزينه ... تخالين من يرنو إليه يروقه
فردت إلي الوجه والثغر باسم ... تلوح على ماء الثنايا بروقه
وقالت: لحا الله الازار فإنني ... إن أدليته لم أدر ماذا يعوقه
فقلت لها: لا تعذليه فإنما ... بردفك مقطوع عليه طريقه
جزى الله عنك الردف خيرا فإنه ... مشوق ويبدى للحجا ما يشوقه

ويذهب الأستاذ: الخليل النحوي[16] إلى أن ظهور كتاب «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» في مصر ابتداءا من سنة 1911م

محملا بالكثير من المعارضات الطريفة أوحى إلى الشاعر أحمد شوقي - وهو يومئذ مازال يتلمس خطاه في أوج عزه ومجده الأدبي - بمعارضاته الآخاذة والطريفة جودة وإبداعا للشاعر البوصيري في ميميته وهمزيته الشهيرتين.

وغني عن البيان أن شعراء الصحراء المغربية في البداية انصب اهتمامهم على البعث والإحياء: بعث القديم التليد دون أن يتركوا البحث عن الطريف الجديد، ذلك أنه متى انتفت الجدة والحداثة في خطابهم الشعري حل محلها العتق والأصالة، فجددوا في شتى أغراض الشعر وموضوعاته. ومن بين من أحسوا بضرورة التجديد والبحث عن حل للأزمة الابداعية التي يتخبط فيها الشعراء في منهج متكامل يسبق فيه التنظير التطبيق، الشاعر اللوذعي سيدي محمد بن الشيخ ميديا في عينيته النقدية التي تعتبر بحق من «شعر النقد» مجسدا الأزمة الحقيقية ومشخصا إياها، يقول(17):

يا معشر البلغاء هل من لوذعي ... يهدي حجاه لمقصد لم يبدع
إني هممت بأن أقول قصيدة ... بكرا فأعياني وجود المطلع
لكم اليد الطولى علي إن أنتم ... ألفيتموه ببقعة او موضع
فاستعملوا النظر السديد ومن يجد ... لي ما أحاول منكم فليصدع

وظلت اللهجة الحسانية الشعبية ينبوع استلهام، وتجلى تأثيرها كثيرا في أساليب أهل هذا الجيل خاصة في مديحية الشاعر محمد الميدالي:

صلاة ربي مع السلام ... على حبيبي خير الأنام(18)
بادي الشفوف داني القطوف ... بر عطوف ليث همام
ذاك النبي الهاشمي ... ذاك العلي الهادي التهام

إن هذه المديحية ذات إيقاع عامي لا نجد لها مثيلا في البحور الخليلية وسبب قرض الشاعر هذه القصيدة أنه كان يسكن في أرض أحمد بن هيبة بن نغماش (ت 1175 هـ)، فسمع شعرا حسانيا في مدح هذا الأخير فأخذته غيرة إلهية وعزم أن ينظم على منواله شعرا فصيحا في مدح خير البرية، فبلغ ذلك ابن هيبة وأمر بإحضاره فورا ليستجوبه وهو في حالة غضب شديد. فسأله عما حدث، فأجابه الشاعر بكل إيمان وجرأة:

صرفت مدائحك باللهجة الحسانية في من هو خير مني ومنك. فما كان من ابن هيبة إلا أن أذعن، وتوطدت بينهما بعد ذلك صداقة خاصة بموجبها أهداه جملا وخطبه:

هي غرامة لك علي وعلى ولدي إلى يوم القيامة، ونجد كذلك الشاعر المجيدري بن حبيب الله يقرض شعرا فصيحا على نمط اللهجة الحسانية، يقول:

يا من يرى ولا يرى	عنى الكروب نفس
لقد نفى عن الكرى	شوقي لأهل (تيرس)
واجعل لأمر عسرا	يسرا بلا تعكس
لهفي عليهم نبلا	منهم نبين فضلا
إن قيس معبد على	غريدهم كالأخرس
أو قيس سحبان على	بليغهم لم ينقس

وهناك من الشعراء من ذهب به الأمر إلى أن خصص صدر البيت للهجة الحسانية وعجزه للغة الفصحى، يقول الشاعر باباه بن الشيخ محمد فال المجلسي[19]:

(مان كايل عن مور في الكبله)[20]	شاعر ذو عروض ومنطق وبيان
(كار الألفية حت واملغوفاهم)[21]	لا يبارى شهم طليق اللسان
(عند قدره أعل بيت أكول)[22]	مفصل مثل عقد مفصل بالجمان
(ويع واحد من تال عكس مع الأول)[23]	كاللئالي على نحور الغواني
(هذ ماريت غير مركب محمد)[24]	من ليمان ينتمي ويمان

وانطلاقا من هذا يمكن القول إن حركة البعث والاحياء بالصحراء المغربية كانت سباقة في مجال النهضة الحديثة فكريا وأدبيا، فالشاعر ابن رازكه كان بكل استحقاق وجدارة من روادها الأوائل، ولد عام 1060 هـ وتوفي سنة 1144 هـ عاصر السلطان: مولاي اسماعيل وابنه: محمد - رضي الله عنهما - وكانت له فيهما مديحيات من طراز خاص.

وامحمد بن الطلبة اليعقوبي باعث الشعر الجاهلي من مرقده ولد سنة 1774 م أي قبل ميلاد البارودي بأربع وستين حجة، وتوفي عام 1856 م والبارودي آنذاك لا يبلغ من العمر سوى ثمان عشرة سنة أي قبل ميلاد أحمد شوقي بثلاث عشرة سنة، أما سيدي محمد بن الشيخ سيدنا الذي طرح في قصيدته العينية الفريدة في شكلها إشكال التقليد والتجديد فتوفي عام ميلاد أحمد شوقي أي 1869 م. ولا ننسى كذلك أن ابن رازكه الذي أحيى الشعر الأندلسي توفي قبل ميلاد البارودي بما يزيد على قرن من الزمن. كل هذا قد يحملنا على القول إن شعر الصحراء المغربية كان رائدا في مجال النهضة الأدبية الحديثة، ونهضته سابقة على النهضة الأدبية في مصر رغم انسداد أبواب الابداع والتجديد أمام الشاعر الصحراوي المغربي إذ ظل يعيش في بيئة بدوية قاحلة اشتهرت بشح الماء والظعن حلا وترحالا بحثا عن الكلإ والمرعى، واستطاع مع ذلك أن يبدع شعرا. فهل الشعر بدوي بالطبع؟

ولابد من الاشارة كذلك إلى أنه لما كانت بعض الرباطات والزوايا العلمية بمراكش وفاس ومكناس تعيش حينا من الدهر على ما اختمر من إشعاع أدبي بالمدارس والزوايا العتيقة في تادلة

وسوس وتامكروت كانت الصحراء المغربية تشهد فترة ازدهار أدبي وفكري وتحول ثقافي خطير خاصة بعد (شريب)[25] الذي رجحت فيه كفة النص للقبائل الحسانية ضد قبائل الزوايا مما كرس حياة ثقافية جديدة وتقسيما سياسيا واجتماعيا متميزا.

وتطرق شعراء الصحراء المغربية لكل الأغراض الشعرية المعروفة، كما تبرز النصوص الشعرية المتوفرة حتى الآن، اتصال الشعراء الصحراويين بغيرهم من شعراء المغرب في مراكش وتطوان وفاس. فتبادلوا الرسائل العلمية والأدبية. وحظي البعض منهم بمقابلة ملوك الدوحة العلوية وتكريمهم الأريحي وهداياهم الجمة، وبات مدلول البيعة[26] عندهم واضحا في أشعارهم وضوح الشمس قيلولة النهار، إن هذا كله يبعث على القول إن أرض الصحراء المغربية لم تكن غفلا لا أنيس بها كما يدعي أعداء وحدتنا الترابية الضالين المضلين، ولم تكن عطاءات أبنائها الخيالية والتخييلية والمعرفية جافة كطبيعتها، كما قد يتوهم بعض رواد نظرية البيئة، وإنما ظلت قنطرة عبور وهمزة وصل بين شعوب عديدة، ومركز إشعاع ثقافي وحضاري متميز اندلع اشعاعه خارج المغرب لينير أصقاعا ظلت مظلمة.

ورغم إسهامات هذه المنطقة الصحراوية في إغناء تراثنا الوطني المغربي، فإنها لم تحظ بعد بما هي جديرة به من عناية الباحثين، ذلك أن أغلب البحوث والدراسات التي أنجزت حول التراث المغربي، كثيرا ما حصرت مجال اهتمامها وآفاق بحثها داخل أسوار مراكش والرباط وفاس وغيرها، متجاهلة ماخلفه أبناء هذه المنطقة وغيرها من المناطق المغربية المحيطة من نخائر

أدبية نفيسة وكنوز حضارية سامقة، إذا ما استثنينا بعض الدراسات الرائدة التي أنجزها بعض رواد البحث العلمي في بلادنا كدراسة عميد الأدب المغربي، فضيلة العلامة الدكتور: عباس الجراري حول «ثقافة الصحراء». وبعض البحوث الجامعية الأخرى التي أنجزت أو التي هي قيد الانجاز، إن جل التراث الصحراوي ما زال معرضا للضياع بسبب الإهمال وتضافر عوامل الاندثار عليه بسبب:

1- الموقع الجغرافي المتميز، إذ تترامى من ورائه المجابات الكبرى من جهة وبحر الظلمات من جهة أخرى.

2- نظام الحياة البدوية المتميزة بالاضطراب وشظف العيش والكوارث الطبيعية، حيث تضيع الكتب حرقا أو غرقا أو إتلافا، لأن المكتبات متنقلة كأصحابها. إن إنقاذ هذا التراث الصحراوي المغربي مشروع خطير لا ينبغي أن يترك للصحف، ولابد من تحطيم القيود بالرجوع إلى ماضي هذا التراث الأثيل استشرافا واستيحاء لتأخذ الأمور مجراها الطبيعي نحو غد أفضل ونهضة علمية مستنيرة، وطنية في أهدافها، متفتحة في استلهاماتها، أصيلة في جوهرها.

وإذا كان لابد مما ليس منه بد، فالأولى أن نبدأ من البداية، أي بما هو أهم بالنسبة للمرحلة التي نعيش الآن، وذلك بصقل معالم مقومات هذه الصحراء ثقافيا وحضاريا، إذ ثمة الدعامة الجوهرية. إن في ذخائر أدب الصحراء المغربية أعلاقا وكنوزا أدبية مازالت لم تستكشف أو لم ينفض عنها غبار النسيان.

لهذا كله يكون اهتمامنا بأدب الصحراء مبررا، إذ التعجيل بتحقيق ما تيسر تحقيقه منه، يصبح ضرورة أو كالضرورة، فهذا

التراث مازال في مجمله مخطوط في شكل رقع ومجموعات ومختارات ودواوين شعرية ورسائل وسير ورحلات،بعضها معروف عند الناس بالنسخ والرواية، وبعضها تهدده الأرضة أو يمحوه النسيان من ذاكرة الرواة، ولا يمكن تحقيق هذا التراث ضربة لازب لتنوعه وضخامته وتشتته زمانا ومكانا، وانتشاره بين عدد كبير من الخزانات والمكتبات الخاصة داخل المغرب أو خارجه، وإنما يجب أن يتم جمعه وتحقيقه وفق برنامج مدروس ومحدد.

لقد عمل الاستعمار الغاشم على التقليل من مزايا أهل الصحراء المغربية أدبا و تراثا وفضائل علمية لما أبان عنه أهلها من بطولات وتضحيات في سبيل مقاومته بشتى الوسائل، فعمل على طمس معالمها الحضارية والتراثية بمختلف الوسائل والحيل الماكرة، كإحراق خزاناتها والتنكيل بعلمائها والسطو على ذخائرها العلمية والمعرفية ومسخ شخصيتها الوطنية والروحية.

ويمكن أن نجمل المسائل التالية في هذه النقط:

1- أن علاقة أهل الصحراء المغربية بالمملكة ظلت علاقة عضوية.

2- أن أنشطة الملوك العلويين اتجاه الصحراء من أجل تحريرها كانت العامل الأساسي في استرجاعها من المستعمر حفاظا على هويتها الحضارية وبالذات في سلطان جلالة الملك المعظم الحسن الثاني، أيد الله ملكه.

3- أن التطور الاقتصادي والعمراني والعلمي في الصحراء المغربية بمستوياته المختلفة كان له الأثر الكبير في انتشار الرخاء المعيشي والاستقرار الاجتماعي الذي ساد المناطق الصحراوية.

4- لابد من رد الاعتبار للتقاليد الصحراوية المغربية كإحياء المحاظر لمحاربة داء الجهل والتخلف الأعمى، لأن المستويات الخلقية والأدبية للمجتمع الصحراوي المغربي التي تعكسها النصوص الواردة في المتن، تعتبر في قمة سلم النظم الأدبية والخلقية والروحية.

5- إن الثقافة المغربية الصحراوية ذات وجه حضاري وضيء يعكس صورة ارتباطها في الجملة بالثقافة العربية الاسلامية عموما.

6- يتعين انتشال ما يمكن انتشاله من التراث الصحراوي المغربي من مخالب الضياع وأكل الأرضة ونفض غبار النسيان عنه بجمعه وتدوينه وتحقيقه لإثبات هويتنا الأصيلة.

7- إن التزوير والبهتان لايغيران من حقائق التاريخ.

8- يمكن القول إن الكثرة الكاثرة من الأحكام والنظريات النقدية التي اشتهرت في أدبنا العربي كثيرا ما تأسست على نظرة عجلى وتدوين ناقص إذا انطلقت من المركز وهمشت أو تجاهلت الأطراف، وأنصع مثال على ذلك الغزل العذري في العصر الأموي الذي همش إلى درجة التنكيل بأصحابه والحكم عليهم شنقا بالاعدام لأنهم «تغزلوا».

فهل يعني هذا أن نهضة الأدب العربي الحديثة نشأت ونضجت في الصحراء فكانت ضحية مؤامرة «صمت» عليها؟

*****

الهوامش :

(1) اعتمدنا في صياغة المقدمة على البحث الذي أنجزناه تحت إشراف العلامة الدكتور محمد بنشريفة لنيل: د. د. ع. بعنوان: تقديم وتحقيق الجزء الثاني من ديوان الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية للشيخ محمد الغيث النعمة (مرقون بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة محمد الخامس).

(2) من مقال لأستاذنا فضيلة العلامة الدكتور: عباس الجراري
أنظر: حوليات كلية اللغة العربية – العدد الرابع 1415 هـ/1994. ص 180، من مقال بعنوان: خواطر حول أدب الصحراء المغربية للمداح محمد المختار.

(3) أنظر: حياة موريتانيا – الجزء السياسي – للمختار بن حامد، ص 08.

(4) أنظر: رسالتنا لنيل: د. د. ع. المشار إليها في أول هذا المقال، ص 27.

(5) هذا ما جعل بعض الباحثين يميل إلى استعمال كلمة «شنقيط» بدل كلمة «موريتانيا»، ذلك أن مفهوم كلمة شنقيط مرتبط بتلك المدينة القديمة ذات الشهرة الواسعة تاريخيا وحضاريا، أما كلمة «موريتانيا» فلقب أطلقه المستعمر الفرنسي في بداية هذا القرن عندما قسم شعوب المنطقة.

(6) أنظر: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي، ص 493.

(7) حياة موريتانيا – الثقافة ج 2، للمختار بن حامد، ص 175.

(8) أنظر تفصيل هذه الأمور في ص 40، من بحثنا المشار إليه سلفا في هذا المقال.

(9) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة. تحقيق عبد الواحد وافي، لجنة الميثاق العربي، القاهرة، 1965، ص 434.

(10) أنظر: الخليل النحوي: بلاد شنقيط، المنارة والرباط، المنظمة العربية للثقافة والعلوم بتونس، 1987 م، ص 251.

(11) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين، ص 95.

(12) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص 118.

(13) أنظر: حياة موريتانيا «الجغرافيا» للمختار بن حامد، ص 235.

(14) حياة موريتانيا «الثقافة» للمختار بن حامد، الدار العربية للكتاب، 1990 م، ص 105.

(15) أنظر تفصيل ذلك في الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص 222.

(16) أنظر: بلاد شنقيط، الرباط والمنارة للخليل النحوي، ص 255.

(17) أنظر الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص 270.

(18) نفس المصدر، ص 223.
(19) أنظر: حياة موريتانيا الحياة الثقافية، للمختار بن حامد ص 146.
(20) ترجمة هذا الشطر إلى الفصحى: لا أقول إنه يرى في الكبله...
(21) قارئ للألفية جيدا.
(22) عنده قدرة على قول بيت.
(23) ويأتي واحد أخيرا.
(24) هذا ما رأيته في غير سوى محمد.
(25) (شريب): حرب شديدة الوطيس قادها ناصر الدين عن فئة الزوايا: بلاد شنقيط، الرباط والمنارة ص 100.
(26) أبرز محطات هذه البيعة ما نجده عند الشعراء والعلماء مثل:
- ابن رازكه الذي ظل صديقا حميما للسلطان سيدي محمد العالم وذا مراسلات علمية وأدبية مع علماء فاس.
- التكريم والاحتفاء اللذان لقيهما الشاعر المجوال المجيدري بن حبيب الله لدى السلطان: سيدي محمد بن عبد الله.
- قصائد العلامة الشيخ محمد المامي بن بارك الله (1204 هـ - 1284 هـ) التي كان يختمها دائما ببيت نموذج دعاء صالحا للملوك العلويين، مشيرا إليهم بضمير الغائب وإن لم يذكرهم مما يدل على استحضارهم في ذهنه يقول:
(بجاههم بارك لنا في المغرب والعمر يا رب وفي ذا النسب).
ومشهورة قصيدته (السلطانية) المهداة إلى محمد بن عبد الرحمن بمراكش تقريضا لكتابه (نظم الشيخ خليل) وهي طويلة منها:

فإن يعش في المسلمين مصعب ... فذاك من زماننا ما نطلب
بعصره نباهي الأعصر الأول ... وكل دولة خلت من الدول
وببنيه الغر الأكرمينا ... زواخر الشرف الأعظمينا
الوارثين الشرف الأثيلا ... سلسلة الياقوت اسماعيلا
أبقاهم الله لنا في الأرض ... رواسيا في طولها والعرض
قاعدة على رقاب المرده ... هادية للكتب المجددة

(إلخ...)

*****

الشعر المغربي وقضية الصحراء

أبو بكر المريني

شاعر في المسيرة الخضراء

مصطفى الشليح(*)

أحكم الاتصال حلقاته بين القصيدة المغربية والواقع الذي تنتسب إليه مظهرا ومخبرا، فانخرطت فيه انخراطاً أهلها لأن تكون معبرة عنه، وجعل من بعض نماذجها تكاد تكون تقريرا أو وثيقة مما أزاح عنها - أحيانا - رداء الشعرية والجمال وحولّها إلى ضرب من المقال ليس له من ضوابط الشعر إلا وزن وقافية وهما ليسا بالمؤهلين لانتاج كلام فني ينزاح عن المعتاد.

وإذا كان الإتصال قائم المقام في النماذج برمتها - وهو ما نسعى إليه - فإن خصوصية القصيدة المغربية نبعث من ذيّاك المقام من حيث إنه مبلور لانعكاس الواقع على النص، بكافة مفارقاته وتناقضاته، الذي تمظهر شعرا أو نثرا أو هما معاً. وغني عن البيان أن المغاربة - على غرار الأندلسيين - وصلوا بين الإنتاج نظما وشفعه نثرا، بل إن بعضا من كتابات الشعراء المغاربة زاوج بين الصناعتين في عمل أدبي واحد.

نعتقد أن النص المغربي أبرز جدلية العلاقة بين الأنا والنحن، بين ذات المبدع والذات الجمعية، وبين الأنا والآخر، ثم بين اختزال

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، جامعة الحسن الثاني.

استقبال الشاعر للمعطيات الخارجية ونوعية تذويتها واستثمارها فإرسالها إلى قارئ مفترض تحكمه أجواء محافل معرفية، وتضبطه متعاليات تراثية معينة.

من هنا - وبعيدا عن معياري الجودة واللاجودة - تمتلك القصيدة المغربية فضاءها التداولي وبرنامجها الترويجي حسب المقاييس السائدة عصرئذ. كان المبدع والمتلقي آخذين بحواشي النص إنتاجا وإعادة إنتاج، وكانا - معا - يتجاذبان قطب رحى عملية التواصل، ويداعبان آليات اشتغال الجهاز القرائي في المجتمع المغربي انتاجاً فرواجا، وامتلاكا فاستهلاكا فانتهاكا.

وسم الاتصال - إذن - الثقافة المغربية، موضوعاتيا وفنيا، داحضا ما ترتئيه بعض الأبحاث من كون الانقطاع ظل سيداً، و من كون الأجيال عملت بدون ذاكرة. وإذا كنا قد أكدنا حوارية التجارب في الشعر المغربي، وأثبتنا ما نعتقده صواباً من أن الاستمرارية هيمنت على الأدب المغربي[1]؛ فإن الرأي - عندنا - مازال قائلا: ان التجربة الشعرية المغربية عالقة قوادمها بخوافيها ولاحقة أعجازها بصدورها.

إن تأملا دراسياً للتراجم والفهارس والمناقب، ناهيك عن المجاميع الشعرية والنثرية الصرف، وان تعاملا متقصيا لاشتغال التناص ولجوانبه غير الملتفت إليها من تخميسات وتذييلات، ومراجعات ومساجلات، وتشطيرات وتضمينات لمن شأنهما أن يكشفا عن مواطن جمال واتصال انصرف عنها الدرس النقدي معتبرا إياها قاطرة منظومات وان كان الوقوف على أرصفة المباشرة النصية وحده يخول التمييز بين الشعر واللاشعر. ذلك التناص المبشر بالتناسلات النصية مؤشر إلى ما ندعوه : معرفية الإتصال.

ومعرفية الاتصال حَرية أن يفرد لها حيز دراسي يجاور النص ويحاوره، يتسلل إليه ويساءله، يختبر أمر انقطاعه ويسبر عمق تقاطعه، ويسكنه ليستشف لمح التداخل وروح التكامل في ضوء النسقية الواضعة معالم التعدد والتوحد في القصيدة المغربية.

بهذا، وبغيره من التصورات، يفحص الشعر. وباستحضار الأصول تُجس معاصم الفروع؛ فالابداع ليس معناه الاقلاع من بياض. ثم ان الذاكرة عنصر فاعل في لعبة الانتاج. ولا نعتقد أن هناك شاعراً اغتال ذاكرته، وإذا حدث هل في مقدوره أن يغتال ذاكرة المتلقي؟ وإذا وقع فما هو السَّنن الذي تُركب وتفك الرسالة الواصلة بين الشاعر والقارئ؟

للذاكرة، إذن، دور في دعم أطروحة الاتصال – في المغرب – بشقيها:

1- الاتصال بالنص السابق.

2- الاتصال بالقارئ اللاحق.

هما شقان يؤسسان تراوح العلاقات بين ارتداد وامتداد : بين ارتداد إلى الذاكرة، وامتداد إل حيث المتلقي داخل/ خارج الدائرة.

ولعلّ وفادة الشعر المغربي من الصحراء، نابضة بالاتصال وخائضة في النضال، ما يدعم ما ورد آنفا من مستحكم الصلة بين القصيدة وواقعها. فشعر الصحراء كان ومازال (أداة وحدة، ووسيلة تواصل، أي أنه لم يكن في يوم ما شعرا منعزلا أو منغلقا يتحرك في بيئته فقط، ولكنه كان دائما يمد يده إلى أطراف الوطن ليندمج فيه وينصهر داخل بوتقته في عملية أخذ وعطاء مستمرين، توسل فيهما بكل الممكنات المتاحة لاثبات الوحدة وتأكيد التواصل، على

الرغم من الظروف التي كانت في معظمها صعبة بما تلقي به في الطريق من عوائق وحواجز)[2] كما يقول د. عباس الجراري.

ينهض أمران بتاريخية وفادة الاتصال:

1- انتقال بعض أدباء الصحراء وعلمائها إلى أقاليم الشمال وإقامتهم فيها للدراسة أو التدريس، أو هما معاً.

2 - تبادل الإجازات العلمية بين علماء الصحراء وعلماء المناطق الشمالية[3].

ويؤطر ذينك الأمرين، وغيرهما، أساسان مركزيان:

أ : البيعة والولاء لأمير المؤمنين ملك المغرب.

ب : وحدة الدين والعرق واللغة والثقافة.

أساسان وحدا بين أصوات يحجب بن خطر، ومربيه ربه، وأحمد الهيبة، ولارباس بن الشيخ محمد الأغظف وغيرهم[4] بأصوات علال الفاسي، ومحمد بن اليمني الناصري، ومحمد المهدي الحجوي، وعبد الكريم سكيرج، ومحمد السليماني، ومحمد المختار السوسي، وعبد القادر حسن[5]. للمناداة بالاصلاح، والدعوة إلى مواجهة الاستعمار ومجابهته، وتجاوز الكائن إلى الممكن. وقد كان ذانك الأساسان المؤطرين اللذين لم يفلح المحتل في إخماد نورهما ونارهما، واللذين صيرا الفعل الشعري دعوة للجهاد، وواجهة للنضال، وأبلغ رد على أشكال الجبروت والاستعباد.

إن هذه الوحدة بين شمال وجنوب البلاد قادت المغرب إلى تنحية كل ما من شأنه أن يشوب صفاءها، وذلك بإعلان القرار التاريخي بتنظيم مسيرة خضراء إلى الصحراء منذ عشرين عاماً.

وإذا كان القرار يستوجب دراسات متنوعة المجالات المعرفية فإن ما يهمنا منه - بحكم اهتماماتنا - المتن الشعري الذي تراكم قبله، والنصوص التي رافقته وخلدته، والقصائدالتي انتظم عقدها بعده وأصبحت محتفية بذكراه.

وليس المطمح استقصاء كل ما قيل من شعر في اللحظات التاريخية الثلاث، ولكن حسْب هذا البحث إشارات إلى بعض منه بدءاً، وحسبه إضاءات لما انفك منه مخطوطاً، وحسبه - ثالثا - التركيز على شاعر مغربي شارك في المسيرة الخضراء، وترك من القصائد ما قد يشكل ديوانا في الوطنيات.

شاعر هذه الدراسة أو الذي تنصب على أشعاره هذه الدراسة هو: أبو بكر المريني[6] الذي تميز بثراء المشاركة الثقافية في مختلف الأجناس الأدبية، واتسم - على منوال الشعراء المغاربة - بوفرة الاسهام، شعرا، في القضايا الوطنية والقومية.

وقد هيمنت قضيتان على شعر أبي بكر المريني: قضية فلسطين[7] وقضية الصحراء، سواء في أشعاره السياسية أو الدينية، أو المواكبة لحدث من الأحداث.

وقضية الصحراء - قبل المسيرة - استأثرت بشعر علال الفاسي- علاوة على موقفه السياسي، ونشاطه الإعلامي والثقافي-؛ ولعله - فيما نعلم - أن يكون الوحيد الذي نظم قصيدة وطنية ابتهاجا بـ(اجلاء رفات المارشال ليوطي عن المغرب)[8] دعا فيه إلى رفع القيد عن الصحراء:

وطني العزيز تقدست جنباته ... وتوحدت في ظله أنحاؤها
ان كان حرر أرضها وجبالها ... فلقد تنوء بقيدهم صحراؤها
اني تطيب حياتنا بشمالنا ... وبنو الجنوب وأرضهم أسراؤها

نحن الذين تعاهدوا أن يبذلوا   من أجلهــا، أنا لديك فـداؤها
لا نستكين إلى الهناءة برهة   حتى يتم إلى البلاد هناؤها

ويتوجه في مولدية[9] إلى جلالة الملك باعتباره حامي الوطن ومحرره:

يا مليك البلاد أنت لها اليوم   لا تمام الوحدة الوطنيه
كم اقاليم في بلادك مازالت   تنادي: اليَّ يا منقذيه
وأهالي الصحرا الشناقطة الغر   ذوو العزم والنفوس الابيه
مالهم في سوى التحرر والوحدة   من غاية ولا أمنيه
كلهم يرقبون أمرك بالفتح   ليفدوا سهام تلك الرميه

ويخلص في مولدية ثانية إلى الحديث عن مُنى الصحراويين في أن يكون لهم جلالة الملك مآبا[10]. ويخص تلك المنية برائية سبعيتية عنونها بـ(نداء من الساقية الحمراء ووادي الذهب إلى المواطنين ملكاً وحكومة وشعبا)[11] يقول منها:

ويا أبناء قومي في الصحاري   ثباتا في مواجهة المجاري
ففضلكم على الوطن المفدى   يسجل في صحائف من نضار
وان المغرب الأقصى ليعنو   إليكم في اشتياق وانتظار
وكل بني البلاد يتوق دوماً   إلى بذل الفداء على اختيار
على تحريركم أهلا وأرضا   وفك إسار احرار ضواري

وخليق بنا أن نشير إلى ديوان (عبقر في معركة التحرير من أجل استرجاع أراضينا المغتصبة)[12] لمحمد بن محمد العلمي الذي اشتمل على أربع عشرة قصيدة تمحورت كلها حول قضية الصحراء المغربية، دون أن نغفل – تمثيلا – بروزها في العرشيات مثل (موعد مع الصحراء)[13] لمحمد الحلوي، و(صحراؤنا لك تشتكي أوصابها)[14] لعبد الكريم التواتي، و(دعوت الصحرا فوافت جموعا)[15] لمحمد الكبير العلوي.. إلخ.

في ضوء ما تقدم تُموضع قصائد أبي بكر المريني، وقد اخترنا منها ثلاثة نصوص تمثيلية قد تختزل محاورها في ثلاثة: البدعة والبيعة والروعة.

1- البدعة : ومفادها سفر الاستعمار خارج التاريخ بسعيه إلى فصل الصحراء عن الوطن الأب.

يقول في فاتحة قصيدة (معركة الصحراء)[16]:

بني وطني هبوا قد استفحل الأمر	وفرخ في صحرائنا الدس والغدر
لقد بيت الاسبان فصل قفارنا	عن الوطن الغالي وفي النية المكر
وردت الأخبار ما خططوا لها	وما عزموا فطابق الخبر الخبر
وقد مزقوا ما قررت أمم بشأنها	.. وطغوا باغين يحدوهم الشر
يريدون تزييف الارادة جهرة	بساقيتي الحمرا وواد هو التبر
لعزلهما عنا وتعميق هوة	.. الشقاق لكي ما يستمر القهر
وتنصيب أنصاف الرجال (لدولة)	وليس لهم في الحكم نهي ولا أمر
وقد هيأوا للحفر أبلد خطة	نراها، وفي الصحراء كم يصعب الحفر
وقد جهلوا أن الفيافي منيعة	وأن بها كم يسهل الدفن والقبر

ويضيف من أخرى تأتلف مع سابقتها معنى ومبنى، وتشاكلها في رفض مغامرة الاسبان في ما وراء معنى التاريخ، وتختلف معها من حيث الاستهلال بمطلع حماسي بطولي يغلب عليه الطابع الحكمي. يقول في (ثورة الحر)[17]:

الزحف اقطع دابراً من الجدل	والعزم أمضى سلاحاً في يد البطل
والضيم ضيم وان كانت مناقبه	فوق الثريا ولو يمطرك بالقبل
والعار عار وان كيفت أنملة	وليس في ابقائه عذر لذي غلل
والحر حر وان قصت جوانحه	لابد يوما سيعلو قمة الجبل
والحق حق ولن يضيع طالبه	مهما يدبر لصه من الحيل
والحق يؤخذ رغم أنف غاصبه	وليس يعطي تقول سائر الملل
لابد يرجع كاملا لصاحبه	حتى ولو أنهم أخفوه في زحل

لسنا في معرض رصد جمالية التعبير الشعري وقدرته على التخييل ونقله للحدث من ماهيته الفيزيائية إلى فضاء ذي شعرية رائقة دون أن يفقده حرارته الموضوعاتية، ولكنه باد، من خلال النموذجين، جنوح الشاعر إلى المباشرة والخطابية. هل كان الحدث في عنفوانه أقوى وأعتى من مباشرته بالفن والجمال؟

يذهب بنا الاعتقاد إلى ذلك التخريج دون أن يبعد عنا القول إن المقطعين مفتقران - في شذرات منهما إلى الرونق والماء الشعريين.

2- البيعة : وسرها اختيار روحاني ووثاق نوراني بين العرش والشعب. وقد انبنت القصيدة المادحة - في المغرب - سواء أكانت عرشية أم مولدية على إبراز تلك الرابطة المقدسة بين أمير المؤمنين والرعايا من خلال ثلاثة مكونات: النسب الشريف، والامامة، والأيادي البيض. وان الناظر في الشعر الوطني يقف على هذه الخصوصية المغربية المزاوجة بين الديني والسياسي، والملتفة حول جلالة الملك باعتباره المحرر والمنقذ من عنت الاستعمار. من ثمة فالبيعة اجماع ولاء الشعب لجلالة الملك، وقد تبارى شعراء العرشيات في بيانه والتعبير عنه.

هذه البيعة هي الوثيقة الأولى الشاهدة على مغربية الصحراء، وهي - كما أشرنا - الأساس المركزي الحق لاستمرارية التواصل بين شمال المغرب وجنوبه. يجعل أبو بكر المريني البيعة لنقض البدعة التي رام المحتل إحداثها في صحراء المغرب. يقول:

وقد أجمع الشعب الأبي على الفدا ... واجماعنا يقوده الملك الحر
وللحسن الثاني عقدنا لوائنا ... لتحرير أجزاء الحمى، فله الأمر
وويل لخصمي ان تمادى بغيه ... وأن يتحدانا فقد ضمه القبر
ومعركة الصحراء في قلب شعبنا ... وقائدنا حتى يتم لها النصر
وانا لها عرشا وشعبا ودولة ... لها الدم يخص والنفائس والعمر

ويضيف :

فصرخة الحسن الثاني ترددها ... الصحراء والخصم فيها مس بالخبل
صحراؤنا يشهد التاريخ من قدم ... بمغربيتها وماثر الدول
والشعب قد عقد اللواء للحسن ... الثاني وكذلك شأنه مع الأول
واليوم نرجعها والله كاملة ... وقد لجأنا إلى التحذير والرسل

ويزيد من أخرى قيلت بمناسبة عيد الشباب (اليوم عيد ولا فخر)[18].

والكل خلف المليك ثائر جـذل	واليوم عيد ولا فخر ولا ندم
عيد توحد فيه صف أمتنا	واختل صف الغزاة وانقسموا
وعيدنا يوم ندعى للشهادة لا	نبغي سواها ولا تهمنا النعم
تسعى إلى نيلها والقلب مبتهج	والصدر منشرح والثغر مبتسم
فقل لمن ساء ظنهم بوحدة صفنا	ألا ساء ما ظنوا وما حكموا
وساء ما دبروا، وساء كيدهم	وخاب سعيهم، والله قد وهموا

3- الروعة : ودلالتها بشرى يزفها الشاعر إلى الراسفين في أغلال الظلم والاستعمار بدنو إشراقة الخلاص. وأكيد أن هذا الاختتام الباسم للقصيدة ديدن معهود في بناء القصيدة الوطنية بشكل عام، والمسربلة منها برداء الصحراء بنوع خاص، وقد تداولها الشعراء المغاربة بل تعاوروها وافصحوا عنها بألوان متعددة.

تأخذ الروعة موقعها من قصيدة (معركة الصحراء) وفق حركة لولبية تصل ما تأخر من الأبيات بما تقدم، ويسعف، في ذلك الوصل، التكرار المتشح بأسلوب النداء. يقول :

بني وطني في قلب صحرائنا أبشروا	فقد أشرقت شمس الفدا نورها نصر
ويوم غد حادي الجمال يغنيكمو	بزهو بطولات الفدا كلها فخر
فمهلا فإن موعدي معكم ضحى	فإن لم يكن ضحى فموعدنا العصر
ويهتز تاريخ النضال بشعبنا	وكم وشح التاريخ شعبي ولا فخر

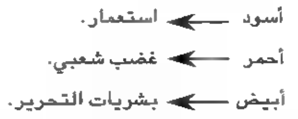
وهي تقنية يعيد توظيفها في الميمية الواردة أعلاه :

يا اخوتي ثم لا.. لا تيأسوا فلقد	هب الصناديد للجهاد والتزموا
انا على موعد يقودنا الحسن	الثاني لتحريركم في خطوه الحكم
مجاهد ليس في الملوك ثانيه	إليه ألقت زمام أمرها الهمم

ويكرر استثمارها في اللامية:

يا اخوتي في العيون والسمارة..	اني سوف آتيكم بالعيد والقبل
وسوف أشدو لكم تحت الخيام ملا	حم المحبة فيكم إن ذا أملي
وموعدي معكم غداً، وان غداً	يدق بالباب محمولاً على جمل

لقد شكلت هذه المحاور الثلاثة: البدعة والبيعة والروعة مكونات قصيدة الصحراء عند أبي بكر المريني، مع ما يمكن أن يتفرع عنها من مكونات صغرى؛ وهي، في مجملها، نموذج لنوعية تعامل الشعر المغربي مع قضية استكمال الوحدة الترابية. وإذا خولنا لنفسنا حق وسمها بالألوان قلنا أن نقول: إن الأسود والأحمر والأبيض، ألوان قصائد المرحلة:



هذه الألوان الثلاثة التي تدرجت من السواد إلى البياض في النصوص الشعرية عموما، وقد يكون منها من توسل في البناء المعماري للقصيدة بإثارة الحمرة، قبل السواد، تمهيداً للبياض.

تلك الألوان الثلاثة اختزلت إلى لونين. والتراتبية عدلت عن وجهتها المذكورة سلفا، فأصبح النص مركبا من الأخضر الذي أطاح بالأحمر باحتوائه قرارا مصيريا وزحفا شعبيا بالقرآن والايمان في مسيرة خضراء لاسترداد الصحراء، ومن الأبيض الذي تسامى صعوداً من اختتام النص به إلى استدعائه ليكون استهلالا.

وفق لعبة الألوان هاته أو قريب منها تحرك الشعر المغربي عقب اعلان قرار المسيرة. وقد يملك الناقد تعليلا، أو لا يملك، لدرجة الجودة التي أتت عليها قصائد تلك اللحظة، على الرغم من ضغط الزمن وعدم التفات الشاعر إلى التنقيح والتحسين. أهو الصدق العاطفي يوازي – لا شعوريا – تحكيك القول؟ أم ان الشعر – أساساً

- ما ينقال وليس ما يقال؟ انها اشكالية تستوجب درساً لانها سوف تتكرر في القصائد التي قيلت في حرب الخليج.

تساؤلات يمكن للقارئ أن يثيرها والمقارنة معقودة بين النماذج التي سيقت لأبي بكر المريني سلفا والنماذج التي سوف تطرحها الدراسة لتعرف بها أولا ثم لتجالسها - برفق - ثانيا. لقد تخلى الشاعر عن لغته المباشرة، وعن خطابيته المجلجلة، وبدأ يعبر بالصورة؛ وحتى حينما تمتد نبرات الخطاب فإن جمال الشعر يلطفها، أو قل إنه يكسبها أداء شعريا رفيعا.

تمثل قصيدة محمد الحلوي (العبور الأكبر)[19] البلورة الشعرية الرائقة لاتصال الشعر بالحدث، ونحن نتحدث عن أدبيات المسيرة، وتعبر نصوص أحمد عبد السلام البقالي عن مسايرة للحدث في مختلف أطواره، وقد تكون وافرية محمد الكبير العلوي (جيوش الله ظافرة)[21] من أبلغ ما قيل من شعر.

لكن، ومن غير اعتماد مقياس المفاضلة، تقف قصائد أبي بكر المريني على قدم التكافؤ في الجودة مع غيرها من النماذج الواردة أعلاه. هنالك خمسة نصوص نظمت قبل الاعلان عن انطلاق المسيرة الخضراء، ولعل (اليوم المشهود)[22] أن تكون - في اعتقادنا - من أجمل ما كتب أبو بكر. يقول في مطلعها :

قف يا زمان فإن اليوم مشهود	الحق جاء وظل الله ممدود
والحق يعلو ولا يعلى عليه فقل	لمن تربص: للتزوير تفنيد
والحق مطلبنا، والعدل حجتنا	والسلم خطتنا، والحكم تأييد
لاهاي أنصفت التاريخ مقسطة	وللعدالة تقدير وتمجيد

ويضيف:

والله أكبر تعلو في مسيرتنا	والنصر أت تحييه الزغاريد
وكل حبات رمل البيد راقصة	شوقا لأقدامنا: لبيك يا بيد

لبيك صحراءنا، لبيك من حسن ... ومن رجال هم الصيد الصناديد
نفديك من كل طماع ومغتصب ... والمجد في مفرق الصحراء تأبيد

ويردف متحدثا عن زحف المسيرة المتوقع:

اعلامنا الحمر في الصحراء نرفعها ... والله أكبر تهليل وتحميد
وفي يد مصحف، وفي يد علم ... وفي اللسان كلام الله تجويد
جئنا نزف سلاما في مرابعنا ... لاخوة حبلهم بالله مشدود
انا لنكتب بالقرآن ملحمة ... لها خلود، وتمجيد، وترديد
في المغرب اليوم يوم الحشر نسبقه ... على مدى البصر الممدود مشهود

ويخلص إلى المشاركين في الزحف:

مسيرة الفتح والاعلام خافقة ... قوامها الشيب والشبان والغيد
كأنها رجة في الأرض منبئة ... بساعة الحسم فهو اليوم موؤود
والشمس تشرق من أقصى مغاربها ... خلاف عادتها، واليوم موعود

ويختتم بقوله:

ونحن بعنا إلى الرحمان أنفسنا ... والبيع لله ربح كله جود
والله أيدنا بالجند من ملا ... أعلى وما لجنود الله تحديد
من يعتصم بك يا الله تنصره ... وإن نصرك يا الله منشود

وإذا كان المجال – كما أسلفنا الإشارة – لا يتسع لمعالجة نصية عميقة لـ (اليوم المشهود) لغةً وصورة وايقاعاً، فإن إطلالة أولية على النص تحقق ذلكم الانجذاب الذي يحس به المتلقي: انجذاب المتعة والاقبال مما يوفر حميمية التواصل الذي ينشده كل مبدع وقارئ.

لقد كتبت القصيدة في سلا قبل التحاق الشاعر بالجماهير المشاركة في المسيرة متطوعاً وصحافيا ورئيس تحرير لمجلة (الفنون) التي أصدر منها عدداً خاصاً بالمسيرة الخضراء وكتب فيه تحقيقا مطولا[23] عرض فيه لمختلف مراحل المسيرة من الخطاب المولوي بتنظيمها إلى القرار الملكي السامي بايقافها وعودة المجاهدين إلى منطلقهم. ونكاد نذهب إلى أنه ليس تحقيقا بقدرما

هو مندرج في جنس الرحلة باعتباره يستوفي جل مكوناتها ومقوماتها.

اعتبر أبو بكر المسيرة حجا إلى الصحراء في مقطوعة نظمت قبل وصول الوفود إلى مراكش :

لست وحدي حاجا إلى الصحراء
زاحفا في المسيرة الخضراء
حاملا قرآني بكل اباء
صامداً كالأطواد للأعداء
طامعا في اللحاق بالشهداء
داعيا للسلام غير مرائي
مالئا قلبي بالهدى والوفاء
سابقا للخيرات يوم اللقاء
لست أخشى العدا وأي اعتداء

ومن مراكش بعث برسالة حب للعيون[24] استهلها بقوله:

ها أنا قادم إليك عيوني ... بعيون ملأى بكل حنان
وبقلب فاض الهوى فيه حتى ... لم يعد قادراً على الكتمان
وسأمشي على عيون فداء ... لك يا صحرائي من الطغيان

وفي مراكش نظم ميمية بسيطية تغنى فيها بالتاريخ النضالي لمراكش، نسوق منها بعض أبيات للتدليل. يقول من (قلعة المجد)[25]:

تكفي منارتها للناس معلمةً ... يبلى الزمان ولا تبلى من القدم
تروي بطولاتنا من عهد وحدتنا ... بالدين والفكر والعادات والرحم
وانها الشاهد المعصوم من خطإ ... يعيا الخطيب، ولا تعيا من الكلم
مراكش الحصن منها الزحف منطلق ... إلى ربوع عليها حالك الظلم
والنخل يرقص فيها اليوم من طرب ... ويمتطي صهوة التاريخ في شمم
يعانق الشمس في عليائها جذلاً ... وقد اطل على الصحراء والقمم
كأنه كاتم الأسرار مؤتمن ... على سرايا الهدى والحق والقيم

ونختتم هذه الشبكة من النصوص المرينية التي قيلت قبل السادس من نونبر 1975 بمقطوعة يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، وتحضر فيها الأرض والمرأة، ويبرز فيها الشاعر المحب. يقول في (رسالة إلى زوجتي):

مالي سواك رفيق الدرب والعمر
أنت الشذى في حياتي طيب العطر
وأنت حاضرة في القلب والفكر
مهما تناءيت في الصحراء والقفر
غدا أعود إليك طافح البشر
وفي يدي باقة من واحة النصر
فترتمين بأشواق على صدري
وأمسح الدمع من خديك والثغر
وحولنا طفلتانا بهجة العمر
وكم سأحكي لكم عن قصة الفخر
من يوم ما زحفت مسيرة الدهر
إلى دخول العيون ساعة العصر
في موكب الفتح بالقرآن والذكر
ووقفتي في ركوع الحمد والشكر

ويمكن أن نختلس من البيت الأخير حدس الشاعر بصلاة الشكر التي أداها المتطوعون عقب اقتلاع الأسلاك الشائكة الراسمة للحدود الوهمية، والتي صورها في التقرير / الرحلة بقوله: (ونادى المنادي ان حيا على الصلاة: صلاة الشكر والحمد، وحط كلٌ ما بيمينه وتيمم صعيدا طاهراً، واستقبل القبلة وراء الامام لهذه الصلاة التي سمعنا عنها وقرأنا عنها في كتب التاريخ الإسلامي وأيام الغزوات النبوية، والفتوحات الإسلامية فيما بعد)[26]؛ ثم التي افصح عنها شعرا[27]:

إيهـا السـاجـدون لله شكرا — بخـشوع وعـزة الفـاتحـينا
إنـني بـينـكـم أبـلـل رمـلي — بدمـوع في خـشـيـة الضـارعـينا
نعم هذا السـجـود منا لرب — كـان عـونا لنا من المفـسـدينا
هذه «الطاح» قـد أطحنا بهـا — اليـوم حـدوداً كم رددت الزائرينا

إن قـراءة أدبيـات المسيـرة تبين عن التـفـاعل بين السـيـاسي والجمالي، وهو تفاعل تشكلت ملامحه في الشعر الوطني في عهد الحماية، وتبلورت في مواكبة القصيدة للاحداث الوطنية التي عاشها المغرب، ولقضايا الأمة العربية والإسلامية. وقد تناسلت قصائد المسيرة في مؤازرتها للجيش المغربي والمعارك التي خاضها في الصحراء، وأبدع الشعراء نصوصاً تشيد بالملاحم البطولية لجنودنا الأشاوس[28].

وغني عن البيان أن موضوعة الصحراء ما انفكت أطروحة مركزية في ديوان الشعر الوطني في مختلف المناسبات، بل ان السادس من تونبر أصبح شاهدا على نتاجات شعرية متوالية تستروح عبير الذكرى، وتفصل أمر الانجازات الانمائية في الصحراء.

من هنا نقدم شذرات من نموذجين لابي بكر. فأما أولهما فـ (شعب المسيرة في التاريخ والكتب)[29] جاء فيه:

شعب المسيرة في التاريخ والكتب — حـر أبي كـريم النفس والنسب
شعب الأصالة ذو مجد وذو شيم — وذو مـلاحم لا تنسى من الحـقب
شعب البطولات يبني المجد في قمم — تعلو على قمم الجوزاء والشهب
شعب المكارم والحصن الحصين لها — تروي حضارته عن شامخ الرتب

وأما ثانيهما فـ (شعب الخلود أنا)[30] نجتزئ منه مايلي:

شـــعب الخلود أناء نار على علم ... ولست أرضى بغير المجد والقمم
دمي فدى الأرض والاسلام أهرقه ... ولا ترى في الا عـالي الهـمـم
إذا أردت فـإن الله ينصـرني ... وان خطوت تراني راسخ القـدم
شعب المسيرة كم أدهشت من أمم ... بالعـزم والحـزم والاقـدام والحكم

نموذجا أبي بكر في الاحتفاء بذكرى المسيرة يعمقان – في نظرنا – تجربة شعرية مغايرة، ان قليلا أو كثيرا، مرَّ بها الشاعر مباشرة بعد اصدار ديوانه (قالت لي الحرية)، وتمثلت بجلاء في ديوانه المخطوط (من يقود الزحف؟). أصبحت (الانا) حاضرة، بامتياز، في القصيدة المرينية. هي (انا) جمعية، تقمصية، ومحتوية لـ(النحن). (أنا) مؤلفة بين شاعر الغزليات في (عد ياحبيبي)، وشاعر الوطنيات في (ظلال الدوحة)، وشاعر القوميات في (قالت لي الحرية)، ومركبة لشخصية استكملت نضجها الرؤياوي، وحككت ادواتها الشعرية وثقفتها، وكأنها انسلت من معطف (النموذج) لتؤسس كونها الشعري الخاص، وترفد القصيدة المغربية بما يمكن أن يكون اضافة.

إن هذه التجربة التي امتدت من 1972 إلى 1980 ناتجة عن عوامل امتزج فيها الذاتي بالموضوعي، واندمج فيها واقع المرض بمتوقع تجاوزه بخلق فضاء ثان يكفل امتلاك الحياة من جديد. ثم هي تجربة طغى فيها اعتماد الشعر أداة تعبير، وتراجعت سائر الأجناس الأخرى التي حقق فيها أبو بكر تراكما مهماً مازال أكثره مخطوطاً. وهي تجربة تجذرت فيها معرفة الشاعر بالعلوم الإسلامية، وخاصة علوم القرآن. من خلال دراساته العليا بدار الحديث، وتحضيره لرسالة دبلوم في موضوع (الامثال في القرآن الكريم) باشراف استاذنا د. عباس الجراري.

من هنا تميزت هذه التجربة عن سابقتيها، وخلقت لنفسها فضاء إبداعيا خاصاً اتسم بحضور ذات الشاعر في قصائده ذات الأغراض المتعددة، بل انها أحدثت اطاراً ايقاعيا مغايراً، وشهدت – عروضيا – هيمنة البحر البسيط على معظم النصوص بعد أن كانت السيادة لثلاثة بحور: الخفيف والطويل والرجز. ولسنا نعتقد أن الانتقال من توظيف بحر إلى آخر عفوي وساذج، ولا يقتضي تأملا واستبصاراً نقديين؛ وقد نخص هذه الانتقالة بدرس مستقل يعالج البواعث، وينظر في الدواعي والمقاصد.

واننا، اذ نقف عند هذه العوامل الخارج نصية للتعريف بها، لمدركون أن تناول عمل أدبي بالدراسة لا يتم بالجلوس بين يدي النص، بانغلاق تصوري وبُعدي فقط، ولا يكتمل بالتفكيك دون اعتبار لتركيب متأتٍ من التحليل والتأويل. ومن شروط التأويل التدبر في (أسباب النزول)، والتفكر في مشكلات ما قبل النص إذا أمكن. وقد يكون في المناهج الحديثة ما يسعف في حسن التلقي، ولكن الاسعاف يحصل عطاءً إذا توسل بما في خارجيات النص من إضاءة وإضافة.

نعود إلى المسيرة وأثرها في القصيدة المغربية. فإذا كانت الحدث الذي أخصب تجربة أبي بكر الشعرية فإنها أمرعت في روضة العرشيات، وأصبحت هذه المناسبة الجليلة مناسبة لاستعادة حدث المسيرة مستقلا، أو اعتباره أطروحة مركزية للقصيدة المادحة. ومن ذلك النماذج[31] الآتية:

– المهدي الدليرو : موشح المسيرة

– محمد البوعناني : الأرض في دمنا

- المدني الحمراوي : ذكرى المسيرة الخضراء
- أحمد بن أبي شعيب الدكالي : تحية المسيرة الخضراء
- أحمد عبد السلام البقالي : الصحراء تحكي شوقها
- محمد الكبير العلوي : هاهو اليوم ذا يتم اللقاء
- عثمان جوريو : عرشنا وصحراؤنا
- قدور الورطاسي : بين بطاح العيون
- المدني الحمراوي : الامامة والمذهب
- محمد الحلوي : مسيرة المجد

ومن الأكيد أن حدث المسيرة فجر طاقات جديدة في جسد القصيدة المغربية، لاسيما العمودية منها، وأنه عمل، بفاعلية على زحزحة ثوابت البناء المعماري، وعلى إلباسها تنوعاً موضوعاتيا خرج بها من المطروق المعهود من المعاني إلى مستطرف أكسبها دماً آخر، وخول لها أن تبقى معبرة عن ضمير الجماعة، وشاهدة على الواقع الذي تنتسب إليه[32].

*****

الهوامش :

(1) انظر أطروحتنا: شعرية الخطاب في القصيدة المغربية 55/1. مرقونة بكلية الآداب، الرباط.
(2) د. عباس الجراري: معالم مغربية ص 129.
(3) نفس المصدر، ص 130.
(4) انظر رسالة د. محمد الظريف: الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 589.
رسالة دبلوم تحت إشراف د. عباس الجراري. كلية الآداب الرباط.

(5) انظر: د. عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه.
د. ابراهيم السولامي: الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية.
د. أحمد الطريسي: الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب.
د. أحمد الطريسي: الابداع الشعري والتحولات الإجتماعية والفكرية بالمغرب.
د. عبد الجواد السقاط: شعراء المغرب الشباب في مواجهة الاحتلال الأجنبي. مجلة دعوة الحق. عدد 284، يوليوز 1991، ص 91-101.

(6) شاعر مغربي من مواليد سلا سنة 1939.
تنوع إنتاجه الأدبي بين الإبداع الشعري والكتابة المسرحية والقصصية والروائية. كتب عشر مسرحيات وأصدر مجموعة قصصية بعنوان «لست رجلا». له عدة دواوين شعرية:
قالت لي الحرية: طبع سنة 1971.
في ظلال الدوحة: مخطوط.
عد يا حبيبي: مخطوط.
إشراق الهدى: مخطوط.
من يقود الزحف: مخطوط.
توفي الشاعر أبو بكر المريني رحمه الله بتاريخ 31 أكتوبر 1980.

(7) انظر ديوانه (قالت لي الحرية) وملحمة (الزحف المقدس).
(8) ديوان علال الفاسي 69/4.
(9) نفس المصدر 204/4.
(10) نفسه 216/4، وانظر 235/4.
(11) نفسه 75/4.
(12) صدر في ربيع 1975.
(13) مجلة دعوة الحق، مارس 1975، ص 206.
(14) نفس العدد، ص 209.
(15) نفسه، ص 216.
(16) انظر القصيدة كاملة في ملحق نصوص/وثائق.
(17) انظر مجلة الفنون، عدد 9-10، يوليوز – غشت 1974. ص 74.
(18) مخطوطة بخزانة الباحث.
(19) ديوان (شموع) ص 74.
(20) ديوان (أيامنا الخضراء) ص 17-32.
(21) مجلة الفنون (عدد خاص بالمسيرة الخضراء) مارس 1975، ص 219.
(22) انظرها في ملحق نصوص/وثائق.
(23) مجلة الفنون (م. س) ص 186-199.

(24) انظرها في ملحق نصوص/وثائق.
(25) مثبتة بملحق نصوص/وثائق.
(26) الفنون (م. س) ص 194.
(27) نفس العدد ص 215.
(28) انظر د. عبد الحق المريني: السيف والقلم في ملحمة الصحراء المغربية. دعوة الحق عدد 263. مارس 1987، ص 48-55.
(29) مثبتة بملحق نصوص/وثائق.
(30) دعوة الحق. عدد 227، مارس 1983، ص 234.
(31) انظر مجلة دعوة الحق على التوالي: مارس 1977، ص 196 و226.
مارس 1978، ص 150.
مارس 1980، ص 122.
مارس 1982، ص 72.
مارس 1985، ص 96 ،ص 100، 105.
مارس 1987، ص 113.
مارس 1990، ص 23.
(32) انظر مقالتنا: لوحات من عرشيات المسيرة، دعوة الحق، عدد 227، مارس 1983، ص 155.

*****

من أعلام الثقافة في الصحراء المغربية :

الشيخ مربيه ربه العالم المجاهد

ماء العينين النعمة علي(*)
بومزكو أحمد(*)

تقديم:

يتناول هذا البحث موضوع الجهاد وهو ممارسة فكرية عملية كانت منبعا لمجموعة من الحركات التعبوية التي عرفها المغرب منذ القرن السادس عشر (ق 16)[1].

وقد طرح هذا المفهوم بحدة خلال القرن التاسع عشر (ق 19) وبداية القرن العشرين (ق 20) مع تزايد الضغوط الأجنبية الأوروبية.

وللإشارة فإن مصطلح الجهاد لم يعد يعني فقط محاربة ومقاومة الأجنبي المتكالب على البلاد، بل أصبح يحمل شحنة فكرية تنظيرية حماسية بالأساس.

ومن أجل الكشف عن حيثيات هذا المفهوم في مجال جغرافي محدد حصرنا موضوع هذا البحث في جهاد الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين (1879-1942)[2] الذي أولى اهتماما خاصا لهذا

(*) باحثان في أدب الصحراء المغربية.

الموضوع ضمن انتاجه الفكري والأدبي. ويبدو أن هذا الاهتمام أملته الصيغة الحادة التي كان يطرحها موضوع الجهاد في تلك الظرفية التي تمر بها المقاومة المسلحة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي وكذا ما وفره له جهاده من خبرة وحنكة وتجربة.

السياق التاريخي لجهاد الشيخ مربيه ربه (1912-1934).

أدى تزايد التهافت الاستعماري على منطقة سوس إلى اشتداد الحمية الجهادية لدى القبائل السوسية، وفي هذا الاطار تمثل حركة الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين (1876-1919) مناسبة للتعبئة العامة بمنطقة الجنوب المغربي[3]، ومن باب حرصه على إشراك جميع القبائل في تأسيس جيش للمجاهدين ليتجه به نحو مراكش، فقد أسهم في توثيق روابط التضامن بين هذه القبائل باسم الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي وفوق الاعتبارات القبلية الضيقة[4].

وبالرغم من التراجع الواضح الذي أبدته القبائل السوسية في مواجهة الضغط الفرنسي الغير مباشر، خاصة بعد نكسة «سيدي بوعثمان» 1912[5] التي كانت ضربة قاسية لقدرات القبائل الحربية، فإنها ظلت على تأييدها للشيخ أحمد الهيبة ولازالت تعيش على صدى تحركات انصاره[6].

وفي سياق هذه الحمية الجهادية، يمثل الشيخ مربيه ربه أحد الوجوه البارزة في حركة أخيه الشيخ أحمد الهيبة، فقد كان خليفته ونائبه المفوض له في أمره، وعضده الأيمن المرافق له في تنقلاته وتحركاته، والمحرك الرئيسي لمختلف عملياته ومعاركه العسكرية الحربية، لما كان يتصف به من شجاعة وجرأة وإقدام.

وقد استطاع في خضم هذه الظروف أن يجمع بعض القبائل التي لازالت تساند الشيخ أحمد الهيبة «أيت باعمران إيداو بعقيل ماسة» ،هكذا تمت محاصرة البلدة لمدة شهرين(7) كما قطعت المؤونة عن قائدها محمد بن دحان من طرف القائدين يرعى السباعي والناجم الاخصاصي(8) الا ان مسلسل هذا الحصار إنتهى بتراجع أنصاره في وقعة «تيغانيمين».

بعد وفاة الشيخ أحمد الهيبة سنة 1919 م، قام مقامه الشيخ مربيه ربه في تعبئة القبائل بعد إجماع علماء وقواد سوس على تعيينه رئيسا للمجاهدين(9) ونظرا لشدة الضغط الفرنسي على المقاومين من خلال حملة الجنرال «دولاموط» على «ويجان وإسك» سنة 1917 م(10) ثم محاولات الطيب الكنتافي إختراق مسالك الأطلس الصغير إنطلاقا من «أيت وادريم»(11) فقد أسرعت القبائل السهلية إلى إستعطاف الأجانب والاستسلام لحامياتها العسكرية بينما لازالت المناطق الجبلية تتحكم فيها القبائل الموالية للشيخ مربيه ربه ولم تكن سلطات الاحتلال تبحث عن خضوع إسمي لهذه المناطق وإنما كانت ترغب في الاستحواذ الفعلي عليها، وهذا ما دفعها إلى استعمال مختلف الوسائل لتحقيق مسعاها. بما في ذلك تكثيف العمليات الحربية وإنشاء مراكز عسكرية للمراقبة وتجميع المعلومات «بونعمان، ميرغت، ويجان، أقا، إيغرم»(12) وأمام هذه الأحداث ظل الشيخ مربيه ربه يقاوم ويجاهد ويشرف بنفسه على العمليات العسكرية، وكثف من تنقلاته بين قبائل الأطلس الصغير التي دعمتها قبائل أيت خباش وآيت حمر بالرجال والعتاد، إلا أن رد فعل القبائل المجاهدة عامة لم يكن موحدا وكان يفتقد إلى التنسيق والتنظيم(13).

وبعد اشتداد الحملات العسكرية الفرنسية التي قادها الجنرال «كاترو Katroux حاكم المنطقة الجنوبية[14] استسلمت جميع القبائل السوسية سنة 1934م واضطر الشيخ مربيه ربه إلى مغادرة «كرودس»[15] متجها نحو طرفاية بالصحراء المغربية ليستقر بها.

وهذا الاستقرار لا يعني نهاية حركته الجهادية، بل واصل جهاده ومقاومته ولكن في شكل جديد يتماشى مع التغيرات التي شهدتها البلاد بعد نهاية العمل المسلح وظهور العمل السياسي. وقد كان على إتصال دائم بالخليفة السلطاني مولاي الحسن بلمهدي الذي التقى به في مدينة تطوان خلال زيارته لها وهو في طريقه لأداء فريضة الحج، وبمختلف زعماء الحركة الوطنية في الشمال «عبد الخالق الطريس، عبد السلام بنونة، علال الفاسي، المكي الناصري، معتينو السلاوي أحمد، عبد السلام بن المقدم الحاج التمسماني».

توفي رحمه الله سنة «1361 هـ/1942 م» ودفن بقرية «تافودارت» التي تقع شرق مدينة العيون.

إنتاجه الفكري والأدبي :

كان الشيخ مربيه ربه جهبذة من جهابذة الفكر والعلم والأدب، فهو شاعر وكاتب وناثر وعالم ومصنف في علوم شتى. خلف أعمالا أدبية تصل إلى مائة وعشرين كتابا في الفقه والتصوف والطب والرحلات والنحو والبلاغة والتوحيد والاسرار والتاريخ، ضاع بعضها ولايزال البعض منها مخطوطا في بعض الخزانات[16] نذكر منها:

في التصوف :

- إغاثة اللهفان
- تيجان المحامد وزينة كل حامد
- جامع الحمد
- حمد الايام المسبعة
- خواص الاوفاق لنيل مقام الاخلاق
- خواص أسماء الله الحسنى
- دعوة الفاتحة في الحمد بالفاتحة
- دعوة الاجابة من معطي الاجابة
- ربيع الاسرار في سر الاسرار
- عدة الفثين في أسرار وفق المثين
- فيض المجيد ودوام المزيد
- قرة العينين في كرامات شيخنا ماء العينين
- كتاب الحمد
- المتربع في أسرار المربع
- الادعية القدسية بأسماء الله الادريسية
- الفيضان فيما اختص به رمضان
- القربان فيما اختص به شعبان
- الفرائض المجتمعة في الاوراد بالجمعة
- مفيض الاعانة
- منيل فضل الله ونعمته في الحمد لكل اسم على حدته
- محامد الوارد الصادر
- مغناطيس النعم
- محمدة اللسان والفكر فيما يتعلق بالحمد والشكر

- واهب الزيادة الاسنى في أسماء الله الحسنى
- حمد ليس فيه حرف إلا من حروف الحمد
- واهب المعالي

في الفقه :

- أخلاق النساء
- إظهار المكنون في كشف الظنون
- الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله
- تسلية المؤمنين في عدم قبول المنافقين والكافرين
- خطبة في الحث على الجهاد
- دعامة المتيمم اكل متيمم
- دافعة الباطل الذابة عن تحريف أوصاف الذابة
- الرضاب في بعض ما يتعلق بالخضاب
- صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار
- صادق الفجر في الكلام على ركعتي الفجر
- فصوص الحكم
- فكاهة الصباح والمساء في نعوت اوصاف النساء
- فريضة الجهاد في هذا الزمن على العباد
- لبانة المجاهدين وبغية الطالبين
- الفرائض القرآنية في التركة الإسلامية
- منطقة العزائم
- محمدى السكينة في الإعتدال والطمأنينة
- موافق دي الحجة فيما يفعل في الحجة
- نشر فلاح الدارين في الكلام على بر الوالدين.

في التاريخ:

- جولات في سوس اعادنا الله من كل بؤس
- الترجمان العام
- العسل المصفى في عدد من استشهد زمن المصطفى
- وجه الحق الصحيح في أن اسماعيل هو الذبيح.

في الطب :

- ترياق الأبدان في تدبير الاسنان
- كتاب السل
- نفع الوبري والمدري في الكلام على الجدري.

في الفلك :

- الكلام على إنقضاض النجوم.

في الرحلات :

- رحلة الشيخ ماء العينين
- رحلة الشيخ مربيه ربه.

في الأحزاب والشرح والدعوات :

- حزب السير والسلامة في الدين والدنيا والقيامة
- حزب يتوسل فيه بما في القرآن من لفظة رب
- حزب سعادة الدارين والكفاية من الهمين
- حزب العافية والكمال محمود الحال والمال
- حزب إلهام المؤمن من فضل السلام المؤمن
- حزب الغنى وكهف العناية الاسنى في أسماء الله الحسنى
- حزب النصر والحمد والشكر
- حزب السعادتين
- حزب ليس فيه حرف إلا من حروف «وإن يردك بخير فلا راد لفضله»

- حزب ليس فيه حرف ألا من حروف الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده
- حزب اعملوا آل داود شكرا
- الدعوات النثرية والأحزاب الشكرية
- دعوة ولئن شكرتم لازيدنكم
- شرح آية وأما بنعمة ربك فحدث.

وله ديوان شعري في مختلف الأغراض الشعرية من مدح وغزل ووصف ورثاء وتضرعات إلهية ومحامد ربانية، إلى غير ذلك وقد جمعه وبوبه الشاعر والأديب ماء العينين بن العتيق في مؤلف سماه «بحور البدائع المحتوية على درر الأشعار المصطفوية» ويتضمن مقدمة وثمانية أبواب :

- المقدمة : في مدح الشعر وما قيل فيه.
- الباب الأول : في المحامد والثناء على الله
- الباب الثاني : في أمداحه النبوية
- الباب الثالث : في مدحه لوالده الشيخ ماء العينين
- الباب الرابع : في محاوراته لإخوته
- الباب الخامس : في مخاطبته لمعاصريه
- الباب السادس : في الغزل والنسيب
- الباب السابع : في أقواله المختلفة في القواعد والحكم وغيرها
- الباب الثامن : في التضرع إلى الله.
- الخاتمة : في قصائد الذين مدحوه من الشعراء.

ويلاحظ أن الاهتمام الذي أبداه هذا الشيخ لعملية الجهاد كمعطى فاعل في تلك الظرفية، جعلت أفكاره في هذا السياق متميزة وتعتبر مدخلا لفهم الإطار النظري العام الذي يؤطر حركته الجهادية، وللإقتراب أكثر من هذا المعطى سنقدم صورة مختصرة عن بعض كتاباته حول الجهاد، وذلك بالشكل الذي يسمح لنا الإلمام بأبعاد الكتابة في موضوع الجهاد كنوع من المجاهدة والمقاومة بالفكر والقلم وهذه الكتب هي:

1 - «لبانة المجاهدين وبغية الطاليين»

2 - «الترغيب في بعض ماأعده الله للمجاهدين في سبيل الله»

3 - «صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار».

وصف الكتب :

1- لبانة المجاهدين وبغية الطالبين»

- يقع الكتاب في ثلاثين ورقة من الحجم المتوسط

- خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه.

- تاريخ الكتابة ضحوة الثلاثاء الحادي عشر من رجب الفرد 'م واحد وأربعين بعد ثلاثمائة وألف (1341 هـ/1922 م).

ويشتمل على مقدمة وأربعة فصول:

* **المقدمة** : يبين فيها أسباب تاليف الكتاب وتسميته فيقول:

«يقول عبيد ربه محمد مصطفى مربيه ربه أناله الله بشكره ما يحب بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين: الحمد لله الذي فضل الجهاد وجعله حرفة أفضل العباد

فدل على أنه أفضل الأعمال حيث اختاره الله لخيرته من الرجال عليه الصلاة والسلام وعلى آله وأصحابه الكرام.

أما بعد: فمن أجل ما يتنافس فيه المتنافسون الجهاد في سبيل الله ولمثل هذا فليعمل العاملون ولقد عن لي غفر الله لي قولي وعملي أن أجمع فيه نصوصا عموما وخصوصا واقتصرت فيها على بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وحذفت إسنادها ترغيبا لمن أرادها كي تسهل مناولتها وتتيسر مداولتها وسميتها «لبانة المجاهدين وبغية الطالبين» تذكرة لي وترغيبا للمومنين «وذكر فإن الذكرى تنفع المومنين»[18] جعلها الله بفضله العميم خالصة لوجه الكريم»[19].

* **الفصل الأول**: يتحدث فيه عن الجهاد الذي يعتبره «في هذا الزمن فرض عين وحق على كل مسلم أن يجعله نصب العين ولو كانت عينيته لاتحتاج إلى تبيين لفجا العدو وجميع بلاد المسلمين»[20] حتى أنه «يتعين على كل واحد وإن لم يكن من أهل الجهاد»[21] وعلى الإمام أن يقوم بتعيين «طائفة تخرج للقتال ولا يسعها أن تخالف سواء كانت ممن تلي العدو أم كانت ممن تخاطب بفرض الجهاد»[22].

* **الفصل الثاني**: يتحدث فيه عن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام التي تعتبر هي بدورها «فريضة إلى يوم القيامة»[23] ويستدل على ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية كقوله تعالى «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا»[24]

ويشير إلى أن ظالمي أنفسهم في هذه الآية: «هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها»[25] وكقول الرسول (ص) لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[26]، ويبين في ختام هذا الفصل بأن «الخوف على المال والأهل لا يبيح ترك الهجرة ومن رضي بالمقام مع الكافرين فهو مارق من الدين منخرط في سلك الملحدين ومن هاجر عنهم وحصل له ندم لضيق معاش أوعدم انتعاش فلا رخصة له في الرجوع ولا عذر(...) فلم يبق إلا اغتنام جهادهم والهجرة من بلادهم نصرة لدين الله ورسوله وامتثالا لأمره»[27].

▪ **الفصل الثالث** : يستعرض فيه بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على الجهاد وترغب فيه.

* **الفصل الرابع** : خصصه لشرح ثلاثة آيات قرآنية هي:

– ***الأولى*** : قوله تعالى : «ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون»[28] فالله تبارك وتعالى وكما يقول ابن عباس يريد في هذه الآية «مشركا مثلهم لأنه رضي بشركهم والرضى بالكفر كفر كما أن الرضى بالفسق فسق»[29].

– ***الثانية*** : قوله تعالى: «قل إن كان أباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهد القوم الفاسقين»[30]. فالله تبارك وتعالى يبين في هذه الآية «أنه يجب تحمل جميع هذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليما»[31]. أما إذا «كانت رعاية هذه

المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله ورسوله ومن المجاهدة في سبيل الله فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بأمره أي بعقوبة عاجلة أو آجلة والمقصود منه الوعيد »[32] ثم قال: «والله لا يهدي القوم الفاسقين أي الخارجين عن طاعته إلى معصيته وهذا أيضا تهديد »[33] وعموما فالآية «تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا »[34] لذلك يجب «الإعراض عن مخالطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر وعن الأموال والتجارات والمساكن رعاية لمصالح الدين ولما علم الله تعالى أن هذا يشق جدا على النفوس والقلوب ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا أتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه »[35].

– *الثالثة* : قوله تعالى: «لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون »[36] فهذه الآية تبين «أن المؤمنين المتصلبين في الدين لا يوالون هؤلاء الأقرباء بعد أن كانوا محادين لله ورسوله فكيف بغيرهم فإن قضية الإيمان أن يهجر الجميع بالكلية بل أن يقتلهم ويقصدهم بالسوء »[37] ويستشهد على ذلك بأسماء بعض الصحابة رضوان الله عليهم الذين قتلوا آباءهم أو أقرباءهم نصرة لدين

الله. فقد «روي أن أبا عبيدة قتل أباه الجراح يوم بدر وأن أبا قحافة قبل أن يسلم سب النبي عليه السلام فصكه أبو بكر رضي الله عنه صكة سقط منها وأنه أيضا رضي الله عنه دعا ابنه عبد الرحمان إلى البراز يوم بدر فأمره عليه السلام أن يقعد قال : يا رسول الله: دعني أكن في الرعلة الأولى وهي القطعة من الفرسان فقال عليه السلام: متعنا بنفسك يا أبا بكر. وأن مصعبا رضي الله عنه قتل أخاه عبيد بن عمير بأحد وأن عمر رضي الله قتل خاله العاصي بن هشام بن المغيرة يوم بدر وأن عليا وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة بن أبي ربيعة والوليد بن عتبة وكانوا من عشيرتهم وقرابتهم»[38].

2 – «الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله»

– يقع الكتاب في سبعين ورقة من الحجم المتوسط

– خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه

– تاريخ الكتابة ضحوة الأربعاء المكمل عشرين من ذي الحجة عام اثنين وأربعين بعد ثلاثمائة وألف. (1342 هـ/1923 م).

يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول:

* **المقدمة** : يبين فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول: «يقول عبيد ربه محمد مصطفى بن شيخه الشيخ ماء العينين بن شيخه محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين آمين: الحمد لله القائل: «وفضل الله المجاهدين على القاعدين»[39] والصلاة والسلام على من قال: «السيوف أردية المجاهدين»[40] وقال: «نضر

الله امرء اسمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع »[41] نسأل الله تعالى أن يكسونا من تلك النضارة أحسنها وأبهجها وأسرها في الأفراد والمجامع أما بعد: فهذه أحاديث جمعتها تسر الناظر والسامع رتبتها على حروف المعجم (...) لخصتها بجد واجتهاد ترغيبا في الهجرة والجهاد ولأجل ذلك وأخذ تلك المسالك سميتها «الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله » جعلنا الله من أعلاهم ومن بالله وبما عنده أولاهم »[42].

* **الفصل الأول** : خصصه لشرح الآية القرآنية الكريمة التالية وهي: « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون »[43] التي تدل على « أن الإستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة الا أنه من فروض الكفايات (...) أما في زماننا هذا الذي هو عام اثنين وأربعين من القرن الرابع عشر فلاشك أنه فرض عين بسبب إحتلال النصارى الصليبيين قاتلهم الله بلاد المسلمين »[44] فذكر أولا أسباب نزولها وتتجلى في « أن أصحاب النبي (ص) في قصة بدر لما قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة »[45] ثم بدأ في شرح مقاطعها، فبين أن المراد بالقوة هو « ما يكون سببا لحصولها وذكروا فيه وجوها:

الأول : المراد بالقوة السلاح

الثاني : روي أنه (ص) قرأ هذه الآية على المنبر وقال الا ان القوة الرمي قالها ثلاثا

الثالث : قال بعضهم القوة هي الحصون

الرابع : قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة »[46].

ثم ينتقل للحديث عن العدة والعتاد من خلال قوله تعالى «وأعدوا لهم» «أي لقتال الكفار وهيئوا لحربهم ما استطعتموه من قوة (...) ومن كل ما يتقوى به في الحرب كائنا ما كان من خيل وسلاح وقسي وغيرها »[47]. وعن فضيلة الرمي ويعتبره من أحسن «ما يتقوى به في الحرب »[48] ويستدل على ذلك بأحاديث نبوية كقول الرسول (ص) «من شاب شيبة في الاسلام كانت له نورا يوم القيامة ومن رمى بسهم في سبيل الله فبلغ العدو أو لم يبلغ كان له كعتق رقبة مومنة، كانت له فداء من النار عضوا بعضو »[49]. بعد ذلك يتحدث عن الخيل من خلال قوله تعالى رباط الخيل ويعتبرها من «أقوى آلات الجهاد »[50] ويبين الإختلافات الموجودة حول هذا المقطع فالبعض يرى أن «رباط الخيل الإناث وفسر بالإناث لأنها أولى ما يربط »[51] والبعض الآخر يرى أن هذا اللفظ يدل «على الفحول لان المقصود من رباط الخيل المحاربة عليها ولاشك أن الفحول أقوى على الكر والفر والعدو »[52] ولكي ينتفي هذا التعارض يشير إلى أنه يجب «حمل اللفظ على مفهومه الأصلي وهو كونه خيلا مربوطا سواء كان من الفحول أو الإناث »[53].

ويقول أن الله تبارك وتعالى «لما أمر بإعداد هذه الأشياء قال جل من قائل: «ترهبون به عدو الله وعدوكم» وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد مستعدين له مستكملين

لجميع الأسلحة والآلات خافوهم والمراد أن تكثر آلات الجهاد وأدواتها»[55] «كما يرهب الأعداء الذين نعلم[56] كذلك يرهب الأعداء الذين لا نعلم كاليهود والمنافقين»[57] ثم قال تعالى: «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله» وهو عام في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات «يوف إليكم» أي لا يضيع في الآخرة أجره ويجعل الله عوضه في الدنيا» وأنتم لا تظلمون «أي لا تنقصون من الثواب»[58].

الفصل الثاني : خصصه لذكر الأحاديث الشريفة المتعلقة بالجهاد ورتبها كما أشار في المقدمة على حروف المعجم وعددها ثلاثمائة حديث(300).

الفصل الثالث : يتحدث فيه عن فضيلة الجهاد وأهميته فيقول: «واعلم أن الجهاد من أفاضل المكاسب وأماثل الحرف فلا ينبغي للعاقل أن يتركه أو يترك التحدث به فإن من مات ولم يغزو ولم يحدث به نفسه فقد مات ميتة جاهلية، ومعنى التحدث طلب الغزو وإخطاره بالبال»[59] ويختم هذا الفصل بالآية القرآنية الكريمة وهي قوله تعالى: «خذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا»[60] التي تبين أن هذا «وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم ليقوي قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله»[61].

3 – «صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الاقامة مع الكفار»

– يقع الكتاب في ثلاثين ورقة من الحجم الكبير.

– خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه

– تاريخ الكتابة ضحوة الأربعاء العاشر من ربيع النبوي عام ستة وأربعين بعد ثلاثمائة وألف(1346 هـ/1927 م).

– يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول:

* **المقدمة** : يشرح فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول: «يقول عبيد ربه محمد مصطفى مربيه ربه أناله الله بشكره ما يجب بن شيخه الشيخ ماء العينين غفر الله لهما وللمسلمين آمين الحمد لله القائل: «الحمد لله رب العالمين»[62] والقائل جل من قائل «إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين»[63] والصلاة والسلام على النبي القدسي القائل حاكيا عن ربه في الحديث القدسي: «لا تدخلوا مداخل أعدائي ولا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تركبوا مراكب أعدائي ولا تطعموا مطاعم أعدائي فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي»[64] أما بعد: فقد سألني من سأله بعض المسافرين أن يظهر له ما حرمت به الإقامة مع الكافرين فأجبته بالقرآن والحديث والدليل ولو كان النهار لا يحتاج إلى دليل وسميته «صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار» «والله أسأله الكريم أن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يجعلنا من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون المحفوظين الوارثين لأنبيائه المعصومين راجين منه أن يجعل فينا منافع المسلمين وأن يحفظنا من بأس المسلمين والكافرين»[65].

الفصل الأول : يدعو فيه إلى التحفظ من الكافرين وأعداء المسلمين وعدم مخالطتهم أو الإقامة معهم «أبد الآبدين وقد حذر

الله من ذلك في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم»[66]. ويستدل ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك كقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهد القوم الظالمين»[67] ويشير إلى أن هذه الآية «ما أبقت متعلقا إلى التطرق لهذا التحريم»[68] فهي نص صريح في تحريم موالاة الكافرين. وقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مومنين»[69]. وقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذو بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون»[70]. فتكرار هذه الآيات في هذا المعنى وجريها على نسق واحد مؤكد للتحريم ورافع للاحتمال المتطرق إليه فإن المعنى إذا نص عليه وأكد بالتكرار فقد ارتفع الاحتمال لاشك»[71]. وكقول الرسول (ص) «أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين قالوا: يا رسول الله لم قال لا تتراءى ناراهما»[73] وقوله (ص): «لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم»[73] وقوله (ص): «لا ترافقهوهم في الأسفار ولا تساكنوهم في الامصار واضربوا بينكم وبينهم بسور البعاد»[74]. كما يستدل بأقوال بعض الأئمة والعلماء في تحريم الإقامة مع الكفار والمشركين وجميع أعداء المسلمين.

ويختم هذا الفصل مشيرا إلى أن هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والإجماعات القطعية صريحة وواضحة في تحريم الموالاة الكفرانية ولا تجد في تحريمها «مخالفا من أهل القبلة

المتمسكين بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد. فهو تحريم مقطوع به من الدين كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق وأخواته من الكليات الخمس التي أطبق أرباب الملل والأديان على تحريمها ومن خالف الآن في ذلك أورام الخلاف من المقيمين معهم الراكنين إليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين مفارق لجماعة المسلمين ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ومسبوق بالاجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله »[75].

الفصل الثاني : يذكر فيه الأسباب التي تصير بها دار الاسلام دار حرب ويورد اختلاف العلماء والأئمة في ذلك، فما لك مثلا يرى أنه «بظهور أحكام الكفر في بلدة تصير دار حرب»[76] وهو مذهب الشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة «لو ارتد أهل بلد لم تصر دارهم دار حرب حتى تجمع فيها ثلاثة أشياء: ظهور احكام الكفر وان لا يبقى فيها مسلم ولا ذمي بالامان الأصلي وان تكون متاخمة لدار الحرب واتفقوا على أنه تغنم أموالهم»[77].

الفصل الثالث : يتحدث فيه عن الذين يخالطون الأعداء ويتعاملون معهم ويعيشون تحت ولايتهم ويحذر منهم، ويستدل على ذلك بالآية القرآنية التالية وهي قوله تعالى: «لا يتخذ المومنون الكافرين أولياء من دون المومنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير»[78] فهذه الآية تشير إلى أن المومنين نهوا عن موالاة الكافرين «لقرابة أو صداقة وعن الاستعانة بهم لأن المومنين هم الاحقاء بالموالاة وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة، ومن يتخذ الكافرين أولياء فليس من ولاية الله في شيء يصح أن

يسمي ولاية فتتأكد مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والتحرز عن مخالطتهم ومعاشرتهم والمومن اولى بموالاة المومن فإذا والى الكافر دل على تداعي ضعف إيمانه فزجر الشارع عن مخالطته بهذا التغليظ العظيم حسما لمادة الفساد»[79]. ويختم هذا الفصل بنص اقتبسه من كتاب «بغية المساعد في احكام المجاهد» يتعلق بالجهاد وفيه ما يكفي ويشفي في بعض نصائحه زاجرا عن الإصغاء لهم أو الاستماع لآرائهم وأفكارهم. يقول : «فاحذروا ايها المسلمون تغرير اولئك المتسمين بسمة الاسلام وليسوا منه في شيء احذروا أن تسمعوا لهدرهم وخرفهم احذروا ما ينفثونه من سمومهم احذروا دعوتهم إلى الاستسلام للعدو والخضوع له فإنهم منافقون يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون خضعوا للعدو وباعوا دينهم بدنياهم وصاروا من أعوانهم يقودونهم ليمكنوهم من أراضي إخوانهم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين يسعون لهم في تمهيد البلاد وتملك رقاب العباد ليتركوا قتالهم وتكون كلمتهم العليا ومعاذ الله. إن القوم الذين يعاضدون الكفار على المومنين ويقاتلونهم لاشك في كفرهم وارتدادهم والعياذ بالله تعالى من قوم يعملون على إذلال الإسلام وأهله وإعزاز الكفر وأهله وأي كفر أكبر من هذا وإن لم يكن هؤلاء مرتدين فمن هم المرتدون ؟ »[80].

قراءة في أفكار الشيخ مربيه ربه الجهادية

إن تأليفه في هذا الموضوع يشكل محاولة لإضفاء الطابع الشرعي على مساره الجهادي. ومما يزيد من قيمة ما كتبه هو أنه طرح الجهاد في ظرفية دقيقة عرفت فيها المنطقة تفرقا قبليا

وضغطا استعماريا كبيرا كأنه يحاول البحث عن سبب الداء الكامن في التراجع الواضح للقدرات الحربية للقبائل، فوجده في عدم الالتزام بقاعدة الجهاد وركونها إلى التفرقة والاختلاف.

يعتمد في مفهومه للجهاد على طريقة الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الفقهاء والأئمة والعلماء حتى يعطي لكتاباته صبغة شرعية دينية. وقد تناول ذلك بمضامين جديدة لكي يستوعب الظرفية التاريخية التي تبلور فيها.

الجهاد في نظره «حرفة أفضل العباد»[81]. و«أفضل الأعمال»[82]. التي دعا إليها الاسلام وينطبق على كل الأعمال التي تتم في سبيل الله بما فيها بذل الجهد في الحرب أو السلم.

ومن خلال فحصنا لما كتبه هذا الشيخ عن الجهاد يتبين أنه يراد به ما يلي:

- نوع من الوازع الديني الضروري للدفاع عن دار الاسلام.
- نوع من الحرب المقدسة ضد أهل الشرك والعدو المتكالب على البلاد.
- محاربة ومقاطعة العدو والتحرز منه.
- مرادف للقتال.
- مقياس لصدق إيمان المسلم.

ما يستوقفنا في هذا التعريف هو إلحاحه وتأكيده على ضرورة التمسك بالجهاد كواجب على كل مسلم خاصة في تلك الظرفية الدقيقة التي كانت تمر بها المقاومة المسلحة الوطنية. يقول: «إن الجهاد في هذا الزمن فرض عين وحق على كل مسلم أن يجعله نصب

العين ولو كانت عينيته لا تحتاج إلى تبيين »[83] وليس الجهاد عنده شعارا يلوح به وإنما هو ممارسةعملية فعلية حققها وجسدها على أرض الواقع من خلال جهاده ومقاومته للمستعمر الفرنسي وهذا ما جعله ينبه إلى حالات التقاعس والتقاضي عنه مبينا ما يترتب عن ذلك من مخاطر على جماعة المسلمين.

بالاضافة إلى هذا يدعو إلى محاربة العناصر التي تصول وتجول في بلاد الكفر خاصة بعد تزايد ظاهرة الاختلاط بين المسلمين وغير المسلمين، وهو هنا يعلن بوضوح مخالفته ومعارضته لجميع أشكال التعاون مع العدو الأجنبي ومخالطته أو التعامل معه. وفي هذا الصدد يشيد بالمجاهدين من المسلمين الذين أبانوا عن وعي جهادي من خلال رفضهم مسالمة العدو واستماتتهم في الدفاع عن بلادهم[84].

اجمالا فالجهاد عند الشيخ ليس تكرارا لما بلوره فقهاء وعلماء الاسلام السابقين ولكنه صدى للوضعية التي انتهى إليها المسلمون في بداية هذا القرن حيث ازداد التمسك بتلك الروح الجهادية بازدياد الضغط الأجنبي. وقد حاول استجلاء طبيعة العلاقة التي تربط الجهاد كمعطى ضروري لتعميق تقاليد وطرق المقاومة وبين الغلبة والقوة التي يكتسبها المسلمون من ذلك[85].

أركان ومقومات الجهاد

إن الجهاد من حيث كونه حرب مقدسة لابد له من ركنين أساسيين لتهييء المجاهدين حتى يكونوا في مستوى مجاهدة ومقاومة العدو الكافر وهما :

1 - *القوة المعنوية* : وهي الايمان الكامل بالله والإستعداد النفسي الروحي.

2- *القوة المادية :* فالجهاد إلى جانب الوازع الديني الذي يفرضه ويحث عليه فهو يحتاج إلى مجهود وتنظيم محكم كالتأهب والمرابطة والمجاهدة والعتاد والرجال والإنفاق وكل ما يقوى به في الحرب.

بالإضافة إلى هذين الركنين الأساسيين هناك مقومات أخرى لابد أن تتوفر في المجاهدين منها: وحدة الصف، عدم التنازع، الصبر على الشدة، الحذر والحيطة، الثبات عند لقاء العدو.

الغايات والأهداف من الجهاد

يقرر الشيخ مربيه ربه أن الهدف الأسمى من الجهاد هو حماية جماعة المسلمين من براثن الكفر والمحافظة على وجودها وتقوية نفوذها.

وتتحدد الغايات الأسمى من الجهاد عنده فيما يلي:

- ردع وإرهاب العدو
- إعلاء كلمة الله
- إعادة الثقة إلى النفوس
- الغلبة والقوة للمسلمين
- أداة للتكتل والوحدة وتجميع الجهود وبدونه تسقط الأمة في الإختلاف والتمزق.
- عدم موالاة العدو الكافر المستعمر بأي شكل من الأشكال وحمل المتعاونين معه على التوبة والرجوع.
- حماية جماعة المسلمين من تبعات السقوط تحت أحكام العدو لأن في ذلك « إذلال للإسلام وأهله وإعزاز للكفر وأهله »(86).

لم تكن هذه الكتابات إلا نموذجا من تراث زاخر خصصه الشيخ مربيه ربه لموضوع الجهاد سواء على المستوى النثري أوالشعري.

ومما يزيد هذا الرصيد تنوعا وغنى وأصالة هو مشاركته الفعالة في العمليات العسكرية التي استهدفت الطلائع الأولى للحاميات الفرنسية بمنطقة سوس وإصراره على إفشال مخططات المحتل رغم المساومات والضغوط المتي تعرض لها. كما تبرز هذه الكتابات مدى الوعي الذي وصلته الحركات الجهادية في مواجهة التدخل الأجنبي من خلال فهم واستيعاب روادها للأخطار التي كانت تحدق بالبلاد.

وإذا كان لابد من إطار لتصنيف مكانة الشيخ مربيه ربه فهو يمثل نموذج العالم المجاهد لأنه جمع بين التنظير الفكري والممارسة العملية. من هنا أصبح من الضروري الإلتفات إليه كشخصية وطنية من خلال التعريف به بالرجوع إلى آثاره الضخمة المتنوعة أو اعتمادا على المصادر المعاصرة له وكذا تقارير الأجانب عنه، حتى ندرك حقيقة وأبعاد وشمولية حركته الجهادية.

*****

الهوامش :

(1) Abdallah Laroui, Les origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1912), Paris, 1980. p. 306."

(2) ماء العينين النعمة علي: «الشيخ مربيه ربه الوطني الوحدوي زعيم الجهاد والمقاومة في الجنوب المغربي» صحيفة أنوال – عدد 1332 – 11 ماي 1994.

(3) محمد الاكراري: «روضة الافنان في وفيات الاعيان «تحقيق حمدي أنوش – بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب – الرباط 1989، ص 39-40.

(4) محمد المختار السوسي: المعسول» ج 4، ص 126-127.

(5) الاكراري: المصدر السابق، ص 43.

(6) "Elhiba: Fils de Malainin, "Renseignements Coloniaux, N° 3, Mars 1916,p. 66

(7) الاكراري: المصدر السابق، ص 52.
(8) المختار السوسي: المعسول، ج 8، ص 124.
(9) المرجع نفسه: ج 4، ص 148. نتوفر على نص الاتفاق لنسخة الخاصة.
(10) Dugard (H): La colonne du Sous 1917. Paris 1918.
(11) Justinard (L): "Notes Sur L'histoire et Litterature berbère" in Hesp 1925. p. 350-354.
(12) Voinot (L): Sur les traces glorieuses des Pacificateurs du Maroc. Paris, 1939, p. 478.
(13) Ibid. p. 476.
(14) Ibid. p. 478.
(15) «المعسول» ج 4، ص 267-268.
(16) الخزانة العامة، الرباط.
الخزانة الحسنية الرباط.
الخزانات الخاصة.
(17) توجد معظم هذه المخطوطات في خزانة ابنه الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه – أكادير.
(18) سورة الذاريات، الآية 55.
(19) «لبانة المجاهدين وبغية الطالبين» الشيخ مربيه ربه مخطوط – خزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه ص 1-2.
(20) المرجع نفسه، ص 2.
(21) المرجع نفسه، ص 2.
(22) المرجع نفسه، ص 2.
(23) المرجع نفسه، ص 3.
(24) سورة النساء، الآية 97.
(25) لبانة المجاهدين، ص 3.
(26) رواه أبو داود والدارمي واحمد بن حنبل.
(27) لبانةالمجاهدين ص 3-4.
(28) سورة التوبة، الآية 23.
(29) لبانة المجاهدين، ص 15.
(30) سورة التوبة، الآية 24.
(31) لبانة المجاهدين، ص 15.
(32) المرجع نفسه، ص 15-16.
(33) المرجع نفسه، ص 16.
(34) المرجع نفسه، ص 16.

(35) المرجع نفسه، ص 16.
(36) سورة المجادلة، الآية 22.
(37) لبانة المجاهدين، ص 17.
(38) لبانة المجاهدين، ص 17.
(39) سورة النساء، الآية 95.
(40) رواه الترمذي «باب السير».
(41) رواه ابن ماجة
(42) «الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله. الشيخ مربيه ربه – مخطوط – خزانة الأستاذ علي مربيه ربه ماء العينين، ص 1-2.
(43) سورة الأنفال، الآية 60.
(44) الترغيب، ص 3.
(45) الترغيب، ص 3.
(46) الترغيب، ص 3.
(47) الترغيب، ص 4.
(48) الترغيب، ص 4.
(49) الترمذي باب السير.
(50) الترغيب، ص 5.
(51) الترغيب، ص 6.
(52) الترغيب، ص 6.
(53) الترغيب، ص 6.
(54) لأنها كانت مركب العرب في زمن الرسول (ص) وحتى في الزمن الذي كان فيه الكاتب يخوض الجهاد هو وأصحابه فإذا تغير الزمان وجب على المسلمين أن يعدو كل ما يساعدهم في تقوية صفوفهم ضد العدو كالطائرات والدبابات والسفن الحربية والأسلحة الثقيلة وغير ذلك.
(55) «الترغيب»، ص 9.
(56) يقصد العدو الفرنسي.
(57) «الترغيب»، ص 9.
(58) المرجع نفسه، ص 10.
(59) المرجع نفسه، ص 58.
(60) سورة النساء، الآية 102.
(61) الترغيب، ص 59.
(62) سورة الفاتحة، الآية 2.
(63) سورة الأعراف ،الآية 196.

(64) رواه الترمدي «باب السير»
(65) «صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار»
الشيخ مربيه ربه – مخطوط – خزانة الأستاذ المحترم «ماء العينين علي مربيه ربه»، أكادير، ص 1.
(66) المرجع نفسه ص 1.
(67) سورة المائدة، الآية، 51.
(68) «صولة الكار»، ص 1.
(69) سورة المائدة، الآية، 57.
(70) سورة آل عمران، الآية 118.
(71) صولة الكار، ص 5.
(72) رواه أبو داود، باب الجهاد ص 95/الترمدي، باب السير، ص 41.
(73) رواه الترمدي، باب السير ص 41.
(74) رواه الترمدي، باب السير.
(75) صولة الكار، ص 5-6.
(76) صولة الكار، ص 7.
(77) صولة الكار، ص 7.
(78) سورة آل عمران، الآية، 28.
(79) صولة الكار، ص 8.
(80) المرجع نفسه، ص 11.
(81) لبانة المجاهدين، ص 1.
(82) لبانة المجاهدين، ص 1.
(83) المرجع نفسه، ص 2.
(84) صولة الكار، ص 15.
(85) المرجع نفسه، ص 17.
(86) المرجع نفسه، ص 18.

*****

جهود الجامعة المغربية في كشف ودراسة أدب الصحراء المغربية

محمد احميدة(*)

لا مراء في الدور الكبير الذي قامت به الجامعة المغربية خلال فترة زمنية تلامس الأربعين عاما، في نشر الوعي داخل البيئة المغربية، وتأسيس قواعد البحث العلمي الأكاديمي، وتحقيق تراكم معرفي أصبحت نتائجه تلمس سواء على المستوى الوطني أم الدولي.

هذا التراكم الذي تحقق خلله تطور نوعي، مس حقولا معرفية متعددة بدءاً بمجالات العلوم الإنسانية، وامتدادا إلى مجالات العلوم الدقيقة.

ونصمد من خلال هذه المقالة إلى التركيز على جانب من الدراسات الجامعية المرتبطة أساسا بالعلوم الإنسانية، بل في دائرة محددة تتعلق بالأدب. فقد أصبح معروفا اليوم في أوساط الباحثين والمهتمين، أن الجامعة المغربية ساهمت بقسط وافر في دعم الثقافة الوطنية، والتعريف بها، وتبويئها المكانة اللائقة ضمن اطار الثقافة العربية عامة.

فانبرت العديد من الدراسات إلى الكشف عن جذور ثقافتنا وتبيان أصولها ومسار تطورها عبر مختلف العصور التاريخية.

(*) أستاذ جامعي، مدير مجلة المناهل.

وحظي الأدب العربي بالمغرب باهتبال كبير من لدن الباحثين الجامعيين، فالتفتوا إلى الكشف عن مخطوطاته وتحقيقها، ودراسة أعلامه وجمع انتاجهم، وبحثوا في الفنون الأدبية المختلفة التي أبدع المغاربة في إطارها عبر عصور امتدت إلى أقدم الفترات الإسلامية بالمغرب.

ولما كان المغرب بلدا متسع الأرجاء، متنوعا في بيئته، فقد انعكس ذلك في الإنتاج الأدبي والفكري، ومن ثم لم تنحصر عطاءات المغاربة في مدينة معينة أو جهة محددة، بل كان نبع النتاج في البوادي والمدن، في المناطق الجبلية والسهلية والصحراوية.

وعطاء فكري في بيئة بهذا التنوع، يفرض منهجا علميا معينا، يتسنى بواسطته جمع ما أفرزته كل جهة، في مرحلة أولى، ليشكل ذلك أرضية علمية تسمح بكتابة تاريخ للأدب المغربي. هذا المنهج الإقليمي، بهذا المنظور الدقيق، كان من أهم الأفكار التي دعا إليها عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري[1]، منذ أزيد من ثلاثين عاما، سواء في دراساته العديدة حول هذا الأدب، أم في الرسائل والأطروحات الجامعية التي يشرف عليها في مختلف الجامعات المغربية.

وحينما يلتفت الباحث إلى انجازات الجامعة المغربية في إطار دراسة تراثنا الأدبي، يمكنه أن يلحظ أن هذه الأعمال، أنجزت في اطار مشروع علمي متكامل وواضح الأهداف. إن الكشف عن تراثنا الأدبي المغربي، هو بحث عن جانب من الهوية الثقافية المغربية، وربط لفرع بأصل، وتنقيب عن جذور تلتحم بعمق حضاري أثيل.

من ثم فإن التعريف بهذا الجانب هو تشيت بهذه الجذور، واثبات لهوية تستعصي على الذوبان في الغير، دون أن ترفضه، في عملية تفاعل لا تسمح بتآكل الذات.

لقد قامت الجامعة المغربية من خلال الدراسات العلمية التي انجزتها مجموعة من الأساتذة الباحثين في الأدب المغربي، بمحاولة مسح لكل الفترات التاريخية، بدءاً بالعهد الادريسي إلى عهد الدولة العلوية في امتداداتها المعاصرة. فكانت النتيجة كشفا للعديد من المخطوطات والوثائق الغميسة، تم تحقيقها تحقيقا علميا، ووضعت بين أيدي المهتمين، ومس هذا التحقيق المتن الشعري والكتابة النثرية في نصوصها المتنوعة، مقامة ورسالة وشروحا لتآليف إلى غير ذلك، والتفتت بعض الأبحاث إلى أعلام الفكر والأدب، تصنع دواوينهم وتجمع سيرهم، وأحيت أسماء كادت تعفّى، وتم ترميم قسم غير يسير من ذاكرة الثقافة الأدبية المغربية، أمست طي النسيان. ولا يتسع المقام لسرد كل أسماء الأعلام التي أصبحت - بعد الكشف والدراسة - تشكل معالم بارزة في تاريخ أدبنا المغربي عبر مختلف العصور.

وإذا كانت مناطق مغربية كالرباط ومراكش وسوس وفاس وسلا والصويرة ومكناس، قد سجلت نبوغ العديد من أعلام الفكر، وبرزت هذه المدن في تاريخنا الثقافي المغربي، فإن الأقاليم الصحراوية المغربية، أنتجت بدورها العديد من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، الذين ضربوا بسهم وافر في المعرفة الأدبية والفقهية واللغوية والتاريخية. بيد أن احتلال هذا الجزء من الوطن، من طرف الاستعمار، حجب النظر إلى هذا الرافد الثري

للثقافة المغربية. ورغم محاولة المستعمر طمس ملامح هذا الجزء من بلادنا، فإن أصالة المحتد وتشرب البيئة الصحراوية بطابعها الإسلامي، وهويتها المغربية، رسخت الروح المغربي الأثيل لهذه المنطقة.

من ثم فإن الدارس لأدبنا المغربي، سيجد في هذا الجزء من الوطن، ينبوعا ثرا، يغني تاريخنا، ونستكمل من خلاله صورة ثقافتنا التي تميزت دوما بالتنوع والغنى. وتكشف ثقافة أقاليمنا الصحراوية عن الأصول المتحدة بين شمال المغرب وصحرائه، عقيدة، ولغة، وعادات وتقاليد وأحاسيس وطنية، ويبرز الانتاج الأدبي وشائج عميقة تفصح عن نسب صراح.

ماذا انجزت الجامعة المغربية في حقل الدراسات الأدبية المغربية الصحراوية؟

ان الاهتمام بأدبنا المغربي في الأقاليم الصحراوية، هو جزء من انشغالات البحث العلمي في حقل الدراسات المغربية، وينصهر في النظرة الشمولية الهادفة إلى كتابة تاريخنا الأدبي المغربي، على أسس علمية، ومن ثم رصد صورة للثقافة المغربية ومكانتها في إطار تاريخ الفكر العربي الإسلامي.

ومن باب الحقيقة التي تفرض نفسها على الباحث، والحرية بالتسجيل في هذا السياق، تلك الجهود العلمية الكبيرة، التي قام بها عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري في مجال دراسة الأدب المغربي، المدرسي منه والشعبي.

فلا يمكن أن نتحدث عن جهود الجامعة المغربية في بناء صرح التاريخ الأدبي المغربي، دون الوقوف مليا أمام الأعمال العلمية لهذا

الأستاذ الجامعي الكبير. فالبحث في الأدب المغربي عند الأستاذ الجراري همٌ معرفي وقضية وطنية في نفس الآن، وتوسل بالمؤسسة الجامعية لإنجاز العديد من خطوات مشروعه العلمي الوطني.

وإيمانا بأن دراسة أدبنا في الصحراء المغربية، ستكشف عن العديد من العناصر الجديدة التي تغني تراثنا الأدبي، ونستكمل على ضوءها صورة حياتنا وتاريخنا الأدبي، انبرى الدكتور عباس الجراري للبحث في ثقافة الصحراء فكانت كتاباته في هذا المضمار من الأبحاث الرائدة، كشفت مجاهل، وأنارت سبيل العديد من الأساتذة الباحثين، الذين رغبوا في ارتياد هذه الأرض البكر.

وركب الأستاذ عباس الجراري لهذا الأمر سبيل المحاضرة والمقالة، والدراسة والاشراف العلمي على مجموعة من الأبحاث التي انجزت في رحاب الجامعة المغربية، بل ان الدكتور الجراري لم يقتصر في التعريف بأدب الصحراء المغربية، على المستوى الوطني، بل سعى إلى نقل هذا الاهتمام خارج حدود الوطن. فنجده في الفترة الممتدة من 28 مارس و4 أبريل سنة 1975، يشارك في أسبوع ثقافي مغربي نظم بموريتانيا ويلقى محاضرة بعنوان: «الصحراء مهد أصيل للثقافة»[2].

ثم فتح باب هذا الانشغال العلمي في رحاب كليات أخر، فاتخذ من الدرس الافتتاحي الذي دعي لإلقائه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير بتاريخ 16 أكتوبر 1987، مناسبة لتعميق البحث في هذا الجانب من تراثنا الأدبي المغربي، وتناول درسه يومئذ «شعر الصحراء»[3].

وانبرى الدكتور عباس الجراري إلى توجيه بعض الباحثين وهم

في بداية تلمس طريقهم في البحث العلمي، للاهتمام بأدب الصحراء المغربية، فكان ذلك على مستوى بحث الإجازة، وشهادة استكمال الدروس[4].

والمتأمل لمشروع الاستاذ الجراري لدراسة ثقافة الصحراء المغربية، يلمح أن الباحث يوسع إطار أبحاثه لتتناول جوانب أخرى تصب في نهاية المطاف في حقل الاهتمام بثقافتنا وفكرنا بهذه المنطقة من بلادنا. من ثم فإن ما أنجزه الدكتور عباس الجراري من أبحاث حول البيعة، ووحدة المغرب المذهبية[5]، تضيء بدورها جوانب أساسية مكملة لما يمكن أن تكشف عنه الدراسات الأدبية. ولا يتسع المقام للاسهاب في هذا المنحى، فقد قصدنا في هذا السياق التركيز على الدراسات المرتبطة أساسا بالحقل الأدبي.

إن الاهتمام بالبحث العلمي في مجال أدب الصحراء، لم يحصر نفسه في نمط معين، بل تشي الدراسات المحققة إلى الآن، بالتنوع والتعدد. فانصرفت بعض الأبحاث إلى تحقيق المتون، وانبرت أخرى إلى دراسة بعض الظواهر الأدبية والفنية، والتفتت جهود إلى فنون أدبية معينة، مما يسمح بنوع من التكامل بين هذه الدراسات، ويكشف في نفس الآن عن غنى تراثنا الصحراوي.

ويمكن في هذا السياق أن نقدم نماذج لهذه الأبحاث الجامعية التي تندرج لاشك، في اطار مشروع علمي له أبعاده الوطنية والمعرفية. فمن الأبحاث الأولى التي انجزتها الجامعة المغربية في اطار دراسة أدبنا المغربي في الأقاليم الصحراوية، رسالة الأستاذ الباحث أحمد مفدي التي قدمها تحت عنوان «تحقيق ديوان الأبحر المعينية للشيخ محمد الغيث النعمة» باشراف الدكتور عباس

الجراري، ونوقشت بتاريخ 30 يونيو 1976 بكلية الآداب بفاس، ونال صاحبها درجة دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها. وهذا شكل من الأبحاث يعرف الدارسون والمهتمون انه يشكل الأس الرئيس لمختلف الدراسات الأخرى. فأن تضع بين يدي باحث متنا أدبيا، شعريا كان أو نثريا، محققا تحقيقا علميا، فقد وطدت له الكثير من الصعاب، ومهدت له السبيل القويم لدارسة علمية دقيقة.

ولاشك أن الدكتور عباس الجراري، وهو يقدم هذه الرسالة في أوائل سنوات السبعين، كان يسعى إلى توجيه الباحثين للكشف عن الذخائر المخطوطة والوثائق الغميسة، يؤسس بذلك لما هو آت من أبحاث ويكشط أرضا بكرا محفوفة بالمزالق العلمية، لمسها الباحث الأستاذ أحمد مفدي نفسه، وسجلها في بداية رسالته حيث يقول(6):

«إن البحث في الوسط الثقافي بالجنوب المغربي، يتطلب القيام بعمليات متداخلة ومعقدة...... والطريق إلى ذلك شاق تضيق فيه الأحراش، وتتسنن نتوءات الكثيب، وتكتنفه أخطار تكمن في بنية تضاريس الوسط القبلي، المتباعد المتقارب، المتحارب المتحاب، الساكن الثائر كالبركان».

ورغم هذه الصعوبات اقتحم الباحثون في الجامعة المغربية هذه المجالات الصحراوية، استكمالا لصورة تاريخنا الأدبي، ورفعا لحجب تخفي جذور ثقافتنا الوطنية. فانبرى الأستاذ أحمد مفدي ثانية – وهو الذي اشتكى من هذا الطريق الشاق – إلى مستوى آخر من البحث ليدرس «الشعر العربي في الصحراء المغربية:

اتجاهاته وقضاياه وجذوره التاريخية »[7]. ومن ثم نلمس هذا التوجه إلى تنويع الدراسات، فمن التحقيق إلى التحليل، ومن المتن الشعري إلى فنون الكتابة النثرية، فالمراكز الثقافية والعلمية. وفي هذا الإطار يلفت نظر الباحث في الثقافة المغربية بشكل عام، وعبر مختلف العصور التاريخية، مركز « الزاوية » كمؤسسة ثقافية وسياسية، قامت بدور فاعل في تاريخ المغرب. ومن أهم هذه الزوايا، الزاوية المعينية بالصحراء المغربية. من ثم كان اتجاه الباحث المغربي الأستاذ محمد الظريف إلى تناول هذا المركز الديني والثقافي، كاشفا عن دوره الأدبي من خلال رسالته الجامعية التي أنجزها تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، بعنوان « الحياة الأدبية في الزاوية المعينية »[8]. والحق ان البحث في هذا النمط من المؤسسات، يعتبر إضافة نوعية تسعى للكشف عن الجوانب المختلفة لثقافتنا المغربية.

لقد « لعبت مؤسسة الزوايا دورا هاما في تاريخ المغرب ما بعد الخلدوني، ورغم هاته الأهمية البالغة، لازالت هاته المؤسسة لحد الآن، لم توضع في سياقها التاريخي الصحيح، بل أكثر من ذلك، لم تنجز أعمال نظرية متكاملة بصددها »[9]. فإذا كان الباحثون يؤكدون على أهمية هذه المؤسسة، ويشتكون من قلة الدراسات التي نحت هذا النحو من البحث، فان ذلك يبرز أهمية دراسة اتجهت للتنقيب في حياة زاوية من أعماق الصحراء المغربية، علما أن الصورة الدقيقة والموضوعية لدور الزوايا، سواء في الحقل الأدبي أو السياسي، لا يمكن أن تتجلى بوضوح إلا في اطار دراسة متكاملة لا تنحصر في منطقة معينة، بل تلتفت إلى مختلف جهات المملكة.

ولما كان الاهتمام بدراسة أدب الصحراء المغربية متنوعا، فقد عمد الأستاذ الباحث محمد الظريف، إلى انجاز بحث علمي تناول فيه «الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، من بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين»، وهي الأطروحة التي حصل بها الباحث على درجة دكتوراه الدولة من كلية الآداب بالرباط[10].

وقد كشفت هذه الدراسة عن وجه آخر للثقافة المغربية بالصحراء، حين ينضاف إلى الوجوه الأخرى، فإنه يقدم مادة دسمة يفيد منها الباحث في مجالات متعددة. ان الكشف عن النصوص الصوفية في صحرائنا، يضع أمام الدارس وثيقة غنية بمعطيات يوظفها الباحث الإجتماعي والمؤرخ السياسي، والدارس اللغوي، إلى غير ذلك من المستويات التي يمكن أن يخضع لها تحليل هذا الصنف من المتون.

ولم يكن اهتمام الأستاذ الباحث محمد الظريف بهذه الظاهرة اعتباطيا، بل كان لاختيار هذا الموضوع أسبابه، أجملها الدارس في الآتي[11]:

1 - إن التصوف شكل ظاهرة في أدب الصحراء.
2 - غزارة الإنتاج وتنوعه خلال الحقبة المدروسة.
3 - إغفال دراسة هذه الظاهرة دراسة علمية مستفيضة.
4 - غياب الروح العلمية في بعض الدراسات التي أنجزت حول أدب الصحراء المغربية، خاصة من طرف بعض الأجانب.
5 - استجابة للدعوة التي ما فتيء عميد الأدب المغربي يصدع بها في العديد من أبحاثه، والتي تشير إلى حاجة ثقافة الصحراء إلى المزيد من الكشف والتحليل.

هذه نماذج من الأبحاث العلمية التي أنجزت في رحاب الجامعة المغربية، سعيا للكشف عن أدبنا المغربي في أقاليمنا الصحراوية، أي البحث في شق من هويتنا وحماية قسم من ذاكرتنا ووجداننا، سجله الانسان المغربي نصا شعريا آنا، وكتابة نثرية آنا آخر.

قد يلحظ القارئ أن حديثنا عن جهود الجامعة المغربية قد تركز على كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الخامس، ولهذا التركيز أسبابه الموضوعية. فالكل يعلم أن هذه المؤسسة الجامعية شكلت النواة الحقيقية الأولى للبحث الجامعي بالمغرب، واحتلت كلية الآداب داخل هذه الجامعة رتبة مركزية، مكنتها من تحقيق تراكم علمي في مجالات معرفية متعددة ، وكان للدراسة الأدبية حظ وافر من الاهتمام على مدى أربعين عاما. ثم كان تأسيس الدراسات الأدبية المغربية، التي حظيت منذ البداية بإقبال كبير ثم استمرارية دعمها صمود وجهد جاهد، وما كان هذا ليتم لولا توفر عاملين أساسيين:

الأول : شعور وطني عميق، وغيرة قوية على هوية الثقافة المغربية واقتناع كامل بإرثنا الفكري الذي يتميز بتنوعه وغناه ويستدعي المثابرة والصبر والاستماتة.

الثاني : إيمان راسخ بأن بناء الصرح الثقافي المغربي، جزء لا يتجزأ من النهضة الشاملة التي ينشدها الوطن، وهي نهضة تتشكل من لبنات، تتنوع وتتوحد في تكامل وانسجام.

ثم قد يسجل القارئ كذلك أن الحديث عن جهود الجامعة المغربية في دراسة أدب الصحراء المغربية، يتم بتركيز على أعمال الأستاذ الجامعي الدكتور عباس الجراري، وللأمر ما يبرره. لننظر

بموضوعية إلى ما أنجز من أبحاث علمية، في إطار الجامعة المغربية، حول الأدب المغربي، بل لننظر في مرحلة تأسيس هذا الدرس الجامعي بكلية الآداب، والذي خاض من أجله عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري صراعا مريراً[12]، كل ذلك ينبيك أن هذا الأستاذ الجامعي بذل الغالي والنفيس من أجل تحقيق هذا الهدف الوطني النبيل، ثم نلتفت لاحقا إلى الرسائل والأطروحات الجامعية التي أشرف عليها، ناهيك عن التدريس والتوجيه والمحاضرة والتأليف، فماذا نجد؟

إن الأرقام تنطق بالحقيقة التي لا مراء فيها. فإلى حدود سنة 1992 أسهم الأستاذ عباس الجراري في تأطير أكثر من نصف أبحاث دكتوراه الدولة في الأدب المغربي..... كما أنه أشرف على أربع وخمسين (54) رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب المغربي[13].

من ثم فإن أي حديث عن أدبنا المغربي في إطاره الجامعي يفرض موضوعيا اسم الأستاذ عباس الجراري الذي أصبح عمدة في هذا الباب، حتى إذا انصرف الحديث إلى ما أنجز من دراسات في أدب الصحراء، فإن عشرين عاما رصعت مسيرة هذا الأكاديمي بأبحاث علمية رائدة، تأليفا وإشرافا[14].

ومن باب ذكر الفضل لذويه، فإن أستاذا كبيرا، ومحققا فذا، وأحد أعمدة الجامعة المغربية في مجال البحث العلمي، هو الأستاذ الدكتور محمد بنشريفة، قد التفت في بعض ما أشرف عليه من أبحاث جامعية، إلى هذا الشق من أدبنا المغربي بالأقاليم الصحراوية. وقد نوقشت في الفترة الأخيرة، رسالة جامعية لنيل

دبلوم الدراسات العليا بإشرافه، تحت عنوان: «تحقيق ديوان الأبحر المعينية في الأمداح المعينية، الجزء الثاني»، أعدها الطالب محمد المختار المداح بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، ونوقشت في شهر يوليوز سنة 1995.

والأمل وطيد أن تتوسع هذه الجهود العلمية التي اتخذت حقل أدبنا في الصحراء مجالا لأبحاثها، بعد أن رسخ عميد الأدب المغربي أسس هذه المدرسة بوطنية عالية وتفان وصمود نادرين.

إن جهود الجامعة المغربية في الكشف عن ثقافة الصحراء المغربية، والاهتمام بتراثها الفكري، ودراسة مختلف الجوانب الحضارية، لم يكن مقصورا على هذا الشق من الإنتاج المعرفي المحدد في دائرة الأدب، بل هناك جهود تبذل في كليات أخر، كل في مجال تخصصه، فأنجزت أبحاث عديدة تناولت الجوانب التاريخية والإقتصادية والقانونية والإجتماعية للصحراء المغربية. بيد أن الإلمام بمختلف هذه الجهود قد تستعصي على دارس واحد، وتتطلب جهودا متضافرة لتجميع هذه الدراسات التي لاشك أن تراكمها وتكاملها في نفس الآن، يشكل ذخيرة علمية على جانب كبير من الأهمية. وقد حاولت من خلال هذه المقالة لفت النظر إلى الدور الذي تسهم به المؤسسة الجامعية بالمغرب، خاصة حينما ينصرف البحث العلمي إلى قضية مصيرية وحيوية، كقضية وحدتنا الترابية التي لا يجادل عاقل أن الدفاع عنها يتم بالسنان والقلم، فالجبهة الثقافية لا تقل جهادية وخطورة عن الجبهة العسكرية والسياسية.

*****

الهوامش :

(1) انظر مقدمة كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» الجزء الأول.

(2) انظر نص المحاضرة بمجلة «المناهل» ع 6، يوليوز 1976 وانطلاقا من هذه المحاضرة، أعدّ كتيب (ثقافة الصحراء) الذي صدر عن دار الثقافة، بالدار البيضاء عام 1978.

(3) انظر نص هذا البحث في كتاب «معالم مغربية» للدكتور عباس الجراري. وانظر الاهتمام بشعراء الصحراء لادماجهم في سياق البحث في الأدب المغربي، مثلا : (معركة وادي المخازن في الأدب المغربي) ص، 37-38-39.
وقضية الإحياء، وقد أثارها الأستاذ عباس الجراري في مناسبات ومجالات كثيرة، منها ما ورد في «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه»، ص، 181-182.

(4) أنجز الطالب محمد بويشّين تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، بحثا لنيل الإجازة في الأدب العربي، تحت عنوان : «دراسة في الشعر الحساني» خلال السنة الدراسية 1979-1980.
وفي إطار شهادة استكمال الدروس أنجز الطالب الحسن بوزلماط بحثا تحت اشراف الدكتور عباس الجراري بعنوان : «شاعر حرب الصحراء : الطاهر الإيفراني».

(5) لتأكيد وحدة المغرب والصحراء من حيث المذهب، قدم الدكتور عباس الجراري درسا حسنيا بعنوان «وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ» في رمضان 1395 هـ أكتوبر 1975، وقد أداره على الحديث النبوي «لاتجتمع أمتي على ضلالة»، وقد ألقى هذا الدرس بدعوة كريمة من جلالة الملك، إثر الاجتماع الذي عقده جلالته مع بعض الباحثين المتخصصين، صباح يوم السبت 26 يوليوز 1975، للتباحث في موضوع السؤال الذي طرحه أحد قضاة محكمة لاهاي الدولية حول وحدة المذهب الديني بين المغرب والصحراء، للبث في النزاع المغربي الاسباني حول الصحراء.

(6) تحقيق ديوان الأبصر المعينية، أحمد مفدي، المدخل، ص 4، بحث مرقون بكلية الآداب، فاس.

(7) أطروحة أعدها الأستاذ أحمد مفدي لنيل دكتوراه الدولة تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، نوقشت بكلية الآداب بالرباط، بتاريخ 22 يونيو 1990.

(8) نوقشت بكلية الآداب بالرباط، بتاريخ 17 يونيو 1986، ونال صاحبها دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها.

(9) محمد ضريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب، ص 9.

(10) أنجزها الأستاذ الباحث محمد الظريف تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، ونوقشت بتاريخ 13 يوليوز 1994.

(11) انظر الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء، المقدمة. بحث مرقون بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

(12) انظر كتاب «عبقرية اليوسي» للدكتور عباس الجراري، المقدمة، 9.

(13) للمزيد من الإطلاع على مساهمة الدكتور عباس الجراري في الإشراف والتأطير بالنسبة للرسائل والأطروحات، انظر: البحث الجامعي في الدراسات الأدبية المغربية، مقاربة أولية: عبد الإله فونتير، حوليات كلية اللغة العربية، العدد الثاني، ص 162، 1993.

(14) من الرسائل الجامعية التي أشرف عليها الدكتور عباس الجراري، وتناولت جانبا من أدبنا المغربي بالأقاليم الصحراوية:

أ – الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي. تحقيق الطالب: محمد بن محمد عبد الله ماء العينين.

وهي رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، نوقشت بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط.

ب – الصورة الفنية في شعر الصحراء المغربية، من منتصف القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين. أعدها الطالب: بوبكر أولياس.

وهي رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. نوقشت بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط.

ج – شعر المسيرة الخضراء من 1975 إلى 1985 جمع ودراسة. للطالب الأردني: محمد سالم الفزاع.

د – عبد الله العتيق لغويا وأديبا، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، للطالب : محمد الأمين ولد محمود صهيب.

*****

كتاب «ثقافة الصحراء»

للدكتور عباس الجراري

عرض : مصطفى الجوهري(*)

لعله ليس من الضروري الوقوف عند المجهود الكبير الذي بذله الدكتور عباس الجراري - ومازال - في تطوير البحث العلمي في المغرب تنظيرا ودراسة وبحثا ومنهجا وتكوينا وإشرافا، خدمة لتراثنا وثقافتنا، وإذكاء للحركة العلمية المغربية قديمها وحديثها، انصبت دراساته على استقراء الظواهر والقضايا، واهتمت بالرجال الذين كان لهم إسهام بارز في صنع مكونات الحضارة المغربية العربية الاسلامية، والمتأمل في كتاباته عموما سيلاحظ أنه كان له الحظ الأوفر في خدمة مختلف مظاهر الثقافة المغربية ومقارباتها، بتفان وصدق وإخلاص، وأخلاق عالية، وبروح وطنية هادفة، ويكفيه - في نظري - البذرة الطيبة التي غرسها ورعاها، وهي تنتشر عبر أقاليم المملكة تضطلع بمسؤولية التدريس والبحث بمختلف المؤسسات الجامعية والتربوية، تؤكد حسن عطائه ومكانته وريادته. ومن أبرز اهتمامات الدكتور عباس الجراري، والذي شكل عنده هاجسا حرك فيه جسامة المسؤولية الوطنية، وما يمكن أن يساهم به الباحث والعالم المسؤول لقضية

(*) أستاذ جامعي، المدرسة العليا للأساتذة، التقدم، الرباط.

وطنية كبيرة تتصل بالأرض والسيادة، انه موضوع الصحراء في بعده الحضاري والفكري لإفراز الذات المغربية، وهو موضوع ليس سهلا، ينضوي عنده ضمن مشروع النظرية الاقليمية في الأدب، التي تتطور لتحقق القومية والعالمية، وهذا الاهتمام محاولة جادة لتذليل الصعاب للذين يودون دراسة فكر المنطقة التي ظلت سجينة الاستعمار الاسباني لعقود طويلة، ومع ذلك فإن إنتاج الصحراء الثقافي يشكل ملفا خصبا وإثباتا قويا، يمكن استثماره بعمق ووعي في الطرح السياسي ومكمل له، حين اختار المغرب أن يسلك منهج العقلاء سِلما وسَلاما، لتحقيق وحدته الترابية. ومن أبرز عناصر هذا المنهج ما أبدعه الملك العبقري جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره، يوم خط ملحمة القرن/ المسيرة الخضراء التي حققت كل مقومات النصر والسيادة والوحدة.

إن المتأمل في كتابات الدكتور عباس الجراري ومحاضراته منذ بداية السبعينات إلى اليوم، سيلاحظ أن ما أخرجه من أبحاث تتصل في أغلبها إن لم نقل أجمعها بقضية الصحراء المغربية وأبعادها الثقافية والوطنية، بدءا بكتابه: (النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830 إلى 1912)[1]، الذي يرى من خلاله أن (الاسلام هو المجسم الحقيقي للشخصية الوطنية وللوجدان الفردي والجماعي وللوجود الثقافي والحضاري في أبعاد التاريخ والحاضر والمستقبل)[2]، فكتابه (وحدة المغرب المذهبية)[3]، الذي عالج فيه (ظاهرة الوحدة وأسباب الأخذ بالمذهب المالكي، والاستمرار فيه. ومدى استفادتنا من تحليل هذه الظاهرة في مواجهة الواقع الذي نعيش).

وسـتـبـرز مكونات الـثـقـافـة الـصـحـراوية في كـتـابـه (ثـقـافـة الـصـحـراء)[4] – مـوضـوع هـذا الـعـرض – عن طـريـق تجـسـيـد الملامح الفكرية والخصائص الفنيـة لمعالم هذه الثقافة كما سنرى. ولعل الثقافة الصحراوية ستبلور لدى الدكتور عباس الجراري معطى جديرا بالتأمل، بل إنه تصور يمكن أن يساهم في اعادة النظر للتأريخ الأدبي الحديث، في مرحلة النهضة العربية الحديثة، خاصة وأن شعراء الصحراء يشكلون طليعة اتجاه شعري يصوغ لهم الريادة قبل أن تعرف (مدرسة البعث والاحياء) في المشرق العربي، وهو ما ناقشه كتابه (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه)[5]، فكانت الصحراء المغربية – أرض الشعر والشعراء – سباقة من حيث الزمان والمكان والبعث، مما أهلها أدبيا أن تتفرد بالحفاظ على خصائص الشعر العربي الحق، واستحق شعراؤها أن يحملوا (مدرسة الإحياء الصحراوية) التي تتميز بسمات وملامح خاصة[6]، وكيف ما كان الحال فـ(إن شعر الصحراء كان – ومازال – أداة وحدة ووسيلة تواصل، أي أنه لم يكن في يوم ما شعرا منعزلا أو منغلقا يتحرك في بيئته فقط، ولكنه كان دائما يمد يده إلى أطراف الوطن ليندمج فيه وينصهر داخل بوتقته، في عملية أخذ وعطاء مستمرين، توسل فيهما بكل الممكنات المتاحة لإثبات الوحدة وتأكيد التواصل، على الرغم من الظروف التي كانت في معظمها صعبة، بما تلقى به في الطريق من عوائق وحواجز)[7].

إن فكر الصحراء بكل أنماطه سيشكل بعدا حضاريا ووحدويا لا ينحصر في الوحدة الوطنية فحسب، بل سيحاول أن يفرز الوحدة المغاربية الكبرى، وهذا ما نلمسه في كتابه (الفكر والوحدة)[8]، ثم كيف انعكس هذا الفكر على الجانب السياسي والديني وأكد

حضوره (عند النظر إلى الهوية والكيان والشخصية) في بحثه (فلسفة نظام الحكم في الاسلام وأهمية البيعة)[9]. فكانت البيعة حقا أساس الارتباط بين المغرب وصحرائه، ثم انتهى إلى بلورة كل المعطيات السابقة التي كانت تهدف إلى تأكيد هوية هذا الفكر الثقافة، ثم مدى قابليته للإنفتاح والحوار في كتابه الأخير (الثقافة من الهوية إلى الحوار)[10]. ويمكن أن نضيف إلى كتابات الدكتور عباس الجراري حول ثقافة الصحراء، جهوده في الأبحاث والرسائل والأطاريح الجامعية التي أنجزها تحت إشرافه وتوجيهه ثلة من الأساتذة الباحثين[11].

ثقافة الصحراء:

منذ أن فكر المغرب في أن يضع حدا للإستعمار الاسباني في الصحراء المغربية ورجوعها إلى الوطن الأم، كانت الثقافة الصحراوية – رغم تنوعها وتعددها – غير متداولة بالشكل الذي نلمسه اليوم، وربما كان كتاب (الوسيط في تراجم أدباء شنجيط) لأحمد بن الأمين الشنكيطي، المرجع الوحيد – فيما أحسب – المتداول بين الباحثين، رغم كثرة التآليف الصحراوية المطبوعة، وبعض الكتابات التي اهتمت بالموضوع[12]، لكنه فيما بعد توالت جهود الباحثين للعناية بفكر الصحراء وأعلامه ومكوناته العامة(13). واتجهت هذه العناية لاستقراء ظواهره وقضاياه، في محاولة تعريفية هادفة، تطرح نماذج ثقافية جادة تعنى أساسا بالروابط المتينة والأصيلة لاثبات الهوية والشخصية الوطنية، بحكم الظروف التي صاحبت القضية الصحراوية منذ بداياتها، وفي نفس الوقت، كان الهدف هو محاولة الإلمام الكلي بمختلف

معطيات الفكر الصحراوي وأبعاده، ومقاربته الاقليمية والعربية لتقرير نموذجيته ومغربيته.

وفي هذا النسق كان كتاب (ثقافة الصحراء)[14] للدكتور عباس الجراري الذي يلقي بالظل على جوانب هامة من الحياة الفكرية في الأقاليم الصحراوية المغربية، ويكشف التلاقح والانصهار الذي حدث بينها وبين ثقافات الأقاليم الأخرى رغم ظروف القهر التي فرضها الاستعمار مدة طويلة. وأن يشخص ملامحها ويبرز أعلامها، ويحدد خصائصها، مؤكدا منذ البداية ازدهار الثقافة في المنطقة عبر العصور، وأنها كانت دائما أداة (تواصل وإشعاع)، فما موضوعات هذه الثقافة؟ لقد وضع الأستاذ عباس الجراري لهذه الموضوعات محاور ثلاثة:

الأول : خصصه للملامح التاريخية والفكرية الصحراوية.

الثاني : لأعلام الصحراء ممن ساهموا في صنع الثقافة الصحراوية.

الثالث : لتحديد خصائص ثقافة الصحراء.

واهتم في المحور الأول بدراسة المكونات الحضارية للصحراء منذ العهود الأولى للتاريخ القديم، وما عرفته المنطقة من أشكال حضارية متميزة: (آلية وحيوانية وفلاحية وكتابية)، مفندا أصول السكان لتأكيد (الوحدة الأثنوغرافية)، محللا المظاهر الدينية المتتالية، وإلى عدم معرفة المنطقة الإحتلال الأجنبي، (إلا ما كان من غزو حانون القرطاجني، بحثا عن مراكز جديدة لتجارة القرطاجنيين)[15]، فكيفية نفوذ الاسلام منذ الفتح الاسلامي بشمال إفريقيا، وكذا تعاقب الدول التي حكمت المغرب منذ دولة الأدارسة

إلى دولة العلويين الشريفة، مشيرا إلى المذاهب التي انتشرت قبل المذهب المالكي، هذا الأخير الذي ساهم في إثراء مشروع الوحدة المذهبية المناسبة منذ عهد الدولة المرابطية وإلى اليوم، وكيف ساهمت هذه المذهبية في إبراز (عنصر التواصل بيننا من الشمال إلى الجنوب)[16].

أعلام الصحراء والدور الثقافي :

ليس ضروريا التأكيد بأن حضارة الأمم تعرف برجالاتها من العلماء والفقهاء والكتاب والأدباء والشعراء و.... وكل من له صلة بالمعرفة والفكر والثقافة، ومن يشتغل في موضوع الأعلام سيدرك الصعوبات التي يمكن أن تعترضه، ليس مجال بسطها هذا العرض، ومع ذلك نلمس في المحور الذي خصصه الدكتور عباس الجراري في كتابه (ثقافة الصحراء) مدى الدقة في اختيار الأعلام على تعددهم وتنوع عطاءاتهم، وهم يمثلون بحق (ثقافة الصحراء) بكل معطياتها وتنوع عناصر مكوناتها، بدءا ببعض أعلام المرابطين الذين يشكلون بحق طليعة صنع الثقافة الصحراوية والمغربية أمثال : عبد الله بن ياسين، ووجاج بن زلو، وزاوي بن مناد الصنهاجي (ابن تقسوط) وخلوف بن خلف الله الصنهاجي، وعمر بن امام ابن المعتز الصنهاجي، والمنصور بن محمد بن الحاج داود، وميمون بن ياسين. وفي العصور اللاحقة برزت أسماء من مثل: محمود بن عمر بن حمد أقيت الصنهاجي، والشيخ محمد بن محمد التنبيكتي، واحمد بابا التكروري وعبد الله بن محمد العلوي (ابن رازكة)، وسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم محنض العلوي، ومحمد بن عبد الله بن رازكة، وسيدي محمد بن الشيخ سيدي، والمختار بن يون الجكني،

وبابا ابن احمد، والتيجاني بن بابا بن احمد بيب. والشيخ ماء العينين وأسرته وأبنائه أمثال: الشيخ محمد فاضل بن مامين، والشيخ ماء العينين محمد مصطفى، واحمد الهيبة، ومربيه ربه، ومحمد الأغضف...

ولم تكن المرأة الصحراوية بمعزل عن المشاركة في صنع هذه الثقافة، بل كان لها نصيبها في إذكاء مكوناتها، نذكر من بين هذه الأسماء: زينب النفزاوية[17]، وأم طلحة تميمية، وقمر[18]، وحواء، وزينب[19]، وخناثة بنت بكار[20]، وصفية بنت المختار، وخديجة بنت المختار بن عثمان، وهند[21]، وميمونة بنت الشيخ محمد الحفري، وأختها ربيعة، وخديجة بنت الإمام محمد العتيق، ومريم الشاعرة، وخديجة بنت البيضاوي.

خصائص الثقافة الصحراوية :

أما خصائص (ثقافة الصحراء) فقد تناولها المؤلف من خلال محتوياتها ومضامينها وأضاف إليها (الأبعاد والآفاق). فنجده يركز على استقراء الجانب المذهبي الذي يتمثل في الخط السني، ومذهب الإمام مالك، تؤكده نوعية المتون والتاليف التي كانت تدرس في المنطقة، وتظهر هذه الخصائص أكثر في اللغة والأدب في نوعيه المدرسي والشعبي سواء في الأمثال والحكم أو أدب الملحون الذي (نشأ في الصحراء ثم انتقل من تافيلالت إلى الشمال ليزدهر في الحواضر)[22]، وما ميز الصحراء تراثا وإبداعا.

أما العنصر الثاني فقد أكد من خلاله كون (ثقافة الصحراء كانت دائما ثقافة تواصل، حيث نجد العلماء والأدباء الصحراويين يتوافدون على أقاليم الشمال، إما للدراسة والتدريس، وإما

للإتصال بالملوك قصد مدحهم أو الكتابة لهم)[23]، ويتأكد هذا التواصل والإتصال من مجموعة من الأسماء اللامعة سواء التي اشتغلت بالكتابة في مجالات معرفية مختلفة، وفي دواوين الملوك، أو الشعراء الذين تخصصوا في قصيدة المدح، أو الذين أبدعوا قصائد المساجلات الإخوانية، أو من تقلبوا في مناصب متباينة، أو من ساهموا في تنشيط مجالات الثقافة الأدبية، وحركة التأليف.

ولعل أبرز الروابط الثقافية بين شمال المملكة والصحراء تتمثل، إلى جانب الوفود الرسمية التي كانت تزور المنطقة، في ما تبادله الشعراء من الشمال والجنوب من مساجلات إخوانية، أو بعض شعراء الشمال الذين (مدحوا الشيخ ماء العينين كالطاهر الافراني، وأحمد بن المواز، وعبد الرحمن بن زيدان، وأحمد سكيرج، وعبد الله القباج)[24]، أو ما كان من تقليد علمي بين العلماء والفقهاء ينعكس في (تبادل الاجازات العلمية) و(تبادل الألغاز العلمية)[25] و(تبادل الفتاوى الفقهية)[26]، وأخيرا مدى (عناية الملوك بطبع إنتاج علماء الصحراء منذ دخلت المطبعة إلى المغرب)[27].

وهكذا نخلص إلى أن كتاب (ثقافة الصحراء) للدكتور عباس الجراري على شدة اختصاره، يعد أرضية ثرية لدراسة المعطيات الأساسية للثقافة الصحراوية منذ بداياتها الأولى حتى الفترة الحديثة، تجسد وحدة المملكة وترابط أبنائها عبر التاريخ، وهذه الثقافة من جانب آخر تشكل تجربة متميزة تغني التجارب المغربية الأخرى، وتكشف واقع الثقافة بالمغرب، وهو واقع يتميز بالتنوع والتعدد والثراء وإن كانت ثقافة الصحراء تنفرد بجملة

من السمات ذات الجذور التاريخية في ثقافة المغرب وحضارته، تطرح بوعي المسؤولية الحضارية الملقاة على رجال الفكر والباحثين للإهتمام بالثقافة الصحراوية، لأننا نعتقد أن التراث الصحراوي بأشكاله وأنماطه المختلفة، وشخصياته التي لا حصر لها، مازال في حاجة إلى التقصي والدرس والتحليل، لبلورة زوايا الحضارة المغربية التي تعرف بالخصوبة والتواصل والتجديد.

*****

الهوامش :

(1) مطبعة فضالة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1975.
(2) النضال في الشعر العربي بالمغرب، ص: 71.
(3) درس حسني قدم خلال شهر رمضان 1395 هـ دار الثقافة، الدار البيضاء، 1976.
(4) مطبعة النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1978.
(5) صدر عن مكتبة المعارف، الرباط، 1979:انظر الكتاب، ص: 181. ومعالم مغربية، ص: 140.
(6) انظر معالم مغربية، ص: 141، وما بعدها.
(7) شعر الصحراء، المرجع السابق، ص: 129.
(8) انظر مبحث (آفاق بناء المغرب العربي ثقافيا) من كتاب (الوحدة والفكر) عباس الجراري.
(9) ندوة الخلافة والبيعة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العيون من 19 إلى 22 ذي الحجة 1405 هـ موافق 5-8 دسمبر 1985، وانظره في كتاب (بحوث مغربية في الفكر الإسلامي)، مطبعة المعارف الجديدة، 1988، ص: 9، وما بعدها.
(10) منشورات النادي الجراري، رقم 3، الهلال العربية للطباعة والنشر، 1993.
(11) نذكر على سبيل المثال: أحمد مفدي، تحقيق (ديوان الأبحر المعينية) رسالة د.د.ع. وأطروحة الشعر العربي في الصحراء المغربية، ومحمد الظريف (الحياة الأدبية في الزاوية المعينية) رسالة د.د. ع. وأطروحة حول، الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية. وجميعها تحت إشراف د. عباس الجراري.

(12) من بينها مثلا ما كتبه محمد المختار السوسي، وعلال الفاسي، وعبد الله الجراري، وآخرون.
(13) أمثال: عبد الوهاب بنمصور، وعبد العزيز بنعبد الله، وزين العابدين الكتاني، والمختار ولد أباه، وشيبهنا حمداتي ماء العينين، وعباس الجراري.
(14) هو في الأصل محاضرة شارك بها د. عباس الجراري في الأسبوع الثقافي الذي نظمته وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بنواكشوط ما بين 28 مارس و4 أبريل 1975، مطبعة النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1978.
(15) ثقافة الصحراء، ص: 9.
(16) نفسه، ص: 18.
(17) زوج يوسف بن تاشفين.
(18) زوج علي بن يوسف.
(19) أختا أبي بكر ابن تافلويت
(20) زوج المولى اسماعيل
(21) زوج ماء العينين.
(22) ثقافة الصحراء، ص: 34.
(23) نفسه، ص: 35.
(24) نفسه، ص: 47.
(25) ثقافة الصحراء، ص: 48.
(26) نفسه، ص: 51.
(27) نفسه، ص: 52، ومابعدها.

* * *

دغدغة في ألق الذاكرة

قراءة في كتاب «ثقافة الصحراء»

للدكتور عباس الجراري

سعيد الفاضلي(*)

يعد الدكتور عباس الجراري من الرواد الأوائل الذين اهتموا ومازالوا يهتمون بموضوع الصحراء ومن أغزر المنتجين في حقله كتابة وبحثا ومحاضرة وإشرافا أكاديميا، كما أنه تناول هذا الموضوع في غضون مواضيع أخرى أكثر عمومية؛ دون أن ننسى إشرافه المتواصل إلى الآن على رسائل وأطروحات جامعية مهدت الطريق أمام الباحثين ونفضت الغبار عن تراث حضاري وأدبي ثر.

ومن بين مؤلفات الدكتور عباس الجراري في هذا المجال كتاب «ثقافة الصحراء»، وهو محاضرة في الأصل، كان ألقاها في الأسبوع الثقافي المغربي بنواكشوط سنة 1975، وهو من منشورات دار الثقافة سنة 1978، ويقع في اثنتين وسبعين صفحة من القطع الصغير. ورغم كونه محاضرة محدودة في الزمان والمكان نجده شاملا يكتفي صاحبه باللمحات والإحالات، كتحليق استطلاعي كرونولوجي، كل محطة فيه بمثابة دعوة إلى التعمق فيها وعيا منه أنها «تحتاج إلى كثير من البحث والتنقيب للكشف

(*) أستاذ باحث في الأدب المغربي.

عنها في صورتها المتكاملة، وتحتاج بعد ذلك إلى مزيد من الدراسة والتحليل»[1]. ولعل أصدق دليل على ذلك اعتماده على ست وخمسين مصدرا ومرجعا منها ما هو عربي ومنها ما هو فرنسي، وهو كتاب أساسي لكل مهتم بالصحراء أنى كان تخصصه، وقد نفدت نسخه من السوق منذ مدة طويلة.

ويأخذ الدكتور عباس الجراري كلمة «ثقافة» بالمعنى الانثربولوجي العلمي الذي يشمل كل الأنشطة الإنسانية الدالة على الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة، ابتداء من استعمال أهل الصحراء الأدوات الحجرية واشتغالهم بالصيد إلى إتقان الفلاحة، إذ «كانت وفرة المياه والأنهار والوديان تمكن من غرس الأشجار وإقامة زراعة منتظمة ولو إلى حد»[2]، وصولا إلى الكتابة المعروفة بخط تيفيناغ؛ وكل ذلك باعتماد المكتشفات الأثرية.

ومثل كل الشعوب البدائية قدس سكان الصحراء الأقدمون مظاهر الطبيعة وبعض الأوثان قبل ظهور اليهودية والمسيحية. ويؤكد الكاتب أن أهل الصحراء «أسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم وأنه لم يسمع قط أن أحدا استولى عليهم قبل إسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام»[3]. ومن أهم ماحققه الدكتور الجراري وصول الفاتحين الأول إلى المنطقة مثل عقبة بن نافع وموسى بن نصير. ثم مضى يتابع العلاقة المتينة بين منطقة الصحراء وبين الدول المغربية المتعاقبة كالأدارسة والمغراويين.

ورغم وصول أصداء الصراع المذهبي الذي كان سائدا في الشرق العربي إلى المغرب، ومن ذلك تأرجح أمراء سجلماسة بين الصفرية والإباضية فإن المذهب السني المالكي هو الذي كان مسيطرا، هذا

المذهب الذي سيوحد المنطقة كلها في «عهد دولة نابعة من الصحراء هي دولة المرابطين»[4].

وقد حدد الكاتب أسباب الاعتماد على هذا المذهب في ثلاث نقاط:

1- معرفة الناس السابقة به

2- موافقته لمزاجهم؛

3- لأنه أتاح لهم نوعا من التحالف مع الأنظمة السنية في المشرق. كما دفع التهم التي ألصقت بابن تاشفين، دون أن ينسى الإحالة، للتعمق في هذين الموضوعين، على بعض مؤلفاته التي أشفى فيها الغليل[5].

ومعلوم أن عقيدة الموحدين مزيج من الأشعرية والشيعة الإمامية والاعتزال والمذهب الظاهري لذلك اعتبر الدكتور عباس الجراري ثورة بني غانية الصنهاجيين على الموحدين المصامدة رفضا «للمذهبية الموحدية لتمكن المذهب السني منهم وتمكن الفقه المالكي، شأنهم في ذلك شأن جميع المغاربة»[6].

وحين استولى المرينيون على السلطة سعوا إلى بسط نفوذهم على الصحراء ليستمر الاستقرار والوحدة بعد ذلك «في ظل الدول المتعاقبة... دول المرينيين والسعديين والعلويين وهي كلها من أصل صحراوي وقائمة في مذهبيتها على السنة وفقه الإمام مالك»[7] هذه المذهبية التي يعتبرها الكاتب بين شمال المغرب وجنوبه على مر التاريخ أرسخ عناصر التواصل والوحدة.

وينتقل الدكتور عباس الجراري في المبحث الثاني إلى ذكر أعلام مبرزين صحراويين على مر العصور نختار منهم تمثيلا: عبد

الله بن ياسين، وأحمد بابا التنبكتي، وعبد الله بن محمد العلوي الشهير بابن رازكة الذي كانت له حظوة عند المولى اسماعيل وله في ولده الأمير محمد العالم مدائح كثيرة، وكذا المختار بن بون الجكني. بالإضافة إلى الشيخ ماء العينين وأسرته الذين «اشتهورو بالجهاد والعلم والأدب، وكانوا السند الكبير والقوي للدولة في الصحراء وحققوا التواصل السياسي والفكري في المنطقة كلها»[8]. إذ كان الشيخ ماء العينين ممثلا للسلطان بهذه المناطق وله مراسلات مع مختلف الملوك العلويين الذين عاصرهم من المولى عبد الرحمن إلى المولى عبد الحفيظ. كما لا يفوت الدكتور عباس الجراري أن يذكر بعض النساء الصحراويات المبرزات مثل زينب النفزاوية زوج يوسف بن تاشفين وخناثة بنت بكار زوج المولى إسماعيل.

أما في مبحث الخصائص الثقافية فتناول الكاتب وحدة الجانب الفكري والمذهبي الجامع بين أبناء المغرب من شماله إلى جنوبه وصولا إلى التخوم الافريقية ويتلخص في العقيدة الأشعرية وفقه الإمام مالك والتصوف السني التعبدي، وقد لخص ذلك ابن عاشر في نظمه قائلا:

في عقد الأشعري وفقه مالك　　　وفي طريقة الجنيد السالك

ومن الخصائص اللغوية والأدبية في ثقافة الصحراء متانة اللغة وجزالتها تأثرا بالجاهليين والأمويين، هذا بالإضافة إلى تنوع التراث الشعبي المتجلي خصوصا في صناعة الزرابي والحلي وأنواع الموسيقى والغناء والرقص والأمثال والقصص، ولا يخفى الدور التربوي للعنصرين الأخيرين. أما فن الملحون فإنه «نشأ في

الصحراء ثم انتقل من تافيلالت إلى الشمال ليزدهر في الحواضر ومن الأسماء التي لمعت فيه مولاي الشاد وعبد الله بن حساين كلاهما من الصحراء ومن القرن التاسع الهجري»[9]، ويعتبر الكاتب ابن حساين أول من اكتملت عنده قصيدة الشعر الملحون[9].

وفي إطار تناول الدكتور عباس الجراري آفاق وأبعاد ثقافة الصحراء استخلص أن هذه الثقافة كانت دائما ثقافة تواصل بين شمال المغرب وجنوبه، فالشاعر أبو اسحق بن يعقوب الكانمي مثلا، مدح المنصور الموحدي، والمختار بن الهيب الابييري كان كاتبا للمولى عبد الرحمن، ومحمد لجيدري بن حبيب الله كان ذا حظوة عند سيدي محمد بن عبد الله، ومعاوية بن الشد التندغي مدح المولى اليزيد بن سيدي محمد بن عبد الله، ومحمد البيضاوي الشنجيطي تصدر للتدريس وشغل عدة وظائف رسمية بطنجة وتطوان وغيرها من المدن. كما أن محمد بابا الصحراوي استقر بإلغ وله مطارحات مع شعرائها، والشيخ سيدنا بن الشيخ أحمدو الديماني الصحراوي مدح الملوك العلويين وله مساجلات مع أدباء سوس، وماء العينين بن العتيق له مدائح في المغفور له محمد الخامس.

ولم يفت الدكتور عباس الجراري أن يلم بالاتجاه الآخر للتواصل المنطلق من الشمال إلى الجنوب في شخص الرحالة ابن بطوطة وأبي سالم العياشي ومحمد بن أحمد القيسي السراج، دون أن ننسى الوفود الرسمية التي كانت بعثاتها تترى نحو الصحراء، ومنها الوفد الذي بعثه المولى عبد العزيز لاستخلاص طرفاية من الانجليز سنة 1313 هـ، وقد قال العلامة إبراهيم بن محمد البواري

مرحبا بهم:

أهلا بهم من خمسة أعلام	بل خمسة كقواعد الإسلام
رسل الأمير ابن الأمير إمامنا	عبد العزيز بن العزيز إمام

كما ذكر الكاتب بعض شعراء الشمال الذين مدحوا الشيخ ماء العينين كالطاهر الإفراني وأحمد بن المواز وعبد الرحمن بن زيدان وأحمد البلغيثي وأحمد سكيرج وعبد الله القباج.

وتعد الإجازات المتبادلة والألغاز العلمية والإفتاء بعض روافد هذا التواصل، كما يعد طبع كتب أعلام الصحراء من طرف الملوك العلويين من أقوى أواصر هذا التواصل، وقد ذكر منها الدكتور عباس الجراري خمسة وأربعين مؤلفا يتوزع موضوعاتها التصوف وعلوم الدين والشعر والنحو واللغة.

ثم إن إشعاع ثقافة الصحراء تجاوز حدود الوطن إلى مصر ومن أبرز الأعلام الذين خدموا الثقافة العربية ككل عند إقامتهم بمصر محمود محمد بن أحمد التركزي (– 1904) الذي صحح أخطاء طبعة بولاق للأغاني، وأحمد بن الأمين (– 1913) الذي صحح طبعة ساسي من نفس الكتاب، وهو صاحب كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، وقد ذكر المؤلف للأول ستة مولفات، لعل أطرفها: رسالة في صرف «عمر»، «زاعما أن العرب ونحاتهم غلطوا فيها منذ سيبويه وحجته أنه وجد مائة بيت للعرب مصروف فيها عمر وأنه صرف في البخاري ومسلم وأن العرب لم تمنعه نظما ولا نثرا»[10]. كما ذكر المؤلف للثاني ثلاثة عشر مؤلفا منها رد على رسالة التركزي في صرف «عمر».

والملاحظ من خلال العناوين المذكورة أن هذين العلمين تخصصا في اللغة والأدب، كما تدل رسالة صرف «عمر» والرد عليها على أن

الرجلين قادا نهضة لغوية وصلت إلى درجة إعادة النظر في بعض المسلمات.

والواقع أن التوفيق حالف عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري فيما توخاه من هذا الكتاب ألا وهو إبراز الأواصر الثقافية والاجتماعية والسياسية والحضارية القائمة بين شمال المغرب وجنوبه، فأغلب الدول المغربية منحدرة من الصحراء، كما أن هذه الأخيرة مهد فن الملحون الذي لازال يصدح في مدن المغرب بأنغامه، والمذهب المالكي هو السائد في المغرب كله شمالا وجنوبا، والأمثال السائرة في الشمال والجنوب واحدة، وقد أعطى المؤلف نماذج منها[11]. كما أن «لكل أسرة عريقة وشريفة في الصحراء أصلا أو فرعا في المغرب»[12]، ومن ذلك العروسيين وأولاد بوسبع وقبائل الرقيبات المنتسبة للولي عبد السلام بن مشيش[12]. وما ذلك بغريب على رجل من طينة الرجال الأفذاذ الذين يحملون رسالة ودعوى لا يتوقفون عن الدفاع عنها وتطويرها، متمثلة عنده في تأصيل البحث والدرس في الأدب والثقافة في المغرب وإعطائه الشخصية المتميزة البعيدة عن كل تبعية أو تقليد.

*****

الهوامش :

(1) ثقافة الصحراء: د. عباس الجراري 61.
(2) نفس المصدر 7.
(3) نفس المصدر 9-10.
(4) نفس المصدر 14.
(5) وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ (درس حسني: رمضان 1395) التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والأدب: دعوة الحق: مارس

1974. كما نشره ضمن كتاب الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه: 81.
وانظر أيضا بنفس الكتاب: قضية المعتمد بن عباد 107.

(6) ثقافة الصحراء 17.
(7) نفس المصدر 18.
(8) نفس المصدر 26-27.
(9) نفس المصدر 34. وانظر كتاب «القصيدة» للمؤلف.
(10) نفس المصدر 58.
(11) نفس المصدر 33.
(12) نفس المصدر هـ 35.

* * *

موعد مع الصحراء(*)

محمد الحلوي

يا رمالي العطاش في الصحراء ... أنت ظمأى للماء أم للدماء؟

يا عروسا بلا ورود وكل الـ ... ـكون منها معطر الأرجاء

الرمال العفراء في واحك الخضـ ... ـر وحسن الجمال في الرمضاء

والنخيلات وهي ترقص تيها ... كالعذارى في عزة شمّاء

صوّرتاه في روائعها الفكـ ... ـر ودنيا قدسية الأضواء

لا يضير الصحراء أن لا ترى فيـ ... ـها رياض تفوح بالأشذاء

كل أرض يبدو على وجهها الخيـ ... ـر وخير الصحراء في الأحشاء!

خبريني عن الغزاة ومن جا ... ءوا ليبنوا الأهرام في صحرائي!

هل أقاموا حضارة في مغانيـ ... ـك أحلتك ناطحات السماء؟

هل أقلوا بنيك علما وطاروا ... بك في المركبات عبر الفضاء؟

إن من عودت يداه على الأخـ ... ـذ عسير أن يبسطا بالعطاء!

*****

ذكريهم (أنوال) والأسد في الريـ ... ـف ويوم الزلاقة الغراء

ذكريهم من نحن إن لم يكن يبـ ... ـصر مجدا يختال في الحمراء!

ذكريهم أنا حمائم في السلـ ... ـم أسود في حومة الهيجاء

لكأني أرى رحابك قد صا ... رت قبورا للطغمة الغوغاء

وبنوك الأسود لفوا على الهـا ... م غصون العمائم الزرقاء!

(*) نشرت هذه القصيدة بمجلة دعوة الحق، العدد العاشر السنة السادسة عشرة صفر 1395 هـ - مارس 1975 م

والأناشيد والزغاريد في كل ... كثيب وملء كل فضاء
كل ليل وإن تطاول ماشا ... ء سيمحوه ساطع من ضياء
قل لمدريد إننا سوف نأتي ... شئت يا سنيور ريتا أم لم تشائي!
قسما لن تنام عنك عيون ... لا، ولن نستكين للأعداء
قبل أن ترجعي إلى الوطن الأم ... رجوع الأبناء للآباء
سوف ينهار ما بنوه على الرمل ... ويذروه زحفنا كالهباء
فكفاهم ما استعبدوك وساموك ... خسفا في تربك المعطاء
لم تطل بعدنا الشوائب إلا ... لتطيل العناق عند اللقاء!

*****

ها هنا أمة إذا ما أرادت ... كان فيما ترى مراد القضاء!
وهنا عاهل إذا ما ادلهمت ... لاح بدرا في الليلة الظلماء
يتحدى الخطوب كالحة الوجه ... ويهدي بثاقب الآراء
بك يا صانع المفاخر والبا ... ني الذي قاد شعبه للبناء
تتباهى أجيالنا وتغني ... بك نشوى مواكب الشعراء

*****

البساط المخملي

علي الصقلي

على بساط من الرمـ ... ـل مخملي مذهب

بدا كوجه غدير ... عليه نثر الحباحب

وقد يموج فيبدو ... كربرب إثرَ ربرب

وقد يغور، وقد يعـ ... ـتلي كذروة أحدب

وقفت ألقي بطرفي ... على مداه المحجّب

فيرجع الطرف كَلاًّ ... لبعد مارام متعب

بحر ترامى فجاجا ... لا! بل من البحر أرحبا

وربما كان فيما ... يضمه منه أعجب

*****

البيد جوا وأرضا ... مهد الجمال المحبب

نسيمها كأريج ... يا ما أرق وأطيبا

وشمسها لا تداني ... بمشرق وبمغرب

كانت تسيل سماها ... نضارة وتذوب

وأفقها بدماء الـ ... أصيل دوما مخضّب

على رباها جلال ... لألف سر مغيبا

كأنها دار نسك ... لمن غدا يترهب

*****

يا خنافسًا لجنة البيـ ـد بين ذئب وثعلب

ـحذار من حملة، ثـ ـم في متاهة سبسب

للبيد راشها العا رف الخبير المجرِّب

حتى إذا عسعس الليـ ـل، واحتوى الكون غيهب

أطل من كل صوب كنُصبة فيه كوكب

يهدي السُّراة الحيارى إلى الصراط المصوَّب

إن تعقم البيد أرحا فسادة الناس تنجب

وسادة الفكر والرو ح والخلاق المهذب

أليس منهم فتاها محمد خير من دبّ !؟

*****

الخير في البيد يجري بكل مغنًى ومذهب

ان لم يكف من سماها فمن ثراها كصيِّب

البيد خير مصلًّى ومستقر ومكسب

لذاك دون سواها كانت إلى الله أقرب

*****

ملحمة المسيرة(*)

أحمد عبد السلام البقالي

إعلان المسيرة

طغا الشر من حولنا وتمرد ونادى بويلاته المستطيرة
وهدد وحدتنا وتوعد بإبقاء صحراء أرضي أسيرة
وآلى على نفسه وتعهد بتحطيم آمال قومي الكبيرة
وأظلم في أفقنا كل فرقد وزلزل أهل العقول الصغيرة
فناداك ربك يابن محمد وأوحى إليك بسر المسيرة

*****

وناديتنا فسمعنا النداء يجلجل بين الربا والجبال
يبشر صحراءنا بالرجوع إلينا، ويعلن قرب الوصال
فأيقظ فينا الحماس القديم وألهب أرواحنا للنضال

*****

سمعنا فجئناك من كل غور بعيد، ومن كل فج عميق
وماجت بأفواجنا أرضنا وغطى بنا السيل كل طريق
وهب لنصرتنا كل شهم وبان العدو، وبان الصديق

*****

(*) من ديوان «أيامنا الخضراء» للشاعر أحمد عبد السلام البقالي.

في طرفاية

وفي طرفاية كان التلاقي ... بأحضان المحبة والعناق
وشوق المومنين إذا تداعوا ... لنصر الحق جاؤوا في سباق
وعادت ذكريات المجد تترى ... معطرة بأنسام رقاق
بطارق وابن تاشفين وشعب ... يشق البحر ساعة الإنطلاق
بمعركة المخازن يوم فزنا ... وكان الروح قد بلغ التراقي

*****

وتبنى الشعب المسيرة وانهـا ... لت عليها أمواله بسخاء
وأتانا التأييد من كل صوب ... وغدا خصمنا بلا أصدقاء
وأتى من أرض العروبة إخوا ... ن لنا في حمية وإباء
وأتى من بلاد إفريقيا السو ... د لنصر المحجة البيضاء
ورنا العالم المغدر مسحو ... را لشعب المسيرة الخضراء

*****

وشيدت مدن وسط القفار كما ... لو قيل: كوني، فكانت! روعة الزمن
ورفرفت فوقها الأعلام معلنة ... قرب انضمام جنوب القطر للوطن
وجن أعداؤنا واحتار قائدهم ... في صد بحر من الأهوال والفتن
دقوا المتارس والألغام واعتصموا ... خلف المدافع في رعب وفي وهن
وظن حارسهم نبض القلوب بها ... طبولَ حربٍ تزف النصر للحسن

*****

الإقتحام

وناديتنا يا أجَلُّ إمـام ... بصوتك ذاك القوي الرصين
وقلت ادخلوا أرضكم بسلام ... وعودوا لصحرائكم آمنين
فسرنا معا قدما للأمام ... نلبي نداءك مستبصلين

*****

لبيك لبيك يا ... ذا الجلال والإكرام
لبيك لبيك عد ... نا لأرضنا بسلام
لبيك عدنا إلى وصـ ... ـل أقرب الأرحام

*****

وصليت لله ركعتان ... وتليت مصاحف القرآن
وفاضت القلوب بالإيمان ... وعنت الوجوه للرحمان

*****

وانتشرت زحوفنا المنسابة ... من حولهم كأنها سحابة
وأصبح المدفع والدبابة ... يبدو لنا كأنه ذبابة
واقتحمنا أشواكهم وانتزعنا ... ها، ودسنا الألغام بالأقدام
واقتلعنا حدودهم وسحونا ... ها كمحو الصباح للأحلام
واحتللنا حصونهم ورفعنا ... في سماها خوافق الأعلام
ورأى خصمنا العزيمة والإيـ ... ـمان تجتاح أفقه المترامي
فأتانا يبغي الوفاق، فصُنَّا ... وجهه عن هوان الإستسلام
ومددنا يد المودة للجا ... ر.. وهذي مكارم الإسلام،

عودة المسيرة :

إلى العائدين بالنصر

يد الله في يدنا واسمه   على فمنا في الضحى والغروب
تشع النفوس بألطافه   ومن ذكره تطمئن القلوب

*****

أيا عائدين بصحرائنا   إلى الوطن الأم منتصرين
صنعتم لنا ولأبنائنا   من المجد تاجا يضيء الجبين

*****

بنيتم جسورا بأجسامكم   إليها وأرصفة وسدود
ومنها محوتم بأقدامكم   حدودا مزيفة لن تعود !

*****

وأعطيتمو مثلا في النظام   وفي الصبر والبذل والتضحيات
فعودوا كما سرتمو في سلام   بكم حقق الوطن المعجزات

*****

فبشرى لكم بالذي قادكم   إلى النصر هذا الإمام الحسن
وبشرى لكم باستجابتكم   سراعا لصرخة هذا الوطن

وطوبى لِمُلْكٍ على مثلكم   دعائمه شيدت في الزمن
ومرحى لمغربنا بإمام   وشعب له بالفؤاد احتضن

*****

وبارك ربي مسيرتنا   وحقق أهدافها الطاهرة
فقد كشفت ظلمات الجحود   بلألاء أضوائها الباهرة

*****

إنزال العلم

وأتى قائد المسيرة بالبشرى   بأن الصحراء ردت إلينا

وقضى الله ما قضاه، وقيل   الحمد لله أن أفاء علينا

*****

وقال القائد الأعلى رجوعا   فعدنا في امتثال وانسجام

وودّ الحاسدون لو انفجرنا   وهجنا، واندفعنا للأمام

وهِمْنَا كالجراد نعيث فيها   فسادا، وانتشرنا كالهوام

فأذهلهم تماسكنا، وما شا   هدوه من انضباط وانتظام

وقال الناس هذا الشعب حقا   جدير بالجلال والاحترام

*****

وعلى قبة العمالة بالصحـ   ـراء قمنا في عزة وإباء

أنزل الفاتحون رايتهم والـ   ـدمع يجري والنار في الأحشاء

ورفعنا مكانها الراية الحمـ   ـراء تزهو بنجمها الوضاء

سلّموها تسليمنا لمفاتيـ   ـح مغاني (غرناطة) الفيحاء

وأعدنا ما كان من حقنا ضا   ع بعهد الأجداد للأبناء

*****

قلائد المجد

عبد الواحد أخريف

ذكرى «المسيرة» عيد عاد يحيينا
ويبعث الشعر شدوا من أغانينا

بالفخر حل فهاجت فيه نشوتنا
فقد نهلنا من الأمجاد ما شينا

طاف النعيم بها في كل ناحية
فلم يجد غيرنا يحيا بماضينا

عز على هامة الجوزاء رفرفه
وسؤدد ظل للدنيا رياحينا

شمس المعارف في آفاقنا سطعت
فعمت الكون إحسانا وتبيينا

وللبطولة في تاريخنا صور
قد زركشت يدنا منها الميادينا

«أنوال» تنطق في صمت يجلله
من هيبة البأس طيف من عوالينا

وفي «المخازن» صيحات الجهاد على
ربوعه لم تزل مسموعة فينا

وفي معارك تحرير البلاد لنا
قدسية سرها أقصى أعادينا

خروا ونحن على أشلائهم قمم
رغم العتاد الذي يغني الملايينا

إن كان زاد العدا فينا عبيدهم
فزادنا الصبر، والإيمان حامينا

النصر في ركبنا زاه يعانقنا
متى نناد يجيب النصر آمينا

نضيف كل غداة للعلا سندا
وما تنفس صبح ليس يرضينا

قلائد المجد تهوى جيد مغربنا
لامعة درها يزداد تلوينا

لا يكمل العقد حسنا غير واسطة
وبالمسيرة فاق العقد تزيينا

«مسيرة الحسن الثاني» وأمته
بها توحد شمل الدار ميمونا

خضراء أرسلها والسلم في يدها
ومصحف الذكر يعلي شأنها دينا

أسودها عبروا خطا توهمه
عدونا فاصلا بين المحبينا

رجالها الزرق والأفراح راقصة
يزغردون على بشرى تلاقينا

عاث العدو فسادا في ديارهم
واسترخص الحر تعذيبا وتهوينا

و«بالمسيرة» سار الخير منهمرا ... والعسر بدّل تيسيرا وتليينا
واليوم تنطلق الصحراء لابسة ... من الغنى حللا تزهو أفانينا
صيغت مظاهرها صوغا يجددها ... مغيرا وضعها شكلا ومضمونا
قد أصبحت جنة خضراء يانعة ... لفح الوجوه بها قد عاد تسرينا
بدا بها القفر جنات كان بها ... «رضوان» زف إلى الأهل البساتينا
صحراء في الاسم إلا أنها قطع ... من الرياض غدت بالحسن تسبينا

*****

جرى بها السلسبيل العذب مندفعا ... والعيش تحت ظلال الخير يصبينا
مسالك السير قد صارت ممهدة ... وأصبح المهيع المهجور مأمونا
معاهد العلم تعلو في مرابعها ... زهورها ترتوي بالعلم تلقينا
عشرون عاما من الإنجاز مؤتلقا ... كأنها القرن تشييدا وتحسينا
في كل نجد بناء شامخ ويد ... تعلي لآخر صرحا بين وادينا
أعادها «الحسن الثاني» لموطنها ... وبايع الأهل - مذ كانوا - السلاطينا
في كل حبة رمل مد شاسعها ... حب لعاهلها يزداد تمكينا
لولا إرادة حاميها وعاهلها ... لأصبح الحر فيها بعد مسكينا
إرادة «الحسن الثاني» وقد برزت ... مثل الحديد تلين الصخر تليينا
وحوله الشعب صفا واحدا رفضت ... منه الطهارة شذاذا ملاعينا
الطهر يعبق في صحرائنا جذلا ... والرجس نبغضه حالا بأيدينا

*****

يا إخوة الدار عشتم للوفا مثلا ... شدا به الدهر تسبيحا وتلقينا
جددتم عهد أجداد غطارفة ... شم المعاطس للعليا أساطينا
والفرع كالأصل إخلاصا لمبدئه ... والغصن من جذره يسقي الشرايينا
فلتهنأ الوحدة الكبرى بصانعها ... وصانع المكرمات الغر يحيينا
وليياس الخصم من وهم يخادعه ... مثل السراب فقد نلنا أمانينا

*****

أنا المغرب

أحمد بلحاج آية وارهام

على دعـــائم من دين ومن سنن ... أرسيت مجدي، فجاء الدهر يَلْثُمُني

أنا الفخار الذي يخطو لمؤتلق ... من المسرة، معصوم من الشجن

هذي مرابع عزي، أفقها عبق ... مستخلص من بهاء العِلْمِ والفطن

ترقى التواريخ... لكن باسم منقبتي ... وينتشي الوقت من خمري... ومن مدني

أعطيت من حكمتي للعصر أجنحة ... تسمو به عن مقيت الطيش والإحن

نحوي الجهات مشت، وما عثرت ... وكيف يعثر من بالحب يقرؤني؟!

*****

فاسأل سماء العلا عن شمس الويتي ... ومن نجومي، فمني رائق المِنَنِ

تخبرك عن مغرب أمست فضائله ... ضوءا ينير الخطا في مظلِم الزمن

ونفحة من رياض اليمن ناسجة ... بُرد السماحة في سر.. وفي علن

*****

أنا الشمائل مزهوًا تألقها ... لولاي لم يَصْفُ نهر الروح للبدن

*****

قصيدة من الشعر الحساني في مدح أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني

محمد عبد الرحمن الرباني(*)

مُلاَيْ الحَسَنْ شُكْرُ زادْ — عَنْ مَعْنَى شكر النَّاسْ انْزَادْ
قَاتْ أمْشَرُّوْ عَن شكرُ يَادْ — مَوْرُوثْ امْنِ ابَّاتْ رَاسْنَا
مِنْ سُبْطْ أمْ ثِنْتَى يُمَادْ — تَلِيدْ امن الكَامِلْ غَرْسْنَا
مَنْ في سَيْلُ النُّبُوَّهْ وَادْ — طَاهِرْ نَبْعْ نَبْتْ نَفْسْنَا
زكِي لَبْنَاتْ الَوْلاَدْ — فَوكْ البَشَرْ خَصْنَا
سَدْ اعْلَى فُمْكْ يَالمْجَادْ — مُلاَيْ الَحسَنْ مُسْتَحْسَنْ
فِعْلْ كُولُ الاثْنَيْنْ اكْوَادْ — عَلَو شُكْرُ يَاسْرْ سَنْ
بِلْ لُ والوَارِثْ تِلاَدْ — مَنْ شكر اتْكُولُولْ الالْسُنْ
وَامْنِ المُلُوكْ اكْثَرْ مُفَادْ — وَاوْرَعْ وعْلَمْ واتْقَ وحْصَنْ
مِنْهُمْ واحْلَمْ وامْتَنْ سَدَادَ — وَاكْرَمْ وَاعْدَلْ وَابْرَكْ وَالْسَنْ
منهم واحْقَقْ لَلمُرَادْ — وَارْجَلْ وَاعْقَلْ وَاعْبَدْ وَسَنْ
مِنْهُمْ وَاكْسَ سَمَاعِتْ لِعْنَادْ — وَاعْلْ وَزَوْجَلْ وَفَرْسَنْ
يَمُولاَيْ مَانَكْ مُعْتَادْ — مَعْرُوفْ انَّكْ حَسَنْ بَسَنْ
بُوكْ السّرْ الفَيْدْ مِن .. لاَيْ — سِيدْ مُحَمَّدْ لَكْ وَاحْسَنْ
واكْمِلَتْ الْ خَلْ مُولاَيْ — يُوسَفْ يَمُلاَيْ الحَسَنْ

*****

(*) شاعر الوحدة الوطنية من الصحراء المغربية.

الشاعر عبد الله الفاسي يمدح السلطان مولاي عبد العزيز والشيخ ماء العينين(*)

قال الفقيه الأريب، النبيه الخطيب، السيد عبد الله الفاسي[1] الفهري.

هو ممن أعرفه بفاس، وكان إماما خطيبا في بعض مساجده.

وله في حضرته الشريفة مدائح، ومما وجدت له قوله، يهني أهل فاس بقدوم شيخنا عليهم في بعض أسفاره للسلطان مولاي عبد العزيز، ويمدحه ويمدح تأليفه "دليل الرفاق".

أيا فاس تيهي مفخرا بالوفادة	لقد نلت مجدا في قباب السعادة
وجاءت لك البشرى بمقدم من سما	وحاز مقاما دونه كل رتبة
أمام ولي ماجد ذو مواهب	عظام وأخلاق حسان حميدة
هو الشيخ ماء العينين أصل بهائها	حباه إله الخلق كل مزية
شفاء عيون الناظرين وسرهم	ومن ربه أولاه عظم مهابة
فماء عيون ان صفا فبسره	وماء عيون ان جرى فبطاعة
علوم له جاءت كمثل جواهر	على نمط في الحسن فاض بعزة
تاليفه تنبئك ياطالب العلى	عليك بها ان رمت نيل السيادة
ولو كان إلا مابه جاد منة	"دليل رفاق" كان غاية حجة
له الحظوة العظمى لدى الملك الذي	له يخدم التيسير في كل حاجة
أبا فارس عبد العزيز ومن غدا	يصول على الاعدا بسيف العناية

(*) انظر النص في : «الأبحر المعينية، في الأمداح المعينية، للشيخ محمد الغيث النعمة، تحقيق أحمد مفدي، ص 642

بشأن ولي الله حقا قد اعتنى ... فأحرز ماقد رامه من كرامة

وقد جئته والسعد خادم حزبه ... ويمن له يسمى سريع الإجابة

فيممته أهلا وسهلا ومرحبا ... بطلعة شيخ حاز أعلى وراثة

فطلعته نصر وفتح مؤيد ... لسيدنا المنصور ركن الامارة

وعذرا، فليس النظم يحوي خصاله ... وهل شاعر وفّى بفضل الائمة

حباني به المولى جزل مواهب ... وأعظمها ان جاد لي بالطريقة

على حبه آلليت مادمت باقيا ... وكيف، ومن آل النبي وعترة

عليه صلاة الله ثم سلامه ... وآل وأصحاب غيوث أجلة

مؤبدة مانمق العين ماؤها ... وما خضر ربع من فيوض سحابة

وما قال من أضناه شوقا اليكم ... أيا فاس تيهي مفخرا بالوفادة

*****

الهوامش :

(1) في دليل مؤرخ المغرب الأقصى للسيد بن سودة 1 / 31 : هو العلامة المشارك الوزير، أبو محمد عبد الله بن الفقيه، سيدي عبد السلام بن علال الفاسي الفهري.

ولد في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة. وفي سنة 1304 هـ التحق بالقرويين. وفي سنة 1311 هـ انتهى به المسار الى الصحراء، ليكتب رحلة السلطان المولى الحسن الاول، المسماة : "المسلك البهي الحسن، في بعض ماكان يحسنه من العلوم مولانا الحسن". وفي سنة 1312 هـ، انابه جده في الخطبة العيدية، بعدما خطب أمام السلطان بالمسجد الاعظم.

كان شاعرا طويل النفس، كثير النظم. أهم موضوعات شعره : المدح والدعوة الى إصلاح الذات المغربية، التي كانت قمة التجديد في عصره، كالدعوة إلى فتح الباب أمام المرأة كي تتعلم وتعمل، وإلى تشييد المدارس. له ديوان شعر كبير مخطوط في ملك أبنائه، كما أخبرني المرحوم العابد الفاسي. توفي عام 1348 هـ

ترجم له الاستاذ محمد بن العباس القباج في الادب العربي 31/1.

*****

السلطان مولاي عبد الحفيظ يستقدم الشيخ ماء العينين[1]

يقول :

أيا قمر الدهر الذي تم نوره ... ويا كعبة يحجها كل مقتد
أضاءت بك الارجاء حتى تلألأت ... وأضحت تهني في الورى كل مقتد
وزاد سرورا في الخليقة وافرا ... طلوع محياكم بهالة مقصد
فأهلا وسهلا مرحبا ثم مرحبا ... بطالع سعد في الخلائق مسعد
يؤمل جمع المسلمين قدومكم ... كمالا لبشراهم بوفد مسدد
أنالك رب العرش كل فضيلة ... وأقعدك الرحمن في أي مقعد
مقاما عليا للمكارم جامعا ... على قدم المختار طه محمد
عليه صلاة الله ثم سلامه ... وآله خير الخلق في كل مشهد

يقول مولاي عبد الحفيظ يوم رجوع الشيخ ماء العينين الى الصحراء :

ياتاركين قلوبا نحوهم ظعنت ... ونائلين زوارا منهم الوطرا
هلا منحتم حبيبا من أحبتكم ... بسيرة معكم، يلقى بها الظفرا؟

*****

(1) انظر النص في : الابحر المعينية في الامداح المعينية، للشيخ محمد الغيث النعمة، تحقيق : أحمد مفدي، جـ ا : 657.

الشاعر عبد الواحد الفهري الفاسي(1) يمدح الشيخ ماء العينين أثناء زيارته للسلطان مولاي عبد العزيز بفاس

وقال العالم الفقيه، الأريب النبيه، السيد عبد الواحد بن سيدي عبد السلام، بن سيدي علال الفهري الفاسي.

كان من العلماء الأعيان، والأدباء الفتيان، وهو ممن أعرفه بفاس.

وله في حضرته الشريفة مدائح، ومما وجدت له، قصيدة يهنئه بها في قدومه على السلطان مولاي عبد العزيز بفاس، عام أربع وعشرين وثلاثمائة وألف.

وهي قوله :(*)

أهذا بروز البدر في المحفل الأغر يناديٍ "أهل" من مبصر طلعة القمر
أم المسك قد فاحت عواطر نشره وهب شذى الأزهار من دوحة الظفر
أم الطير غنى في البطاح، فتهفهفت جداول أسرار البشارة في البشر
أم الجوهر المكنون قد فاض بحره بفاس متى حل الهمام به "انبهر"؟
هو المحجة الكبرى في علم حقيقة ولكنه جسر الشريعة قد عبر
فان شئت تصريحا باحصاء فضله فليس الورى والكتب تكفيك للخبر
وان شئت تلويحا لبعض فخاره فكل لماء العين" يفديه في البشر
له النور من بحر الشريعة لامع على عالم الارواح في سابق القدر
به تقوى أرواح المحبين جملة وتقتطف الاسرار من روضة الأغر
فلو فتحت للفتح أبواب فتحه لصار بماء العين "يرسم" للدرر

ولو عاين العيني رائق لفظه ... لاكسبه من رونق العلم مابهر

ولو جر من فن القوافي ذيوله ... لالفى جرير للسلاح وما نكر

ولو عارضت منه العروض ابن أحمد ... "لانساه" ماانشاه من قبل واندثر

فجل الذي أعطاه كل حميدة ... وزاده فتحا قد أنار وما استتر

وكيف ومن أبناء طه؟ لقد بدا ... سنيا عفيفا مستقيما على الاثر

ولي تقي عظم الله قدره ... سني وسني شهير الندى أبر

إمام خضم بحر جود ورفعة ... مهيب صفوح يذهب الجهل والكدر

لقد طالما أولى مواهب سره ... بفاس، وأهدى من نفائس تدخر

عليه جميع الخلق يفصح بالثنا ... كما شاع في الأقطار سره، وانتشر

ففاس لقد تاهت بيمن قدومه ... إذا المسك منها فاح والعنبر الزهر

لذاك أمير المؤمنين به اعتنى ... وأعلم بالاجلال في البدو والحضر

هو الملك المنصور من شاع صيته ... له ساعد السعد العظيم به افتخر

لسيدنا عبد العزيز أميرنا ... مقام عزيز عزه ذاع واشتهر

مكانته علياء وبذله فائض ... له النصر يبدو والعناية والظفر

هنيئا له بالمصطفى وباله ... ليوث بدور وصفهم يبهر الفكر

لباب رسول الله يلجأ من غدا ... ثقيلا بأحمال الذنوب وماقدر

يحط رحال القصر عند ركابه ... يلوذ به مستشفعا مطرق البصر

يقول ايا خير الأنام محمد ... اغثني أجرني، ياملاذ الذي عثر

عليه صلاة الله ماهبت الصبا ... وآليك والأصحاب ماابتهج القمر

وماأنشد المضنى بحب جنابكم ... أهذا بروز البدر في المحفل الأغر

(*) انظر : الابحر المعينية، تحقيق : أحمد مفدي، ص 507.

(1) ولد بفاس حوالي 1875م. كان والده عدلا وخطيبا. وبعد أن انهى دراسته بالكتاب القرآني، التحق بالقرويين ليأخذ عن شيوخها آنذاك. ومن بينهم العالم احمد بن الخياط، والعالم محمد القادري.
عين في مناصب عديدة منها خطة العدالة، ثم عدلا في مرسى العرائش في العهد الحفيظي، ثم عين كاتبا بالمجلس العلمي بفاس. وأخيرا أسندت إليه وظيفة القضاء. حاول الاستعمار ان يدفعه الى إقناع ولده الزعيم علال الفاسي بالتخلي عن نشاطه السياسي، ولما فشل، عزله من القضاء. توفي وولده في المنفى بالكابون في 13 نونبر عام 1942.

*****

الشاعر الامين بن اليدال الديماني

قصيدة للشاعر الأمين بن اليَدَّال الديماني، ألقيت أمام السلطان مولاي عبد الحفيظ سنة 1325 هـ، بمناسبة وفود قبائل الصحراء لتجديد البيعة وطلب السلاح، لصد الهجوم الفرنسي على جنوب المملكة المغربية، نقتطف منها مايلي :(1)

ألا فإلام اللهو، أم انت غالط ... عن النهج من صوب الهدى، ام مغالط؟
وماذا الإنى إذ جد بالامر جده ... على الهزل بالخلط الذي انت خالط؟
على حين يأتي الحلم من سفه الصبا ... وتم الحجا والرأس بالشيب شامط
وما لقديم العهد لم ترع حقه ... وقد بسطت خد الوفود البسائط؟
فعد، فلا عتبى عن الدهر بعدما ... رمتك بأفلاذ الكبود الشناجط
بلى إنه الجد المبين على التي ... يساء بها ذو الاوبة المتواسط
وفي فلك العلياء لابدر طالع ... ولا شمس منها تستضيء البسائط
سوى النير الوضاح في ظلماتها ... ضياء سراج الحق اذ هو ساعط
هو الشيخ ما العينين، ياخير من مشى ... ومن ضربت يوما عليه الفساطط
روابطه مختومة العود للذي ... له الوصل لما أن تخون الروابط
وهيبته تد هي العقول، وإنما ... على قدر افهام القلوب يباسط
وأقلامه يخططن كل كريمة ... إذا انكسرت عنها القلام الخواطط
أناخوا بباب الفضل عندك، والذي ... يؤمل فضلا من ذوي الفضل غابط
فجاء بهم مستقدم الركب كالذي ... على الجيد حليا زينته الأواسط
شفيعا الى خير امرئ وطيء الثرى ... فناهيك موسوط اليه وواسط
إمام همام ليس يجحد فضله ... من الناس الاجاهل أومغالط

---

(1) أنظر الأبحر المعينية، تحقيق أحمد مفدي، ص 489.

به السعد أضحى ناهضا بعد كبوة / وركن المعالي بعد إذ هو ساقط
ولما تولى أصبح الامر ناهدا / وأضحى قريرا عينه وهو غابط
وأفرخ روع الدهر من لزباته / وأرغد عيشا بعد أن هو قانط
وأفجر ليل الحق بعد ظلامه / وفي يده أضحى إذن وهو ساقط
وأرْكِسَ في نحر الاصيفر كيده / فأهمل حرفاً بعد إذ هو ناقط
فلاهو في سلم فيقضي مرامه / على الكيد بالقيد الذي هو غابط
ولا الحرب مستطاعا مع الامر جهرة / فيأخذ بالشرط الذي هو شارط
ولا بمطيق ينفذ الارض عنوة / فتبسط بالكف الذي هو باسط
ليبلغ فساه حيث لاهو بالغ / وماهو الابائس القلب قانط
فذاك أمير المؤمنين ومن له / مقام العلى عبد الحفيظ المرابط
ذكي الحجا بحر الندى قلم الهدى / سري الحلى للملك بالعدل ضابط
وإمسا تزره، أو تحل بداره / وأنت كما يرخي العنان المباسط
تجد عبقريا لازميلا معولا / على عرض الادنى ولا هو قاسط
فدى لامير المؤمنين نفوسنا / وأموالنا أولادنا والاسابط
أعالي الذرى آتوك من كل أمة / قبائل عزمّا لهن أخالط
ومالبط بالسبطين من علوية / ومن آل بُوحَسبُّنْنِ ركبها أراهط
وكالوفد من آل الاشج وناقص / وأبناء شمس الدين حيث المراسط
ومن آل عبد الله محمود والذي / من أحمد من دامان في العقد واسط
وللجكني الوفد من خير فتية / ومنا بني ديمان في الركب فارط
وحاحيها صاديها ومسومها / ولمتونها أفلالها والزوافط
أولادهم الازكون والسادة العلى / إذا ازدان بالمجد الاناس الاواسط
لتعن بهم يامظهر العدل، إنما / يعين على الحسنى السري المعابط
تدارك بهم مامن عليهم سلبته / خيول الأعادي والسنون القواحط
وأرسل جماعات الجيوش وراءهم / مرابط خيل بعدهن مرابط
وحقق منك الظن أن ستمدهم / بوفق المنى، أو وفق ماأنت شارط
فعمري، لأنت البدر تشرق في الدجى / وقطر الحيا، والعام أشهب قاحط
وأنت الذي تاتيك من كل وجهة / وفود الورى من حيث تنأى المساقط

*****

رباط الفتح مأوى الوافدينا

للشاعر يحجب بن خطر

قصيدة للشاعر يحجب بن خطر آل الشيخ ماء العينين، أنشأها بمناسبة تجديد القبائل الصحراوية البيعة للمغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه عام 1958، يقول :

رباط الفتح ماوى الوافدينا — عليه ظاعنين وقاطنينا

ومنظره البهيج بغير شك — له تعنو الحواضر أجمعينا

أمير المؤمنين وقد أتينا — لبيعته السنية حاملينا

وذا شيء به نقفو قديماً — أوائلنا لآلك الأطيبينا

ملوك المغرب الاقصى حمدنا — عليهمها الله رب العالمينا

ونحمده عليك اليوم يامن — ورثت لعرشهم دنيا ودينا

خرجنا ارضنا طرا وفيها — ضعاف مسلمين ومخلصينا

بلا مال هناك ولامعاش — ولا سكن بايدي الكافرينا

علوج الروم تخدمها نساء — واطفال بقين مشردينا

بذا الجزء الجنوب وانت ليث — شجاع مانخاف به كفينا

(ولم ار مثلكم صبرت عليه — صروف الدهر ابكارا وعونا)

أقسر على نزول الخطب جاشا — واوضح تحت حادثة جبينا

من الشعب الوفي حملت كلا — ثقيلا عنه لم تضعف يقينا

به المنفى السحيق أثرت حتى — رجعت مظفرا حصنا حصينا

وكل الشعب حولك لايبالي — بافراد لئام خائنينا

فحالهم يؤول الى وبال — سريع قاطنين وظاعنينا

بجيش منك يفعل ماعليه — شمالا حين يزحف أو يمينا

فعجل اننا لم نأل جهدا … متى جئنا لبابك راغبينا
نسينا ماوجدنا حيث انا … حططنا الرحل عندك آمنينا
وكنا لانفرق بين ليل … ويوم يامناخ المستتبينا
ولانخشى على ارض ومال … واهل بعد ذا حينا فحينا
وماهو كائن في من العال نرجو … سريعا ان يذاع وان يكونا
مجال الصبر أصبح في نفاذ … وانصبنا تكلف مالقينا
شهورا من لياليه جمعنا … ومن تعداد اشهره ستينا
وانا بالاله على الاعادي … سنظفر ياأمير المؤمنينا
ونروي من دمائهم سيوفا … تطهر منهم الدنيا يمينا
لانا في الحروب أشد باسا … على الاعدا ونحفظ مايلينا
جموع عداتنا في كل آن … بأيد رجالنا تلقى المنونا
ولا نبغي بغير الحق شيئا … ولاترضى بغير المسلمينا
ولا نحتاج ان نبدي ارتياحا … متى جئنا لبحرك واردينا
وشوقا بالنجاح لديك حالا … ونرجع سالمينا غانمينا
بقيت لنا كما في الدهر نهوى … وتهوى ياملاذ الوافدينا
الى ان شعبنا يلقى جنوبا … شمالا واحدا قطرا مكينا
وفيه الراية الحمراء تعلو … ولا أخرى به للناظرينا
ودام لنا ولي العهد ذخرا … واخوته الاماجد الأكرمونا
ذكورا حيثما كانوا إناثا … جميعا غائبين وحاضرينا

*****

معركة الصحراء

للشاعر : أبو بكر المريني

بني وطني هبوا قد استفحل الامر ... وفرخ في صحرائنا الدس والغدر

لقد بيت الاسبان فصل قفارنا ... عن الوطن الغالي وفي النية المكر

وردت الاخبار ماخططوا لها ... وماعزموا فطابق الخبر الخبر

وقد مزقوا ماقررت أمم بشا ... نها، وطغوا باغين يحد وهموا الشر

يريدون تزييف الارادة جمهرة ... بساقيتي الحمرا وواد هو التبر

لعزلهما عنا، وتعميق هوة.. ... الشقاق لكي ما يستمر بها القهر

وتنصيب أنصاف الرجال.. لدولة.. ... وليس لهم في الحكم نهي ولا أمر

وقد هيأوا للصفر أبلد خطة ... ثراها، وفي الصحراء كم يصعب الحفر

وقد جهلوا أن الفيافي منيعة ... وأن بها كم يسهل الدفن والقبر

وأن أشقاء لنا في عيونها ... وأنهمو عيوننا يشهد البحر

فإن مسهم قرح تقطع قلبنا ... وان مسهم ضر فقد مسنا الضر

ونحن همو كواحد عند صدنا ... سواء هنا أو ثم يجمعنا الصدر

وإنا وإن فكت قيود شمالنا ... فهذي يميننا يكبلها الأسر

فلا نستطيع أن نضم أحبة ... بكلتا يدينا حيث يكتمل البشر

ونحن كمخلوق أشل بنصفه ... ومابنا من عاهة بل هو الاسر

بني وطني ضجت قفاركمو بصيـ ... ـحة النجدة الكبرى وقد نفد الصبر

قبائلنا في البيد شد خناقها ... بمرتزق وراهب معه السفر

وخيراتنا نهب لأخبث غاصب ... وعمالنا فيها حصاد همو الصفر

ودين علينا أن نحرر أرضنا ... ولن ينفع الاحرار في يومنا عذر

وقد أجمع الشعب الابي على الفدا   وإجماعنا يقوده الملك الصر

وللحسن الثاني عقدنا لواءنا   لتحرير أجزاء الصمى فله الامر

ويل لخصمي أن تمادى بغيه   وان يتحدانا فقد ضمه القبر

ومعركة الصحراء في قلب شعبنا   وقائدنا حتى يتم لنا النصر

وإنالها عرشا وشعبا ودولة   لها الدم بخس والنفائس والعمر

ولسنا هيامى بالقتال وإنما   إذا اضطرنا الاعداء كنا ولافخر

ليوث الوغى في شدة الفتك بالعدا   ونسحقهم سحقا وموعدنا الفجر

وانا لأهل السلم للمتقين بط   شناء نحفظ السلام رائدنا الخير

وإنا لقوم إذ نوقت للوغى   لننقض في الهيجا كما يفعل الصقر

وتمشي المنايا في ركاب جيوشنا   ويسبقها الاعصار والهول والذعر

وماهي الا كرة ثم ينتهي   ببيدائنا عهد يدعمه الكفر

بني وطني في قلب صحرائنا ابشروا   فقد أشرقت شمس الفدا نورها نصر

ويوم غد هادي الجمال يغنيكمو   يزهو بطولات الفدا كلها فخر

فمهلا فإن موعدي معكم ضحى   فإن لم يكن ضحى فموعدنا العصر

ويعتز تاريخ النضال بشعبنا   وكم وشح التاريخ شعبي ولافخر

******

اليوم المشهود

للشاعر : ابو بكر المريني

قف يازمان فان اليوم مشهود ... الحق جاء وظل الله ممدود
والحق يعلو، ولا يعلى عليه فقل ... لمن تربص : للتزوير تفنيد
والحق مطلبنا، والعدل حجتنا ... والسلم خطتنا والحكم تأييد
"لاهاي" أنصفت لتاريخ مقسطة ... وللعدالة تقدير، وتمجيد
قد أكدت بيعة الصحراء قاطبة ... لعرشنا، فحذار اليوم مدريد
كفاك لفا وتضليلا وسفسطة ... لاينفع اليوم تدليس، وتعقيد
وليحذر الجار من طيش، ومن شطط ... فما لجرح ذوي الارحام تضميد
فالشعب كالموج لهاج بوحدته ... والعزم فينا على التحرير معقود
والله اكبر تعلو في مسيرتنا ... والنصر آت تحييه الزغاريد
وكل حبات رمل البيد راقصة ... شوقا لاقدامنا، لبيك يابيد
لبيك صحراءنا لبيك من حسن ... ومن رجال هم الصيد الصناديد
نفديك من كل طماع ومغتصب ... والمجد في مفرق الصحراء تأبيد
عهد علينا انتزاع الحق مكتملا ... ولايخيف جموع الشعب تهديد
وخلفنا يزحف الشعب العظيم له : ... فينا فداء مدى الأزمان معهود
الشمس تسطع والايام شاهدة ... ان الطريق على الاعداء مسدود
واليوم هجرتنا لله نعلنها ... خضراء في خطوها سد وتسديد
أعلامنا الحمر في الصحراء نرفعها ... والله أكبر تهليل وتحميد
وفي يد مصحف، وفي يد علم ... وفي اللسان كلام الله تجويد
جيشنا نزف سلاما في مرابعنا ... لاخوة حبلهم بالله مشدود
انا لنكتب بالقرآن ملحمة ... لها خلود، وتمجيد، وترديد

في المغرب اليوم الحشر نسبقه   على مدى البصر الممدود مشهود
مسيرة الفتح والاعلام خافقة   قوامها الشيب والشبان والغيد
كانها رجة في الارض منبثة   بساحة الخصم فهو اليوم مزؤود
والشمس تشرق من اقصى مغاربها   خلاف عادتها، واليوم موعود
والشعب بالرائد المقدام ملتحم   عرش وشعب، وتحرير وتوحيد
من ذايرد الاماازيغ الأباة على   أعقابهم؟ ولهم في زحفهم عيدا؟
من يستطع رد آلاف مزلفة   تسعى الى رحم والقلب معمود؟
والله أكبر في الدنيا مجلجلة   مهيبة، مالها حد، وتقييد
والله أكبر بالصحراء تجمعنا   والله اكبر للارحام تجديد
كأنها الرعد في الاجواء مرعبة   يخشى صداها عدو الله رعديد
فليتعظ جارنا انا زبانية   وثارنا صقر، والعار تنكيد
ونحن بعنا الى الرحمان أنفسنا   والبيع لله ربح كله جود
والله أيدنا بالجند من ملإ   أعلى ومالجنود الله تحديد
من يعتصم بك يالله تنصره   وان نصرك يا الله منشود

سلا، في 1975/10/21

*****

رسالة حب للعيون

للشاعر : أبو بكر المريني

هاأنا قادم إليك عيوني بحنين ملأى بكل حنان

وبقلب فاض الهوى فيه حتى لم يعد قادرا على الكتمان

وبنفس ظمأى للقياك ظمأى لعناق النخيل والكثبان

وسأمشي على عيوني فداء لك ياصحرائي من الطغيان

حاملا أشواقي وأشواق أهلي وسلام الإخوان والجيران

ودعوني والدمع يجري ابتهاجا بماق أغنت عن الترجمان

ومناديلهم حمامات بشر تتبارى على ارتقاء العنان

كي أراها وقد تناءيت عنهم وهمو في عرس وفي مهرجان

كلهم قد بحت حناجرهم بالنصـ ـر والزغردات والقرآن

كلهم مشتاق إليك وما أقـ ـعدهم إلا مانع الإمكان

حملوني إليك أغلى الأماني وتحايا عطر، وبكر التهاني

حملوني رسالة رقموها في فؤاد من المسك والزعفران

ملئت حبا صارما فوق ماظـ ـن العدا بل ماكان في الحسبان

فاقبليها مني سفارة حب من محب متيم ولهان

مراكش، في 1975/10/28

*****

قلعة المجد

أبو بكر المريني

ياقلعة المجد بل ياقبلة الأمم ... أغرودة أنت للدنيا بكل فم

وردية الخد تسبي من يغازلها ... هيفاء تختال في الأعراس والنعم

سمراء تحتضن العشاق في وله ... فيغرقون بها في السحر والنغم

فيحاءكم تفتن الغاوين ساحتها ... عطفاء مشهورة بالظرف والكرم

حسناء لاتبلد الأيام ضرتها ... بها قباب العلا خفاقة العلم

تكفي منارتها للناس معلمة ... يبلى الزمان ولاتبلى من القدم

تروي بطولاتنا من عهد وحدتنا ... بالدين والفكر والعادات والرحم

وإنها الشاهد المعصوم من خطإ ... يعيا الخطيب ولاتعيا من الكلم

مراكش الحصن منها الزحف منطلق ... إلى ربوع عليها حالك الظلم

والنخل يرقص فيها اليوم منتشيا ... ويمتطي صهوة التاريخ في شمم

يعانق الشمس في عليائها جذلا ... وقد أطل على الصحراء والقمم

كأنه كاتم الأسرار مؤتمن ... على سرايا الهدى والحق والقيم

فاليوم قد بعث ابن تاشفين بها ... محاربا بسلاح العقل والحكم

والله ألهمه نهج الفتح ثانية ... بالزاحفين إلى الصحرا على قدم

ويحملون كتاب الله قوتهم ... مزيدين بآي الفتح والقلم

يسعون للأهل في البيد التي اغتصبت ... ولم تعد لهمو موصولة الرحم

من كل فج عميق هج وفدهمو ... يرجو الشهادة أو يقضي على الصنم

وفد كأنه بركان تفجر بغتة ... .. فاندهش كل الخلق بالقسم

وإنه قسم لو تعلمون عظيم ... .. من مليك وشعب عالي الهمم

فاخلوا السبيل له يحي روابطه ... أو تقتلون نفوسكم من الندم

*****

شعب المسيرة في التاريخ والكتب

للشاعر : أبو بكر المريني

شعب المسيرة في التاريخ والكتب ... حر أبي، كريم النفس والنسب

شعب الأصالة ذو مجد وذو شيم ... وذو ملاحم لاتنسى مدى الحقب

شعب البطولات يبني المجد في قمم ... تعلو على قمم الجوزاء والشهب

شعب المكارم والحصن الحصين لها ... تروى حضارته عن شامخ الرتب

شعب به تضرب الأمثال في قيم ... تعز في أمم الاعجام والعرب

شعب الفدا كلل الأبطال هامته ... بالفخر والعز لابالدر والذهب

شعب تألق بالأفذاذ من قدم ... فسل مسيراته تغنيك بالعجب

شعب بدين الهدى أرسى قواعده ... ولن تزحزها حمالة الحطب

شعب إذاطلب الإخوان نجدته ... أعزهم، وابتلى الاعداء بالنوب

شعب التحدي أنا، شعب الصمود أنا ... ولست باللقب الملقى على لقب

وسيد في الوغى مهما استعر وطيـ ... ـسها، ومهما يكن فيها من الحطب

وعدتي الحق والرحمان ينصرني ... ولا أهاب نعيق البوم في الخطب

سلوا السمارة عني حين هاجمها ... بالامس تسعة رهط من أبي لهب

كيف لقوا حتفهم ليلا، وكيف جعلـ ... ـت بعضهم مثلا في شدة الهرب

وكيف ردت الأنباء خزيهم ... وكيف كانوا وقود النار واللهب

حرب صليبية هدى أواجهها ... من المخازن حتى وادي الذهب

تدار بالأخوة الجيران وأسفا ... لم تجد فيهم مساعي الاخوة النجب

فقد أباحوا دماء المسلمين وغر ... هم حليف عدو الله والكتب

فيامن اتخذوا الشيطان قائدهم ... بئس الولي، وبئس الحلف من قصب

كونوا وقودا لحرب الظلم وانتحروا ... بئس الوقود برهط من أبي لهب

شعب التحدي، أنا شعب المسيرة لا شعب الشعارات والتزييف والصخب

وقائدي الحسن الثاني الأمين على أمني وديني، شريف النفس والنسب

أعظم به قائدا أكرم به نسبا أكرب به بطلا يسمو على الرتب

إن يدع للسلم كان العبقري، وإن جروه للحرب ألقاهم على النصب

سلا : 2 نوفمبر 1979.

الفهرس